حليم يوسف







99
خرزة مُبعثَرَة

ترجمة: جوان تتر

حليم يوسف

٩٩
خرزة مُبعثَرَة



ترجمة

جوان تتر

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

جوان تتر/ مواليد عامودا 1984. تخرج في جامعة حلب. حازت كتاباته على العديد من الجوائز: جائزة الملتقى الثاني لقصيدة النثر (القاهرة 2010)، جائزة البحر الأبيض المتوسط (إيطاليا 2021). صدر له: "هواء ثقيل" 2010، "الموتى يتكلمون هباءً " 2018، "كتاب الأشياء" 2019، و"خيط رفيع من الأسى" 2020. يترجم من الكردية إلى العربية ومن ترجماته: "حين تعطش الأسماك" رواية لحليم يوسف، و"المخلوقات لا تعرفك" منتخبات شعرية.

....

99 خرزة مُبعثَرَة

طبعة 2022

رقم الإيـــــداع: 26523/ 2021

الترقيم الدولي: 978-977-821-231-0

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

يزسف ، حليم
٩٩ خرزة مبعثرة: رواية/ حليم يوسف ، ترجمة: جوان تتر
القاهرة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢١
٢٤٤ ص، ٢٠ سم
تدمك ٠-٢٣١-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص الكردية
أ- تتر، جون (مترجم)
ب - العنوان ٨٩١,٥٩٣

رقم الإيداع: ٢٦٥٢٣/ ٢٠٢١

إهداءُ المترجم:

إلى زوجتي هَلبست، مرَّةً ثانية، وابني شيرو.

الخرزةُ من خارج السُّبحة

مساءَ السادس عشر من آذار / مارس، في منطقة «نيدرسكاسِن» الألمانيَّة، ثمَّة كرديٌّ غزا شَعرهُ الشيبُ يمشي في الشارع، قُتِل غدرًا على يدِ شابٍّ في الرابعة والعشرين، يبلغ طولهُ مئةً وخمسة وتسعين سنتيمترًا.

كادت معرفتي بالمقتول أن تكونَ معرفةً سطحيَّة، وكان قد مضى على مجيئنا إلى ألمانيا عامانِ فقط، منذ ذلك اختمرت في رأسي فكرةُ بناء رواية.

منذ عام ألفين وأحد عشر بدأتُ العمل في الترجمةِ، بغية الحصول على قوت يومي، وعلى إثر مصاعب الحياة باتت الحادثة تلك بالنسبة إليّ حلمًا بعيدًا، أو ربّما جرحًا قديمًا، ولولا تلكَ المصادفة لنسيتُ الجرح.

جعلتني المصادفةُ مترجمًا لامرأةٍ كرديَّة في مصحٍّ نفسيّ، وبعد معرفةٍ طويلة بها مدّت إليَّ دفترًا ذا غلافٍ أزرق متهرِّئ، سوى أنَّ الكلمات بداخله مدوَّنةٌ بخطٍّ جميل، مع القراءةِ تقشَّر الجرحُ القديمُ ليتسلّل إلى داخلي ألم مستجد، كانَ دفترًا يحوي يوميَّات الرجل الأشيب، قمتُ بترجمتها، يوميَّاتٌ تفصحُ عن ألمي وألم من هم مثلي، حين قرأتُها اختلطَ الأمرُ عليّ، ولم أفهم إن كان يتحدّث

عنّي أم عن نفسه! لكن ولأجل بعض الأسباب المعروفة، قد غيَّرتُ الأسماء الحقيقيَّة الواردة وأضفتُ على السّبحةِ خرزاتٍ صنعتُها بنفسي، وأيضًا رتّبت الفوضى في الدفتر، الفوضى الشبيهة بفوضى خرزات سبحتهِ السوداء التي في يده، والمؤلَّفة من تسعة وتسعين خرزة، وقد أعدْتُ ترتيبها خرزة إثر أخرى.

(ملاحظة المؤلّف)

الخرزة 1: خرزةُ بداية الخيط

على إثرِ ضربة القضيب الحادّ التي تهاوت على جمجمته قُضيَ كل شيء، انتهت الأحلام، بَهُتت الأنوار في العيون، تهدَّمت آمالُ القلب. ارتعد الطائرُ الأسود في السماءِ العالية، حضنتْ شجرةٌ بباحةِ بيتٍ في بلادٍ بعيدةٍ أغصانها وبكت، سقطت جمرةٌ في الماء وكانت تحت رمادِ حبٍّ قديم. رجلٌ غريب سَويٌّ سقط على الأرضِ إثر ضربةٍ على الرأس من شابٍّ غاضب.

كان واقفًا أمام محلٍّ لبيع الشاورما، وفجأةً، بلا أي عراكٍ أو جلبةٍ، وبصمت، في شارعٍ، في مساءٍ أخرس ولحظةٍ عمياء، بقي مضرّجًا بدمائه، سقط أرضًا مع الضربة الأولى، سوى أنّه نهضَ محدّقًا في عيني قاتله الفتيّ، أراد أن يقول له شيئًا ما، ودَّ لو أن ينهي عمله اليومي كبانٍ للجسور، وكان يُعرَفُ بعملِه ترجمانًا، وكما كان يبني جسورًا بين أبناء جلدته القادمين إلى ألمانيا وبين قاطنيها الأصليّين، ودَّ لو أنّه يستطيع بناء جسرٍ بينه وبين قاتله، فيما الردَّ أتى أسرع مِمَّا توقّعه، ضربةٌ أخرى وأخرى وتوقَّف عن الحركة، فتغيّرَ المشهدُ حينئذ بأكمله، لم يعد هناك نَفَسٌ أو روح. جسدُ رجلٍ ميِّت في الشارع البارد ذاك، مُحاصَر بأعين الناس، لتوصَدَ الأبواب بعدها أمام باقي المشاهد.

بعضُ الناس هناك توقّفت عن أكل الشاورما وشرب البيرة،

تركَت المياه التي بين أيديها، متسمِّرةً في أماكنها، البعض الآخر تفرَّجوا وكأنَّ الأمر مشهدٌ مجتزأٌ من فيلم رعب، ومن ثمَّ مضوا نحو أشغالهم، لم يبالِ البعض الآخر للضجيج، فيما ابتسم البعض وقالوا: «مرَّةً أخرى قتلوا بائع شاورما» مُكملينَ أحاديثهم، اتصل بعضهم بالشرطة، لكن لم يتمكن أحد من الحاضرين من اللحاق بالشاب الغاضب ومنعه من الركض وركوب التاكسي هاربًا مع القضيب المعدنيّ الحاد، ذلك الشابّ حوَّلَ لوهلَةٍ مئاتَ الأفكار، المشاعرَ المختلطة، المخططَّات والمشاريع، الأزهار التي من نار الحب، الأحلامَ والأمنيات التي كانت تجوب جهات العالَم الأربع، صراخَ وحسرات السنين، الفرحَ الدائم خلف الأبواب، الآلامَ والجراح المتقيِّحة، الآلافَ من الآمال والأمنيات الناقصة، حوّلها إلى جسدٍ واحد، أيضًا أخذ منه بعضًا من دمه وغادر، حوّل كل ذلك بضربةٍ واحدة إلى جثَّةِ رجلٍ غريبٍ قتيل لا يعرفه أحد.

قبل مجيء الشرطة، لم يجرؤ أحدٌ على الدنوّ من دمه الذي يسيلُ في الشارع، ولم يتعرّف أحدٌ إلى ملامح قاتله عدا سائق التاكسي الذي كان يستمع في تلك اللحظات عبر المذياع إلى تصريحات الشرطة بحثًا عن القاتل، فتوجَّه إلى الشرطة على الفور ليساعد في البحث عن القاتل معهم، محاولينَ اقتفاءَ أثره، لكن كل هذا الأمر باتَ متأخرًا بالنسبة إلى آزاد المترجم والقتيل. فالمريض الذي لا يتقن اللغة، والطبيب النفسي، استمرا في انتظاره لأجل الترجمةِ وكانا مندهشين لغيابه، فهذه هيَ المرَّة الأولى التي يصادف فيها الطبيب النفسي أن يتأخَّر الترجمان عن موعده أو

ألَّا يردّ على هاتفهِ النقّال، تأخَّر الوقتُ أيضًا على نار الحبّ، تلك التي استعرت في قلبه بعد سنوات العمل سويَّةً.

الشرطةُ التي قَدِمت إلى مكان الحادث انتبهت لكلّ شيء وعاينته، دوّنت ملاحظاتها وراقبت أوراق القتيل الثبوتيَّة، وبعد أن أنهت عملها، حملت جثَّته، مُزيلةً آثار الدماء من الشارع ثمَّ رحلت، لم تسترعِ الخرزاتُ المبعثرة من سبحته انتباه أحد، شرطيٌّ واحد فَطِنَ إلى الساعةِ التي في يده اليمنى على عكس الجميع، دون أن يدري أن السبب هو خيط سبحته الأسود الملفوفِ حول معصم يده اليسرى منذ سنوات، دونَ أن يعرف أيضًا أن حياتهُ كُلها حبيسةُ تلك الخرزات، كلُّ خرزةٍ بمفردها جزءٌ من حياته المتناثرة على إثر ضربة القاتل الغدَّار الهارب، تبعثرت الخرزاتُ كلها، ومَضت كل واحدةٍ منها في اتجّاه.

الخرزة 2: خرزةُ الترجمة

تعودُ علاقتي بالترجمة إلى الطفولة، أعتقد أنّني كنت في التاسعة حين ناداني أبي فخورًا، ثمَّة عربيٌّ في منزلنا قد أقبلَ طالبًا إيَّاهُ في أمرٍ ما، ولأنّ أبي لا يتقن غير الكرديَّةِ لغةً، كما أنَّ ضيفه الوافد لا يتقن لغةً سوى العربيَّة، أُجبِر على طلب العون من ابنه الملتحق بالمدرسة منذ أكثر من عامين، رغم أنّني لم أفهم لهجة البدويّ القادم مع عائلته من مكانٍ بعيدٍ حديثِ البنساء بجانب «**عامودا**[1]» بغرض السؤال عن أسعار بيع الماشية والألبان، سوى أنّني استطعت إيصال المعنى إلى ذهن أبي. بعد أن كبرت سأعرف أن الرجل البدويّ واحدٌ من بين آلاف العائلات العربيَّة التي خصَّصت لهم الدولة في المناطق الكرديَّة ما يربو فوق الثلاثين قرية واهبةً إيَّاهم الأراضي والأملاك، لا بل وحتَّى السلاح أيضًا، وسأعرف مؤخَّرًا أنّ غضب أبي من ذاك الرجل وأشباهه ما كانَ بسبب جهله اللغة العربيَّة، وإنّما لأمورٍ أخرى مختلفة.

لم تمضِ الترجمةُ الأولى في حياتي بسلام، ولا أعرف كيف وصل الحديثُ إلى صناعة الألبان واللبن الرائب، حاولتُ مرارًا أن أعرف المرادف العربي التام في الكرديَّة للبنِ الرائب، بيد أنّي فشلت لتبقى ترجمتي عالقةً بينَ أنيابِ تلك المفردة، غضبَ أبي

1- عامودا: من مدن محافظة الحسكة ومركز ناحية في أقصى شمال شرق سوريا على الحدود السورية-التركية قرب مدينة القامشلي. تبعد عن الحسكة مركز المحافظة 80 كم إلى الشمال. وهي مسقَط رأس المؤلِّف.

صارخًا في وجهي:

- ثلاث سنوات وابني الحمار هذا يذهب لتعلَّم اللغة العربيَّة، أليس هذا حظِّيَ السيئ يا إلهي؟ تفه على هذا القضيب الذي بَذَرَكَ.

لمَّا رأى الضيفُ أبي الغاضبَ تافلًا تحتَ سرّته، سارعَ مذعورًا إلى الهرب من المنزل، لم أره منذ ذلك الحين، وها عمري قد شارف على الخمسين ولم تبقَ شعرةٌ سوداءُ في رأسي.

منذَّ ذلك تعرّفتُ إلى وجهَي الترجمة، الوجه الجميل هو أنَّه كان بمقدوري أن أنقل الكلمات، الرؤى، الأفكارَ، وحتَّى أحلام أبي وأحوِّلها إلى كلماتٍ ذات أجنحةٍ تحلِّقُ أمام مرأى ضيفه، وأحوِّل كلمات ضيفه إلى ألعابٍ، أعشابٍ، وأجعلها مياهًا عذبَةً نقيَّة، بإمكانها أن تروي ظمأ كبده وعطش اللافهم بغبطةِ إرواءِ عطش طفلٍ. وأيضًا ذينَك الرجلان الغريبان بعضهما عن بعض كحجرين قبل مجيئي، باتا يتبادلان الضحكات، يدنوان من بعضيهما ليعرف الأوّل ما الذي يقوله الآخَر، ملكتُ القدرةَ -رغم عمري الصغير- أن أبني جسرًا متينًا بين الرجلين، فيما لاحَ لي الوجه الثاني حين سها عني مرادفُ اللبن الرّائب، انهدم ذلك التواصل، وعلى إثر غضب أبي الشديد خفَّت غبطتي العظيمة دون أن تصل إلى أوجها، سوى أنّ الفشل هذا ساقَني نحو امتحانٍ كبير، فعاهدتُ نفسي أن أغلق الباب في وجه هذا التعثُّر متقنًا اللغتين بشكلٍ أكبر في السنوات القادمة، ولأجل ذلك أيضًا نسي

والدي أمر تلعثمي السابق، وبعد زمنٍ قصير جعل مني مترجمه الشخصيّ للأخبار اليوميَّة التي كانت تذاع على محطّات الراديو تلك الأيَّام، لم أعرف آنذاك ما الذي يمنع أن تكون لغة والدي موجودةً في المدارس! لم يخطر في ذهني أن أسأله: لم لا نتعلَّم بلغتنا؟! لذا أستغربُ ألّا توجدَ أخبارٌ بلغة أبي، ليس ذلك وحسب، بل كنت أُسَرُّ لأجل ذلك. يجب أن أعترف أن بعض الأخبار كانت تحوي مفرداتٍ لا أُتقنُ ترجمتها، فيما أبي كان راضيًا أن أترجم وفقَ معرفتي وإدراكي، ربمّا يعود السبب إلى تيقّنه بأنّ المعرفة القليلة أحيانًا أفضل من اللامعرفةِ المُطلقة والجهل التامّ، تأثير ترجمتي على أبي كان قويًّا، ففي بعض الأحيان وحين توفُّرِ أخبارٍ جيّدة تتعلّق بالكرد، يقبّلني فَرَحًا، وأحيانًا أخرى يستبدُّ به حزنٌ عظيم وتغرورق عيناه بالدموع، يخفِضُ صوت الراديو، يغطّي رأسه بشماغه قائلًا لي:

- يكفي اليوم يا ولدي، أريدُ أن أنام...

أدعهُ وشأنَه، مدركًا أنّه لم يكن يغطّي رأسه بِنيَّةِ النومِ، إنَّما ليبكي دون أن أراه، كنتُ أتوسّل إلى الربِّ كلَّ مساء أن تكون هناك أخبارٌ جيَّدة في مذياعه لأجل أن يفرحَ ويقبِّلَني.

الخرزة 3: خرزةُ شمالِ العالم

لا أعرف لِمَ لَم تكن هناك سوى أخبار القتل والحرب تصدحُ من راديو أبي؟ ثمَّة مفردةٌ واحدة كانت على لسانه: «الشمال»، ينتظر أخبارَ ثورة الشمال، بعد حينٍ عرفتُ أن المقصود بــ الشمال، هو شمال العراق، حيث كان الكرد هناك ثائرين ويحاربون ضدَّ النظام العراقي، وفي اليوم الذي تنتصرُ فيه «**البيشمركة**[2]» كنتُ أقبِّل في البيت، فيما يعمّ الحزنُ بيتنا وشمال سوريا في اليوم الذي يُقتَلونَ فيه، فأبي قادمٌ من شمالٍ يسمّونه الناسُ في ما بينهم شمال كردستان ورسميًّا يُطلَق عليها اسمُ «تركيا»، لذا فإنَّ أبي من شمالٍ، وقلبهُ كانَ معلَّقًا بشمالٍ، فيما منزلهُ في شمالٍ آخَرَ، قالَ لي وكأنّني نزعتُ قشرًا عن جرحٍ:

- أنا أندمُ لأمرٍ واحد يا آزادو حين لم أسمِّك بَاكُرْ[3].

وحينَ تذكّر أنّ ريزو لديه قطٌّ اسمه باكُر سخرَ من نفسه ضاحكًا، متوقِّفًا عن الحديث عن أمر تغيير اسمي.

الكلابُ والقططُ طليقةٌ في «عامودا»، تسيرُ بحريَّة، كان جارنا ريزو البائع المتجوِّل يملك قطًّا مغرورًا ومتكبِّرًا ويفتخر بنفسه بين القطط، يخالُ نفسه ملكًا، بتكبّرٍ يرفع ذيله راكضًا خلف

2- هي قوات البشمركة الكردية التابعة لإقليم كردستان العراق.

3- "باكُر كردستان" (شمال كردستان) وهو القسم الكرديّ الذي ألحق بتركيا.

قططنا، وأغلب الأحيان يرافقُ صاحبه ويتجوَّلانِ في القرى والمدن البعيدة.

يومًا ما، تركَ القطُّ صاحبه راكضًا خلف قطَّةٍ منتظرةٍ على الطرف الآخر من الشارع، وحين أراد القطّ عبور الشارع ارتطمت به سيّارةٌ عابرة، تمكّن القط بصعوبةٍ من إنقاذ نفسه، تركَ القطَّة وعاد مكسور الرِجلِ وبتأنٍ نحو صاحبه، ومنذ ذلك اليوم ذاع صيتُ قط ريزو بين الناس، وباتت حادثةً معروفة، تمكَّن القطّ من أن يصل إلى صاحبه، فيما تأخَّر الوقت، حينَ ماتَ أبكاهُ ريزو أكثر من أمٍ مفجوعةٍ بولدها، أقامَ جنازةً كبيرةً له، كفّنه كما يكفَّنُ طفلٌ ودفنهُ في مقبرة الرجال، كانت الناس تقول: لو أنّ ابنًا من أبناء ريزو مات لم يكن ليحزن هكذا، وفي أكثر الأحيان كنتُ أقارنُ بين حالتي وحالة قط ريزو، ثمة أشياءٌ مشتركةٌ بيننا، لا سيّما أنّ قصتنا أقدمُ من حادثة جرحه. حين عرفت أنَّ اسم تلك السكاكين التي تقطّع كبدي لحظةً إثر أخرى هو الحبّ، انقلبت حياتي من اللحظة تلك رأسًا على عِقِب، السكاكينُ المسمَّاة مجازًا مشاعر، كانت قد وقعت بيد بيريفان ابنة ريزو، ومعها وقعت حياتي كلّها في قبضة بيريفان ذات العيون الخجولة، ذلك القط كان يعيشُ معها تحت سقفِ منزلٍ واحد، لذا حينَ كنت أراه، يبدأُ قلبي بالخفقان حاسدًا إيَّاه على نعمته، كان بمقدوره ليلًا أن يتسلّل سرًّا إلى غرفة بيريفان، أن يجلس على سريرها، أو أن يرمي بنفسه بين أحضانها، كنتُ أحبّ ذلك القطّ وأعتبره من أجمل القطط في العالم، وفي الوقت عينه أحسده، فبابُ غرفة بيريفان

ليس مفتوحًا لي مثله، ليس ممكنًا لي مثله أن أضع وجهي بين نهديها الصغيرين وأشبع منهما، أو أن أريحَ رأسي فوقهما ومن ثمّ لأمُت بعد ذلك، لا سيَّما أنّني حُرِمتُ من دفء الصدر، فحين أقبلتُ إلى هذا العالم وهبتني أمي روحها مغادرةً هذا العالم، أنا الطفلُ الذي بلا حظٍّ، حسب مزاعم الناس، الطفل الذي قتلَ أمّه، قلَّة الحظ لم تُبارحني، منذ خمسين سنةٍ أحاول أن أتذكَّر صورة أمي الحقيقيَّة وأن أتكلَّم معها، أن أشمَّ رائحتها ككلّ طفلٍ وأتكوّم في حضنها واضعًا رأسي على ركبتها، أن أنام بأمانٍ ولو لمرَّةٍ واحدة، كنت أودّ حين أبكي أن يكون لي أمّ أشتكي لها، وأن تهرع إلى نجدتي أوقات الضَّنك، حين يتحدَّث الأطفال أمامي عن أمَّهاتهم كنتُ أخبِّئ دموعي وأقمع ألمي في روحي وأمنعه جاهدًا من أن يرفع رأسه صارخًا، صامتًا وبحرقة قلبٍ أستمع إليهم، فيما داخلي يفوُر، أحيانًا حين كنت أبصر أمّهاتهم وهنّ يتوسّلن إلى الله أن يلعنهم، كنتُ أحسد أولئك الأطفال المحظوظين، متمنيًا أن يكون لي أمّ تغضبُ هكذا ومن ثم بعد لحظاتٍ تندمُ لتحتضنني وتقبِّلني. ذاك الغضب، الحقد، الألم الذي تكوّم فوق بعضٍ على مدار سنوات، انفجر فجأةً كلغمٍ أمام قدمي امرأةٍ أخرى، قدمي بيريفان، لكن من كان يبقى بين غبار ذلك الانفجار هو أنا وليست بيريفان.

بقي لدي من أمي صورةٌ وحيدة، سوى أنَّها ضاعت رغم محاولاتي في الحفاظ عليها، ضاعت الصورةُ مع كل الأشياء الأخرى ولم تصمد أمام رياح الغربةِ وطرق التهريب الممنوعة.

قبل أن أسلك الدَّربَ الصعب، كانت الأفعى الحديديَّة قد بدأت هجومها، أفعى خضراءُ مبقَّعة التهمت الأخضر واليابس، حتّى أرواحنا لم يكن بإمكانها الإفلاتَ منها.

الخرزة 4: خرزةُ أفعى الحقدِ الجائعة

كانت هجمة الأفاعي الجائعة التي شملت كلّ أنحاء البلاد قد بدأت قبل مولدي، وحين خُلِقتُ لحقتُ الأنقاض والأشجار المتهاوية التي تركتها الأفاعي خلفها، فيما تمركز أصحاب تلك الأشجار ومربّوها في طوابق عليا لا يمكن لأحدٍ أن يطالها، بل لا يجرؤ أحدٌ على الحديث عن سرقتهم لكلّ شيء، بهمسٍ وتحت ظلال خوفٍ كبير كانوا يتحدّثون عن تاريخ بلدٍ أتى إلى العالمِ مصادفةً، حفَظَ الجميعُ الحكايةَ عن ظهر قلب دون أن يتجرَّؤوا على سردِها بصوتٍ مرتفع.

حكايةُ بلدٍ بأكمله تحوّل إلى حكاية شخصٍ واحد، حكايةُ جنرال. المسألة كانت قد بدأت بانقلاب ذاك الجنرال، سيطر على كل شيء بالقوة العسكريَّة والدبابات، وخلال بضعة أشهر استقرّ في العاصمة، خلع الجنرال وحاشيته وجنوده الزيَّ العسكري واستبدلوه بلباسٍ مدنيّ، وباسم حزبهم باتوا رؤوساء وبرلمانييّن، مفتاح الجنَّةِ باتَ في يد الرئيس، بينما في يده الأخرى مفتاح جهنّمِ الأفعى الحديديَّة، البدايةُ كانت باسم القوميَّة، هاجمت الأفاعي الجائعة للقوميَّة، التي كانت أغلبها تملكُ أجنحةً، أرضَ وسماء البلاد، حوَّرت واستبدلت أسماء مدننا والقرى، أسماء الأشجار والتراب والدجاج والخِراف والأغنام، العصافير والأطفال، باتت لغتهم القوميَّة لغةَ المؤسسات الأساسيَّة، فيما محَوا كل

اللغات الأخرى، التهمت الأفاعي ألسنةَ الأطفال، بالقوَّةِ زرعوا لغتهم القوميَّة في أفواههم، القوميَّة الواحدة، اللغة الواحدة، الحزب الواحد، وقبل كل شيء الرئيس الأوحَد، فكل شخص من قوميَّة الدولة بإمكانه بكل سهولةٍ أن يعملَ وُفتَحت في وجهه أبواب الجنَّة، وحين علم الرئيس أن القوميَّة استقرّت إلى الأبد وأن الأفاعي الحديديَّة أغلقت الأبواب في وجه كل قوميَّةٍ أخرى، أتى دور الحزب، حيث ثبَّت في الدستور أنّ من يحقّ له قيادة البلد والمجتمع هم أعضاء الحزب الواحد وحسب، ومن يقف في وجه هذا الأمر سيكون متّهمًا بالعبث بأمن البلاد الداخليّ، تضاعف أعداد أعضاء الحزب إلى الملايين، إن كنت عضوًا فكل الطرق مفتوحة، وإن لم تصبح عضوًا فأنت إمَّا على صلةٍ بأعداء البلد أو أنت مواطنٌ بلا حيلة والطرق كلها مُرتَجَّةٌ في وجهك! الشخص غير العضو إن كان بمقدوره أن يكون معلَّمًا فسيكون تحت الشبهات وغيوم الشكّ، سوى أنَّه لن يستطيع أن يكون مديرًا لمدرسةٍ، هكذا كانت العضويَّة تفتحُ لصاحبها أبواب الجنَّة على مصراعيها، ورويدًا رويدًا لم تبقَ القوميَّة ولا الانضمام إلى الحزب، حيث بُنيت أفرع المخابرات في كلّ أنحاء البلاد: فرع الأمن الجويّ، فرع الأمن السياسي، فرع الأمن العسكريّ، فرع أمن الدولة، وهكذا، الهدف الأساسي لكل فرعٍ هو حماية القائد، ويترأس كل فرع شخصٌ إمَّا من عائلة القائد أو من محيطه وجميعهم كانوا على صلةٍ به، وعوضَ وجود سربٍ واحدٍ من الأفاعي، باتت بالعشرات، وفُتحت أبواب الجنَّة فقط لكل عضوٍ من أعضاء تلك الأفرع، وكان قدري ألّا أكون على علاقةٍ بقوميَّة القائد ولا بحزبه ولا بقواه التي تحميه

وتحمي قوميَّته، لأجل ذلك لم ترَ عيني يومًا أبوابَ جنَّة هذه البلاد.

في منزلنا وعلى الرغم من ابتعاد أبي عن السياسة، إلَّا أننا لم نستطع الإفلات من هجمات الأفاعي الجائعة التي سطت على منزلنا من كلِّ الاتجاهات، كانت الهجمات قد اشتدّت ووصل بي الحدّ إلى درجة أنّني فقدت القدرة على التمييز ما بين الخيال والحقيقة، كان المرء يغدو لوهلةٍ أمام عينيّ أفعى تُهاجم الناس، الأفعى كانت في بعض الأحيان تتحوَّل إلى إنسانٍ يبكي كمن يشكو حالته، وفي بعض الأحيان تبتسمُ لمن حولها، وأحيانًا كانت تملك أكثر من قَدَمٍ وعدَّة أجنحة، يومًا ما علقت أفعى في نافذة غرفةٍ بمنزلنا، وصلت بصعوبةٍ إلى سطح منزلنا واستقرَّت في زاوية، كان يبدو أنَّها أفعى كهلة ومسكينة، وكانت قد تعبت من الخروج مع مجموعة الأفاعي لأجل النهب، قرّرتُ مساعدتها وأن أمدَّها يوميًّا بالماء والخبز، لكنّها صدّتني عن فعل الخير، في صباح اليوم التالي سقط جسدها أمام قدمي، خفت منها وفي الآن نفسه رقَّ قلبي لكهولتها ووِحدتِها، ليلًا ونهارًا كنت أفكّر بهؤلاء الأشخاص الذين أقبلوا إلينا وسيطروا على أرضنا وفرضوا أن يكون كل شيء كما يريدون هم، كنت أتساءل على الدوام:

- لِمَ يكره هؤلاء الاختلاف؟
- لِم يصرّون على أن يكون جميع الناس مثلهم؟

بحثت عن سر هذا المطلب الغريب لدى الإنسان، لِمَ لا يحبُّون الأعراق والألوان واللغات الأخرى، والناس الآخرين؟ هذا الخيال

الذي يقتلع كل الألوان المختلفة ويجعل من العالم ذا لونٍ وحيد، أو أن يتشابه كل الناس في كل شيء وألَّا يختلفوا، كان الأمر يخيفني. أبصرتُ نفسي منذ ذلك الوقت وأنا في مواجهتهم، هؤلاء الذين يريدون إخراجي من جلدي وجعلي مثلهم، ولا أعلم إلى أي درجة يعتبر هذا الأمرُ سياسةً، ما أعرفهُ أنني غرقتُ حتى عنقي في جمال كره أفاعي القائد الخالد الجائعة، القائد الذي كانت صوره تُرى في كل الشوارع، تلك الصور الموَّحدة حيث على كل كتفٍ من كتفيه رسمُ أفعى صنعَ على شكل جناح، ألسنة الأفاعي تبانُ وهي تتحرَّك نحو الخارج، الجزء الأعظم من ناس ذلك الوطن كانوا يخافون من اللدغات إن آتوا بأيِّ حركة، فيما الجزءُ الآخر ابتلعَ الصمتُ ألسنتهم وأخافتهم الأفاعي، أما أنا فتارةً كنتُ مجبرًا على أن أكون ضعيفًا وحزينًا، وتارةً أخرى ومع وجود منبعين للقوَّة، كنت أشعر بقوَّتي، إحداهما مزج الألوان والوقوف أمام القماش الناصع للوحة، والثاني روح أمي.

الخرزة 5: خرزةُ روح أمّي

روح أمي وحسب كان بمقدورها أن ترافقني إلى كل مكان وكل الحدود التي عبرتها، لأنها تملكُ أجنحةً، في أكثر المرات تُقبِلُ كطائرٍ أسود، تأتي إليَّ بعد أن تجتاز المسافات الطويلة وتعبر الحدود، تخفي جناحيها وتغدو امرأةً شابَّة برداءٍ أسود، أفشلُ دائمًا في تحديد ملامحها، وجهٌ نوراني مُضاء، وبصوتٍ عذبٍ تأنس له أذنيّ تفتحُ لي قلبها وتُريحهُ، ثم تتحوَّل إلى طائرٍ مرَّةً أخرى وترحل.

العجائزُ في طفولتي كانوا يتحدَّثونَ دائمًا عن طائر الجنَّة، فأقولُ لنفسي: لا بدّ أن هذا الطائر هو من طيور الجنَّة التي يتحدَّثون عنها، لكن لا أحد رآه، كنت أعشق روح أمي، فباستطاعتها أن تتحوَّل متى شاءت، وبإمكانها الذهاب إلى أي مكانٍ تريده، والشيء الأفضل من كل هذا ألَّا أحد سواي يستطيع رؤيتها، أحيانًا حين كانت تتحدَّث إليّ ويأتي أحدهم أطلب منها أن تختبئ، تبتسم لي وتختفي عن بصري، مؤخَّرًا حين عرفت ألَّا أحد يراها سواي، اطمأن قلبي ولم أعد أخشى مجيئها. إن لم تكن روح أمي، فهي ظلالُ روحها بالتأكيد، أو جزءٌ منها، أو لعلّها هي بالذات، كنت أقول لنفسي ربمّا هذا محضُ خيال، أو ربما لا يوجد شيءٌ من هذا القبيل بتاتًا، لكن كل صباحٍ وآنَ أستيقظُ على رفرفة جناح الطائر الأسود يتحوَّلُ الشكُّ إلى حقيقة، سوى أنَّ السؤال

المُلحّ في رأسي دائمًا دون أن أعثر على جوابٍ له هو: لماذا لا يمكن لأحدٍ سواي أن يرى هذا الطائر، ولِم لا يمكن لأحدٍ سواي أن يسمع هذا الصوت العذب لتلك المرأة صاحبة الوجه النورانيّ؟ أنا وذلك الصوت بتنا جسدين في روحٍ واحدة.

عوض الخوف من قدوم تلك المرأة، نَبَتَ في داخلي خوف أن أفقدَها يومًا ما وتختفي إلى الأبد، لقد جسَّدت الجانبَ العميق من رقَّة روحي. صوتها هو الجانب الخفيّ من أعماقي، رائحتها رائحة أمي، كانت جزئيَ الآخر التائه، مع مجيئها يتقلَّصُ خوفي ويتضاءَلُ حزني، ومع رحيلها يجهشُ قلبي في البكاء، لا بدَّ أن أعترف: في بعض الأحيان كنت أفكِّر في حالي وما آلت إليه أوضاعي، لقد فقدتُ القدرة على التمييز.

مع انتباهي للعلاقة بين والدي وزوجته الجديدة، بدا بإمكاني أن أخمِّن كم أخذت منه، أبي الذي كان البيت كلَّه يطيعهُ ويهابه، فعنده الرجلُ رجل والمرأةُ امرأة، الرجل هو من يعمل في الخارج ولا يدع أولاده في حاجةٍ إلى أي شيء، والمرأةُ هي مَن تهتمّ ببيتها وأطفالها، تعدّ الطعام الجيِّد وتُرضي زوجها ولا تخرج عن طَوعه، وحين وجود الضيوف، لا بدّ لها فقط أن تعدّ الطعامَ ومن ثم ينقله الأطفالُ بالطناجر إلى غرفة الرجال، وبعد أن يشبعوا، تتقاسمُ المتبّقي بينها وبين الأطفال، في بعض الأحيان وبغتةً يرتفعُ عدد الضيوف إلى خمسة أو سبعة رجال ويحدث أن لا يتبقَّى أي طعام، فنظلُّ بلا أكل، تهرع زوجةُ أبي إلى إعداد أي شيءٍ موجودٍ في المطبخ وسط بكائنا، وممنوعٌ أن يسمعنا الوالدُ، لئلّا تقوم

قيامة المنزل بعد مغادرة الضيوف. ما لا يمكن أن أنساه هو حين كان يأتي الأكل القليل المتبقّي فتنادي زوجةُ أبي ابنها وابنتها:

- حميد ... جانِي، تعالا كُلا...

إن تصادفَ وكانت ذات مزاجٍ حَسَنٍ، تلتفتُ إليّ:

- آزادو... هل ستأكلُ أنتَ أيضًا؟!

تملأ صحون طفليها، فيما تضعُ لي حصَّةً لا تكفي إطعام عصفور. في تلك الليالي كانَ النوم يتوه عن عينيّ، ليس على إثر بطني الفارغ، إنَّما جوعُ روحي لحبّ والدتي.

والدةُ شقيقي وشقيقتي كانت تهتمّ بطفليها ولا تدعُ بأي شكلٍ من الأشكال أن يمضيا جائعَين نحوَ النوم، هكذا، في كل مرَّةٍ كانت تعطيهما ما خبَّأته من برتقالٍ أو تفاح ليأكلا ومن ثمّ بفرحٍ يخلدانِ إلى النوم. أمَّا أنا يتيم الله، اليتيمُ الذي بلا حظّ، اليتيمُ النحس، أدسُّ رأسي تحت اللحاف باكيًا قهري وانعدام حظّي وقتلي لأمّي التي لم تفرح بي.

أسلوبُ تعامل والدي مع زوجته جعلها في حَيرةٍ من أمري، كانت تخاف منه، فمن جهةٍ إن أهملتني كليًّا ستصطدمُ بغضبه، ومن جهةٍ أخرى تنتقم من أبي الذي منعها عن رؤية أهلها وحوّل البيت إلى سجنٍ ضيِّق لها، شعرتُ أنّها لولا خوفها من غضب أبي لمنعت عني الخبز والماء وطردتني من البيت لتتقاسم أملاكه مع أطفالها، اعتبرتني شخصًا زائدًا يجب ألّا يكون موجودًا، لكن

ولأنّها مجبرةٌ على تركي في البيت، فلا بدّ أن تنتقم لضعفها أمام أبي ذي القلب الحجريّ على حدّ زعمها، بأن تمنعني عن كل شيء، لكن بعيدًا عن أنظاره. لم أجد حلًّا أمامي سوى ابتلاعِ الألم، لأنني لم أعتد الشكاية، وهي لم تكن تخاف مني، كنت أعرف إن حصل وأخبرت أبي بما يجري فسيقلب البيت رأسًا على عقِب جاعلًا منهُ مكانًا مضطربًا مليئًا بالضجيج والمشاجرات اليوميَّة، ذكّرها أكثر من مرَّة بوعدها وبالشرط الأساسي في زواجهما وهو أن تعتبرني ابنها، وفي ما يبدو أنَّها قد ندمت على عهدها، لكن الوقت تأخر ولن يفيدها الرجوع عن العهد، إلى أن أطلَّ علينا شتاءٌ باردٌ من شتاءات «عامودا»، أقبل معه الثلج ورفّ الطيور السوداء التي كنَّا نسمّيها بـ (الزرازير). رفّ الزرازير السوداء منحت وسامةً للثلج الذي ألبس فستانًا ناصعًا لكلّ الأنحاء، ومع اشتداد البرد يتسلَّلُ عشق الدفء إلى قلب الجميع، والأمُّ في هذهِ الحالِ هي الوحيدة التي باستطاعتها أن تُدفئ قلب الطفل في هذا العالم، كان شتاءً اشتقت فيه إلى أمي أكثر من الشتاء الذي مضى، منتظرًا مجيئها أقول: سوف تأتي ذات مرة مع الثلج، لم تأتِ، لكن روحها تقمّصت شكل طائر الزرزور وأتت، لن أنسى ذاك اليوم، كان ثمَّة الكثير من الناس، سوى أنَّهم لم يكونوا في انتظار أمّهاتهم، بل كانوا خارجين في انتظار رفّ الزرازير لغاية الصيد، وحين ترتفعُ المئاتُ منها في السماء يجهِّزُ الصيَّادون بنادقهم المعروفة بالـ «اثنتا عشرة طلقة»، وبضربةٍ واحدة تتهاوى المئات من الزرازير متخبّطةً بجراحها بين الثلج، البعض منها يبتعد ليموت بعدها، فيما البعض الآخر يقع في قبضة الأطفال،

كانت الرصاصة التي تحوي آلافَ الحبيبات المعدنية الصغيرة في أحشائها تُسقط المئات من الزرازير على الأرض، في ذلك اليوم الذي لا يمكنني نسيانه ثمة رصاصاتٌ كثيرة أطلقت على رف الزرازير، تمكّن زرزورٌ من أن يصل إليَّ، زرزورٌ متعبٌ، جريحٌ وخائف، حين وصل إليّ وأفردَ جناحيه اعتقدتُ أن الطلقة أصابت جناحه وأنّه يحتاج إلى العون، لكن لم يكن الأمر كذلك، ما من آثار دماءٍ على الجناح، عيناه كانتا تلمعان كعيني امرأةٍ جميلة، اعتقدتُ أنها امرأة فعلًا، كدتُ أحدِّثها، فما رأيتُ إلّا وهي تتحوَّلُ إلى امرأةٍ ذات وجهٍ نورانيّ ووقفت أمامي بردائها الأسود، بحثت عن عينيها فلم أجدهما، وحين تناهى إلى مَسمعي صوتها، ذبت كثلجٍ ينسابُ فوقه دمٌ يغلي، امتلأت عيناي، لم تدع دمعي يتساقط، قلت لها: أنتِ أمي؟ أنتِ على قيد الحياة؟ حين أزور قبركِ ينتابني هذا الإحساس، ففي كل مرَّةٍ حين أزور قبرها أتحدَّثُ إليها، لكنّها المرَّةُ الأولى التي أسمع فيها صوتها بهذه العذوبة، وعدتني أنّها لن تتركني بمفردي وستأتي كلَّما رغبتُ بذلك، في تلك اللحظة آمنتُ بمزاعم الناس وأقوال أبي:

- في كل خميسٍ لا بدّ أن تُخرجوا عشاء الميت وتمنحوه إلى فقيرٍ أو إلى الجيران وإلّا غضبوا منكم...

إذًا فالأموات أيضًا يفرحونَ ويغضبون، يحزنون، وربمّا يعلمون بكل ما يجري حولهم، ومع هذه الأفكار يفرح قلبي بزياراتي

المتكررة إلى مقبرة «شرمولا[4]».

إلى الآن لا أعرف لِمَ يحبُّ المرءُ الموتى؟! إن تحدثت عن نفسي فسأقولُ فقط لأن أمي واحدةٌ منهم، كان قلبي عندهم وكنتُ أنتظرها على الدوام، كلّما مات أحدهم لحقتُ الجنازة حتَّى وصولها إلى المقبرة، معتقدًا أنّ أمي ستسأل عنّي، لذا كنتُ أتقرَّبُ إلى الميت أو الميتة كي لا أتركهما بلا جوابٍ لسؤالِ أمّي.

بالنسبة لآخرين فموتُ أحدهم انتهاءٌ لضَرَر ذلك الشخص ونهاية الخوف منه والانتهاء منه كعقبةٍ أمام النجاح، لذا كنت أحبُّ الموت ولا سيَّما حين يجلبُ معه فجأةً الحبّ والمديح للميِّت. كنت أتساءل: إن كانت أمي على قيد الحياة، يا ترى هل كنت سأستطيع أن أحبَّها بالشدّة ذاتها؟

4- تل شرمولا: تل أثري في مدينة عامودا، شمال شرق سوريا، تطلّ على المقبرة الأساسيَّة في المدينة، وتعتبر رمزًا في الثقافة الشعبيَّة هناك.

الخرزة 6: خرزةُ برعمِ الموت

أكثر من كل شيء، كان الموت وحده يجعل رأسي يرتطم بجدران الأسئلة اللامنتهية، بدءًا من سؤال وجوده وحتَّى معناه، والأشياء التي تأتي في ما بعد، ذلك الجسد العاري، بطريقةٍ لا تسترعي انتباه أحد، يمنحونه لترابٍ بارد مليءٍ بالعقارب، الفئران، الدود والأفاعي والحشرات المختلفة، إذًا في يوم ولادتي فعلوا هذا بجسد أمّي الرقيق أيضًا، وهبوه لقساوة حفرةٍ مربَّعةٍ، وانهالوا بالتراب البارد الذي يخنق الوجه النورانيّ، كيف تجرأ ذلك الشخص على أن يدعَ أمي تحت التراب؟ وددتُ لو أن أتعرّف إلى الرجل الذي أهالَ كومة التراب الأخيرة على وجهها، أن أحفر له حفرةً أوسع من تلك التي حفرها وأن أهيل التراب على وجهه بكلتا يدي، فعلتُ ذلك في الحلم دون التمكُّن من تذكّر ملامح ذاك الرجل كما هي الحال مع وجه أمي، وفي أحيانٍ أخرى كنت أتخيَّل الرجل أبي فأبقى بلا أبٍ أيضًا، الأب الذي كان يمسك بيدي ويأخذني ليبتاعَ لي الملابس، وعوضَ أن يُفرحَني بالملابس الجديدة، يُفسد عليّ الفرحة وينعتني أمام الباعةِ باليتيم، يكسرُ قلبي ويدعني مختنقًا مع دموعي المخبَّأة، يقول للباعة:

- أعطني ثوبًا لهذا اليتيم الذي برفقتي.

- فليحمه الربّ، أليس هذا ابنك يا رحمانو؟

أبي كان يردّ دون أن ينتبه إلى الجبال التي تتهاوى داخل روحي:

- بلى والله، إنه يتيمي، أبعَدَ الله كلّ مكروهٍ عن أطفالك...

لم يعلَم أبي إدراكيَ الحقّ أنّه يتحدَّث عن مجيئي إلى هذا العالم كسببٍ لموت أمي، حينها كانت تتولّد لدي رغبةٌ مفادها أنني بعدَ موتي وفي العالم الآخر، إن يحتاج إليّ في الترجمة فأُسهب له الألم الذي سبّبهُ لي، وبعد عذابٍ عظيم، أترجم له، أحيانًا كنتُ مؤمنًا بالأمر، فالقرآن الذي آمَن به أبي ذكر الحساب ويومه، إنَّما بلغةٍ لا يعرفها وكنتُ أترجم له عن تلك اللغة، كنتُ أهدّده في قلبي، لكن كان واضحًا أن يوم الحسابِ بعيدٌ جدًّا.

خيالُ أن أترجم للموتى، حتَّى وإن كان خيالًا، سوى أنَّه لم يدعني وشأني، ففي مرَّاتٍ كثيرة حين أكون مترجمًا وسيطًا بين اثنين لا يفهمانِ بعضهما بعضًا، يغدو الاثنان جسدين بإمكانهما الحديث، يغدوان ميّتين، وأغدو أنا بينهما خيالًا مكسورًا، لأنّ الترجمةَ في حدِّ ذاتها محاولةٌ فاشلة لإحياء علاقةٍ بين شخصين من لغتين مختلفتين، ففي الحديثِ، اللغاتُ قشورٌ فيما المحتوى هو الروح والإحساس.

الترجمةُ بوسعها أن تغيّر القشور، لكنّها تفشلُ في النزولِ إلى حيث مستقرّ الروح والإحساس، ومقولة إنّ الترجمة خيانة لم تأتِ سهوًا أو من فراغ، الترجمةُ خيانةٌ من اتجاهاتٍ عدّة، فالمترجمُ دُفعةً واحدة يخون ثلاثَ جهاتٍ، مرَّةً مع صاحب الكلام حين يودُّ

المترجم أن يلتقط أحاسيسه معتقدًا أنّه قد التقط الشعور بذاته ومن ثمّ يرسلها إلى الطرف الآخر، ومرَّةً أخرى مع المصغي، أمَّا المرَّة الثالثة فهي مع نفسه، يحاول ألَّا يكون شريك الفوضى مع الطَرفين، سوى أنَّهُ يفشل في الأمر، لا يستطيع منع نفسه عن ممارسة الخيانة التي في داخله وألَّا يغدو جزءًا من الأسباب في مشكلة الطرفين اللذين يستندان إلى خيانته الجليَّة.

المترجم، ولا سيّما من هوَ مثلي أمضى سنواتٍ في هذا العمل، مهندسٌ في إخفاءِ الألم، فهو يترجمُ إلى لغةٍ أخرى آلام كل شخص، رؤاه، أفكاره وكلامه ومفرداته كلّها، يحاولُ أن يوافق بينها، يضفي عليها مسحَةً آدميَّة، يحاولُ أن يلبسها أجمل الثياب ومن ثم يرسلها إلى الطرف الآخر. ولكن تتبقَّى له أحزانه وآلامه ورؤاه وأفكاره وكلماته، تجتمع كلّها فوق بعضها وتعلو وتغلي ومن ثم تنفجر دون أن ينتبه أحدٌ إلى الأمر، إلى الآن كنتُ السبيلَ إلى أن يفهم الآلافُ بعضهم الآخر، لكنّني وحتّى الآن لم أتمكَّن من فهم الغريب الذي بداخلي، لا أعرف ما اللغة التي يتقنها، ربمّا كنتُ سأبحثُ عن مترجمٍ شخصيٍّ لي، لا أفهم لماذا ولدتُ وماتت أمي؟ أو بعبارةٍ أخرى، منذ خمسين سنة وأنا على سطح هذه الكرة الأرضية ولم أعرف لِمَ يأتي المرءُ إلى هذا العالم، كذلك لم أعرف سرّ ذلك النسيم الذي كان ينهالُ عليّ حين كنتُ أرى بيريفان، ما هذا الطوفان الذي ضرب حياتي حين عرفتها؟ لم أفهم لغة نظرات عينيها الصَّافية اللتين تتحدّثان إليَّ، اللغة التي لا اسم لها والتي لم أعثر على اسمٍ لها بين كل لغات العالم، من هوَ المترجم القدير

الذي بإمكانه أن يترجم اللغة الناريَّة تلك دون أن يحترق، بعد الاحتراقِ أدركتُ أن لغةَ الحبِّ لغةٌ لا بدّ أن يتحضَّر للاحتراق كُلّ مَن أراد إتقانها، لذا شمّرتُ عن ساعديّ ورميتُ نفسي مثل أعمى بين نيران حبِّ بيريفان، بدأ حبّي بالمرض، احترق بدني بالنيران التي بداخلي، وقبل الأطبَّاء، هرع إلى نجدتي الطائرُ الأسود، أتت أمي، ففي كل مكانٍ كانت تحب الجلوس فيه كان الطائرُ الأسود الذي اتّخذ شكل امرأةٍ يجلس أيضًا، كنتُ أسترقُ السمعَ إلى إيقاعِ صوتها الصَّافي:

- أمَّاه، أنا أحبَّكِ، هل تعرفين كم تشبهكِ بيريفان؟

- داؤكَ لا دواءَ له يا بُنيّ، انتبه لنفسك، صعبٌ جدًّا أن تستردَّ عافيتك من هذا المرض بشكلٍ تامّ، لا بدّ أن تفسح المجال لنفسك كي يذهب عنك هذا المرض.

عادت المرأةُ ذات الوجهِ النورانيّ التي أحسبها أمًّا لي إلى حالتها السابقة، تحوّلَ رداؤها الأسود إلى جناحين سوداوين صامتين، طارت نحو السماء، وصلت رسالتها، سوى أنّها جعلت رأسي نبعًا من أسئلةٍ متراكمة بلا أجوبة وانفجر في داخلي، إن كان الأمرُ داءً فدوائي واضحٌ وجليّ والعنوانُ أوضح، إن كان هذا الطائرُ روحَ أمي فلِمَ لم يهتمّ بأمر حبّي؟ والسؤالّ الذي ثَبُت في ذهني:

- لِمَ هذا الطائرُ أسود وليس أبيض؟

شعرتُ أن أحاسيسَ الحبِّ أيضًا سوداء، أحاسيس ملأى بالحزنِ

والجمال والاحتراق والعبوديَّةِ والقوَّة، أفشلُ كلّما حاولتُ أن أترجمَ هذه المشاعر لــ بيريفان، كان ثمّة شيءٌ يربط جذر لساني، وكلّ شيءٍ يجعل مياهَ الجهل تتدفَّقُ إلى كأس دماغي، وتجعلني محتارًا وعاريًا، أنا الذي ترجم لكلِّ الناس، أفشلُ أن أقوم بهذه المهمَّة لنفسي، فوضى لا يمكن معها لمترجمي العالم كلِّهم أن ينجحوا في إفهامي تلك المشاعر، عدا صديق طفولتي ولاعب كرة القدم: ياسينو الذي لم أكن أملك غيره لأسرد آلامي، حينَ كان يراني في هذه المعضلة لم يكن يصدِّق عينيه:

- مَن ينظر إليك، لن يصدِّق أن فتاةً قد جعلتك في هكذا حال...

إضافةً إلى دهشة ياسينو من حالتي فإنه في الوقت نفسه كان يسألني بلوعةٍ غير مفهومةٍ عن النيرانِ التي تأكلني وعن علاقتي ببيريفان، هذا الأمر فتح أبوابًا جهنميَّة في وجه صداقتنا.

الخرزة 7: صداقةُ الثلج

كنَّا على النقيض تمامًا في كلِّ شيء، لم تتمكّن سنوات دراستنا في المرحلة الابتدائية من جعلنا صَديقَين، لكن فقط اللعب بكرة القدم ضمن فريقه لبضعة أشهر جعل الأمر يتحقّق وبتنا صديقين، سوى أنّني تركتُ لعب كرة القدم متوجهًا إلى عالم قراءة الكتب والغوص في بحر الألوان حيثُ كنت قد بدأتُ الرسم، وهو كان قد غادر المدرسة مبكّرًا ليبدأ بالعمل في الدكاكين، نافرًا من قراءة الكتب، كلَّما رآني حاملًا كتابًا استغرقَ في الضحك:

- آهٍ يا آزادو، لم نصدِّق متى تخلّصنا من قراءة الكتب الإجبارية للمدرسة، وها أنت الآن غارقٌ في قراءة الكتب، لعمري هذا ابتلاءٌ حقيقيٌّ من الربّ!

أو حين يأتي ويشتمّ روائحَ الألوان فلا أستطيع مصافحته، يهزُّ برأسه:

- أليس هذا صنيعَ مجانين وحقّ الربّ؟!

وحينَ يهدأ قليلًا، يقول:

- ارسم صورتي ذات مرَّة...

وأحيانًا يسخر من ألواني الممزوجةِ على القماشةِ المعلَّقة:

- ما هذه الألوان المُعتِمة التي تجعل الحياةَ قاتمةً في الأعين، عوضًا عن رسمكِ لهذه اللوحات التي تشبه آثار أقدامِ دجاجاتٍ خائفة من كلبٍ يطاردها، تستطيعُ أن ترسم صورًا لنساءٍ عاريات وأنا أتكفّل لك ببيعها.

ودّ أن يجرّني بين المزاح والجَدّ إلى عالم البيعِ والشراء:

- إن لم تستطع بيعها أنت، فسوف آخذها إلى دكّاني وأتولّى مهمَّة بيعها.

في بعض الأوقات يكون اختلافُ شخصين سببًا إضافيًّا لمتانة علاقتهما. من جهةٍ كنت أرتعدُ من هؤلاء الناس الذين لا يقرؤون، ومن جهةٍ أخرى كان نفور ياسينو من قراءة الكتب وارتباطه بحياةٍ يوميَّة جافَّةٍ وبوجهٍ واحد يشدُّ انتباهي، كان لا بدّ لأي شيءٍ يفعله أن يكون في خدمته، هكذا كنت في بعض الأحيان أحسدهُ في سريرتي، وهو أيضًا كان ينظر إليّ كشخصٍ يزيدُ صعوبة الحياة، وكان يحمي نظرته بالتحليل:

- المسألة تكمن في أنّنا أنا وأنت نرى كتابًا في اللحظة ذاتها، أنت تفكر على الفور في قراءته ومعرفة المحتوى وما إلى هنالك، أمَّا أنا فكل الكتب تثيرُ لديَّ سؤالًا واحدًا: بكم أستطيع شراء هذا الكتاب وبكم سأبيعه، لك أن ترى أنّني أشتري ملابسَ وأبيعها وليس كتبًا.

على النقيض منّي، أمّه كانت قد ربّته، وعلى قَدر ما كنت أتمنَّى

أن أرى أمي، هو كان يتمنّى أن يبتعد عن أمّه سوى أنّه لا يستطيع، «لطيفة المعلّمة» كانت معروفةً في الأنحاءِ قاطبةً، وجاء لقبها من تمكّنها في الخياطة، بيتها، كان في الوقت نفسه منزلًا ودكّانًا للخياطة، لا يوجد بيتٌ في عامودا لم تخيّط لهم لطيفة، كان والد ياسينو الزوج الثالث الذي دفنته لطيفة بيديها، وحينَ كان يدور الحديثُ عنها لم يكن يتجرأ رجلٌ على التفكير بالزواج منها لأنّها كانت بمثابة شؤمٍ للأزواج.

امرأةٌ ضخمة ومهيوبة وقويَّة، أمّنت لأولادها التسعة من أزواجها الثلاثة بيوتًا وما زالت وفقًا لما قاله ياسينو تبحثُ عن زوجٍ آخر، نسيَ النَّاسُ أسماء أزواجها الثلاثة، فيما كان أولادها يُعرفونَ بها، لذا كان اسم ياسينو قد بقي: «الابن الصغير للطيفة المعلمة»، عرفتُ من ياسينو ألَّا أحد من أولادها نجا من ضرباتها، ومع أنّ ياسينو كان شابًّا إلّا أنّه كان يحتارُ خوفًا كيف ينجو من قبضة والدته، في بعض الأحيان وحين هروبه من سطوةِ والدته، كان يشتهي حالتي:

- أنت وحدكَ السعيد، ما أسعدك، ليت لطيفة ذات الفَرج الحديديّ ماتت مثل والدتك حينَ خرجتُ من بين قدميها!

والدته التي لم تكن تموت، كانت قد أصبحت بلاءً له، وهكذا أمي الميتة كانت بلائي. كلّما صادفنا فتاةً كانت بالنسبة إليّ موضوع عشقٍ وحب وبالنسبة إليه موضوع قنصٍ جديد للسرير، مؤخَّرًا ذاع صيته في أمرٍ آخر، حين كان قد بدأ بتشكيل فريق

كرة القدم للصغار، بدأ الجميع بالهمسِ حول علاقاته الجنسيَّة مع الأطفال، وباتَ الأمر سببًا رئيسًا لمشاجراته العديدة مع أهالي الأطفال، الأمر الذي دفع بالأهالي إلى منع إرسال أطفالهم إلى أي فريقٍ يقوم ياسينو بتشكيله، في البداية لم أصدّق أذنيّ، ولكن مع اعتقال ابن جيراننا عرفتُ أن الأمر صحيح، فحين اشتكى الأخ الأصغر للأكبر بأنّ ياسينو قبّله ووعده أن يصطحبه معه، خاف الصغير وهرعَ إلى الأخ الأكبر مشتكيًا، فقامَ الأخير بضرب ياسينو بعنف، وحين رآه لا يتحرّك اعتقدَ أنّه قد مات على إثر الضرب ففرَّ هاربًا.

رمت خيوطُ شمس هذه الأحداث حرارتها على ثلج صداقتنا البارد، فقد مضى وقت طويل دون أن أراه، لقد عرف أنّ أمر علاقاته مع الأطفال مقرفٌ بالنسبة إليّ، ومع عودته إليّ مرَّةً أخرى، كان في كل يومٍ يحاول أن يقنعني بأنّه قد تخلّى عن تلك العلاقات، ولكي أصدِّقه أخبرني بأنه سوف يتزوَّج خلال فترةٍ قريبة.

ياسينو كان ملاكًا حين يهدأ، ولكن حين يجنّ جنونه كان بمقدوره أن يفعل أسوأ الأشياء بسهولة لا تخطر على بال البشر، يعيش بداخله شخصان متناقضان، أحدهما مسترخٍ وهادئ لدرجةٍ غير معقولة، فيما الآخر سيئ ويجلب الضرر بشدَّة، وكلّما مرَّت السنون تشتدُّ حدَّة العراك بين الشخصين دون أن يهزم أحدهما الآخرَ. مثلهُ كان بداخلي شخصان في عراكٍ مستمرّ، بيد أنَّ العراكَ كان قليلًا ودون أن يشتدّ، في تلك الأثناء تسلَّلت

بيريفان إلى حياتي لتجعل من الشخصين اللذين في داخلي مشغولَين بعينيها، لا مجيءُ الطائر الأسود كان يطفئُ النيران التي في قلبي، ولا هربي نحوَ بحر النسيانِ الكبيرِ الخائِن.

الخرزة 8: خرزةُ القلب الواحد والرجال الثلاثة

سمعتُ أنّ الحبّ هكذا: كلّما انتشرَ ازداد أعداؤه، لذا كنت أقول لنفسي: إن كانت هذه الحالة الصعبة التي تعتريني كلَّما أبصرتُ بيريفان حبًّا، فلن أخبر أحدًا، إلى أن جاءت تلك اللحظة التي لن أنساها طالما حَييت، وألفيتُ فيها نفسي متَّهمًا.

كان الشارعُ فارغًا، أو لعلّه خيِّل إليّ ذلك، حتَّى إنني اعتقدتُ ألَّا أحد على سطح الأرض سواها، كنتُ في طرف الشارع وهي على الطرف الآخر، لم يكن قد حصل أمر، فقط نظرت نحوي وابتسمت، حاولتُ مرارًا أن أستعجلَ وأمضي نحوها كي أحيّيها لكنني فشلتُ، ليس ذلك فقط، بل شعرتُ أنّ قدميّ التصقتا بالأرضِ دونما حراك، حاولتُ تخليص قدميَّ من الأرض فلم أفلح، جلتُ بنظري باحثًا عن نظرات الناس الخاطئة، لم يكن الشارعُ خاليًا، الناس كانت تذهب وتجيء بسرعةٍ، لم ينتبه أحدٌ إلى قدمي الملتصقتين بالأرض ونظراتي، لم أعد أعرف إن كان عليَّ أن أفرحَ لأنّ أحدًا لم يكترث بالبلاء الذي حلَّ بي أو أحزنَ لوِحدَتي وفقري، حين رأيت الحال هكذا ادّعيتُ أنّني واقفٌ في الشارع بانتظار شيءٍ ما، حاول البعضُ أن ينظر إليّ محاولين الفهم لم جَمِدتُ هكذا في مكاني؟ وحينَ رأوني مرتبكًا مضوا في سبيلهم، في ذلك الوقت كنت أبحث عمَّن يأتي لنجدتي وإنقاذ قدميّ من تلك الحالة، وفي الوقت عَينه لم أشأ أن يعرف أحدٌ بحالتي أو أن

يعرف بخطيئتي، أكثر من مرَّةٍ حاولتُ أن أحررّ قدمي من الحذاء وأتركه ملتصقًا بالأرض خلفي، ومثل لصٍّ حافٍ أوصِلُ نفسي إلى مكانٍ بعيدٍ عن أعينِ أناسٍ لم يعتادوا رؤيةَ رجلٍ يمشي حافي القدمين، سوى أنّ محاولاتي كلّها باءت بالفشل الذريع وخارت ركبتاي، شُدَّت روحي من بدني! وعلى الطرف الآخر من الشارع ثمَّة طيفُ فتاةٍ جميلةِ المحيا يمشي، ورويدًا رويدًا خُيِّل إليّ أن ما رأيته ليس إلَّا حلمًا وأنتظرُ صوتًا يوقِظني ومن ثمّ أسخرُ من نفسي ضاحكًا، هذه الفوضى عبَرت مثل عاصفةٍ رعديَّة شتائيَّة، فجأةً غابت بيريفان عن عينيّ، ومع غيابها عادت القوَّةُ إلى قدميّ الملتصقتين بالأرض وارتفعتا لأمشي كما يمشي أي شخصٍ في الشارع.

- إلى أين وجهتي يا ترى؟

دونَ وعيٍ سألتُ نفسي هذا السؤال، تصبّب منّي عرقٌ بارد ووليّت وجهي نحو مدينةٍ أخرى في عالمٍ آخرَ مكوَّنٍ من فوضى الجنَّةِ والنار، أدركتُ حينها أنّني مغلوبٌ على أمري وأنَّ عشق بيريفان بدأ يضرمُ النَّار في أصابعي، ورويدًا رويدًا تتأجّجُ النيرانُ وتتوزَّعُ كالدم في بدني، ألمُ تلكَ النيران كان أكبر منّي، ثقلٌ أحسستُ معه أنّني لم أعد أقَوى على تحمُّله بمفردي، لم أكن أعثر سوى على ياسينو لأحدِّثه وأنقذ نفسي من الاختناق تحت وطأةِ ذلك الثقل، يسمعني ياسينو بصمتٍ، يفكّر بعمقٍ هازًّا رأسه، في تلك الفترة كنتُ بحاجةٍ إلى مترجمٍ، مثلما كنتُ أترجمُ لأبي أخبار الراديو مُخبرًا إيَّاه حالَ العالم، هكذا كنتُ جاهلًا بلغة الحبّ ومحتاجًا

بشدَّة إلى مترجم يُترجِمُ ما بداخلي ليعرف ما الذي يحدث، لكي أستطيع ولو لمرَّةٍ واحدة أن أنام، وعوضَ أن يقوم مترجمي بعمله، كان يسألني أسئلةً تُدهشُني، سؤالُ مكانِ الالتقاء، عددُ القبلات، عدا عن القبلةِ وصلتُ معه إلى أماكنَ أخرى وهكذا دواليك، أسئلته جعلتني أندمُ على اعترافي له بحبّ بيريفان، وكلّما تذكّرت أمر تواصله الجنسيّ مع الأطفال تضاعفَ خوفي منه، رغم أنَّه كان على الدوام يردّ على كلام الناس عنه بأنّه كلام من لا يريدُ الخيرَ له، كان واضحًا أن ياسينو لا يمكن له أن يكون ذلك المترجم الذي بإمكانه أن يُفهمني لغة حبٍّ ما برح يلتهمني يومًا إثرَ آخر، ولكن على الرغم من ذلك، لا يوجد أحدٌ آخرَ حولي.

نهبني الحبُّ وجعل روحي تحت تأثير زلزالٍ قوي وطويل الأمد، ولم يتبقَّ في يدي سوى رعشتي أمام جمال هيبتها والبكاء وحيدًا في الغرفة الفارغة، ما هذا البلاءُ الذي حلَّ بي؟ ما هذا الإعصارُ الذي حلَّ بقلبي وكبدي؟ لم أعد أعرف، تركتني بيريفان بتردّدها في منتصف الطريقِ حائرًا، لم تكن لتقول نعم لتنفتح أبواب جنَّة صدرها أمامي، ولم تكن تقول لا حتَّى أرجِعَ إلى نار جهنم وحِدتي وخسارتي، كانت بيريفان امرأةً توجَد لديها كل الفصول في يومٍ واحد، تتساقطُ منها ندف الثلجِ والبَرد، ثمَّ لا يلبثُ أن يتوضّح الخريف وتتساقطُ أوراقُ شجرتها الصفراء في كلِّ الأنحاء، مرَّةً واحدة وحسب صادفتُ ربيعها، تلكَ اللحظات استقرَّت في عمق روحيَ المرتجفة دون أن تتزحزحَ، أرشدتني بيريفان بلوعة امرأةٍ عاشقةٍ إلى مكان اللقاء الآمن، وبعيدًا عن أعين الناس وهبتني

شفتيها وحلمتيها:

- هذا المنزلُ الذي يُبنى حديثًا هوَ لأبي، في المساء لا يوجد أحدٌ هناك، سنلتقي عند جدران البئر.

كنتُ مدهوشًا وثملًا في الوقت نفسه.

سبقَ وتناهى إلى سمعي قصصُ أموال رزّو البائع المتجوِّل التي أخفاها، لكنّي لم أصدِّق ذلك، كما أنّني لم أصدِّق كيف أنّ بيريفان تعدني هكذا سريعًا وبحرارةٍ بهذا اللقاء السرّي، وفي لقاءاتنا كانت تدهشني أكثر، سوى أنّ تعلّقي بها وحبّي لها كانا يجعلان مني «حمارًا» أمامها، حمارًا لا يعرف أن يتكلّم جيدًا ولا أن يصمتَ كذلك، لا يعرفُ أن يضحكَ ولا أن يبكي.

في ذلك المساءِ الأخرس من عمري المندهش، دنت بيريفان منّي ونظرت إلى عينيّ باشتهاءٍ عظيم:

- أعشقُ هذه الشامة التي على وجهك...

وبحرارةِ أمٍّ أطبقت شفتيها على شامةِ خدّي الأيسر وقبّلتها، ومنذ ذلك اليوم بتُّ أعشقُ الشامة التي كانت تعذّبني آنَ حلاقة ذقني في كلِّ مرَّة، مضت دقائق على تلك القبلة، حين قالت لي بيريفان بوجهٍ مصفرٍّ وذابل إنّها لن تستطيع أن تعدني بالحبّ وإنّها لا تريد أن يتعلّق أحدٌ بها.

الخرزة 9: خرزةُ السّبحة

ثمّة أشياء لا يمكن للمرء أن يفهمها في بيريفان، فلقاءاتنا التي كان لها أن تكون سببًا لقتلنا، كانت مصدر سعادةٍ لها، كانت حرارتها تتغلّبُ على خوفها، وهذا الأمر كان يهبني القوَّة أيضًا، إذًا إن كان بإمكانها تعريض نفسها للموت فلِمَ لم يكن بمقدورها منحي وعدَ الحب؟ مئاتُ الأسئلة كتلك خطرت في ذهني دون أن أعثر على الوقت الكافي لكي نتكلّم في أمرها، أو ربمَّا لم تكن تملك الجواب الكافي والواضح، وما كان يزيد من أسئلتي هي هديّتها، أجزمُ ألَّا أحد على سطح هذا الكوكب قد أهدى حبيبه سبحةً، كانت هديّتها سبحة، وقبل أن تعطيني تلك السبحة السوداء ذات الخرزات الناعمة الصغيرة حدّثتني عن قداستها وتاريخها.

جدُّها كان شيخًا كبيرًا للنقشبنديين، ومرقدهُ كان مزارًا لكلّ من يتمنَّى أمرًا، يأتون إليه ليأكلوا تراب قبره علّ الربّ يهبهم أطفالًا، الشيء الأقدس الذي تركه جدّها الشيخ وراءه هي السّبحة التي أهدتني إيَّاها، كانت تؤمن أنّ السُّبحة بتلك الخرزات التي تخفي القداسة والأسرار اللامرئيَّة سوف تحميني من الأشرار ومن المصائب، وأيضًا من معتقلات تلك الدولة التي تعرف بيريفان حقَّ المعرفة أنَّني ضدَّ نظامها الحاكم. رغم أنّنا لم نتحدَّث سويَّة في هذا الموضوع أبدًا، سوى أنّني سألتها:

- كيف لكِ أن تعرفي هذه الأمور عنّي؟

- معرفتي بك أكثر من معرفتك بنفسك...

مرَّة أخرى جعلتني بيريفان أرى جانبها الخفيّ، لم يكن أمامنا الوقتُ الكافي لمحادثاتٍ طويلة، تناولتُ هديتها من يدها بقبلةٍ طويلةٍ، عاهدتها أن تبقى السّبحة معي إلى آخر يومٍ في حياتي، ولكن بطريقتي الخاصَّة، وليس بطريقة المؤمنين، وحين سألتني عن طريقتي، خلعتُ ساعتي المثبتة على معصمي الأيسر ووضعتها على المعصم الأيمن، ومن ثمّ طويت السبحة ثلاث ثنياتٍ ووضعتها مكان الساعة القديم، قالت مازحةً:

- لِمَ تجعل الأمور صعبةً هكذا؟ ضعها في اليد اليمنى!

- لا، لا بدّ لها أن تكون جهة القلب...

جاوبتني بيريفان بالاحتضان، مرَّةً أخرى شممتُ رائحة أمّي الغائبة منها، انعكست حرارتها على الجدران، الأشجار، البيوت، الأحجار والتراب، كانت تذوب كلها معًا وتختفي، لم يعد في عالمي شيءٌ آخر سوى عينيها، كنت أجهدُ أن تعدني وعدًا قاطعًا:

- أعدكِ، إن لم تكن هذه السبحة في يدي، فذلك يعني أنَّني قد متُّ.

فرحت، لكنها لم تنتبه إلى ضرورة أن تعدني حتَّى ولو وعدًا متردِّدًا، لم أصل إلى مُرادي، كان واضحًا أنّها تعرف لِمَ صمتُ

لبرهةٍ وكأنّني أنتظرُ شيئًا ما، وعلى الرغم من ذلك لم تعدني بأمرٍ. لا أعرفُ لِمَ جعلتني السّبحةُ خائفًا أكثر من فقدانها، كنتُ أعرف أن السّبحةَ هي أغلى ما تملكه بيريفان، ربمّا لا تتقنُ الحديثَ عن حبِّها، فيما أنّ سبحتها التي كانت قد واظبت على حمايتها لسنواتٍ طويلة كان بإمكانها أن تقولَ آلاف الكلمات، سبحتها تلك أنعشت وجهَ قلبي كمياهٍ عذبةٍ باردة، دون أن تضع نهايةً لخوفي الكبير.

الخرزة 10: خرزةُ امرأةٍ من نار وماء

كانت بيريفان امرأةً من نارٍ وماء، فلا المياهُ استطاعت إطفاءَ لهيب النار، ولا النَّارُ استطاعت تجفيف المياه، ثمَّة امرأتان متناقضتان تعيشانِ داخلها، امرأةٌ تحبُّ وتودُّ أن تدافع عن هذا الحب بشجاعةٍ، وأخرى متردّدة، جبانة ومتصالحة مع رياح القَدَر، فمن أين تأتي تلك الرياح القويَّة التي استندت بيريفان إليها دون أن تجعل نفسها تحت وطأة أي وعدٍ؟ كانت تجهل أنّها تلعبُ بالنار وأنّها تحتلُّ هذا القلب المسكين وستبقى على هذه الحال حتَّى الرَّمق الأخير.

أكثر من التفكير بالقبلات، كان القلب يفكِّر بناره، بترجمة مشاعره المختلطة، الأذنُ كانت جائعةً لصوتها، فيما الفمُ كان جائعًا ليلتهم الشفةَ، الوجنة، الرمش، الجبهة، الأنف، العنق والقامة، الأصابعُ كانت جائعةً للحلمتين الطريّتين المكوّرتين. حين تمضي اللقاءاتُ القصيرة بسرعةٍ، يبقى عيني وفمي جائعين، كان مكان اللقاء بين منزلنا ومنزلها، إلى جانب جدار منزل حديث البناء، والذي كنتُ أودّ لو أن البناء لا يكتمل كي لا يفسدَ الأمرُ لقاءاتنا، حين سمعني ياسينو وكيف أنّ لقاءنا انتهى هكذا، استغرق في ضحكٍ طويل، وعوضَ أن ينصحني للقاءات الآتية، نهضَ وتمشَّى في الغرفة مثل رياضيّ حائزٍ على جائزة:

- المرأةُ تحبّ الرجل الرياضي ذا العضلات، وليس الشعراء والأيدي المرتعشة والرومانسيين، في مثل هذه اللقاءات يجب ألّا يضيّع الرجلُ الفرصةَ ويركبها أو تركبَ هيَ، أو على الأقلّ أن تمصّ.

اسودّ العالم في عيني عند سماع هذا الكلام، وكأنّ ياسينو دنّس مكانًا مقدَّسًا بالنسبة إليّ، فكّرتُ أن أطرده من الغرفة، أو على الأقلّ أن أصفعه لحقارته لئلّا يمضي دون عقاب، سوى أنّ ضحكته وكلامه الذي كان يقوله من القلب لم يفسح ليَ المجال إلَّا للإصغاء والصمت:

- واضحٌ أنّ تجاربك معدومةٌ مع النساء يا آزادو، تيقّن، إنّهن يبحثن عن قطعة اللحم، أمّا الحبّ والأشياء الأخرى مجرّدُ ستارٍ يختبئن خلفَ جماله، لكن حينَ تقومُ القائمة، فإنّهن يرضين بأي قطعة لحم دافئة، هذه هي المسألة وتنتهي هنا، ربمّا لن تصدِّق، لأنّك نقيٌّ، لكن تيقَّن من أخيك، تموت المرأةُ ولا تفصح عمَّا بقلبها.

في كلِّ مرَّةٍ يجعلني ياسينو في فوضى، يغادر فرحًا وأبقى مختنقًا في بحر الحزن والخوف، الخوف من فقدان بيريفان التي من الممكن أن تكون من النساء اللواتي تحدّث عنهنّ ياسينو، الخوف من الغد الغامض، من المشاعر التي ابتلعتها أفعى كفأرٍ مسكين، كنتُ أعتقدُ أنّ بيريفان مع الزمن سوف تصدّقني، وهكذا سوف أغيّر كل آراء ياسينو حول النساء، لكن مع الزمن لم يتغيّر

شكّي، وبيريفان لم تخرج من أسرِ تردِّدها، كنت في حزنٍ عظيم ذلك اليوم، فعوضَ أن يزورني الطائرُ الأسودُ الذي كانَ يُريحني، دخل ياسينو إلى الغرفة بادئًا بالحديث عن معلوماته حول النساء:

- ما هذه المتاهة التي وضعت نفسك فيها أيّها المسكين، لا تقل لي إنّك تفكّر مرَّةً أخرى بِبيريفان ولقائها، مع أنّ لوحاتك تدلّ على أنّك لا ترى سوى وجهها.

مدّ إصبعه مشيرًا إلى اللوحات الموجودة:

- كل الوجوه في هذه اللوحات غدت وجهًا واحدًا، وهو وجه بيريفان.

وكمن يشفقُ عليّ، وكأنّي به يقول لي إنّك توجِعُ نفسك بلا سببٍ، أكملَ:

- الحقيقة أنا أشفقُ عليك، كيفَ لك أن تُهزَم هكذا أمام امرأةٍ، لا سيّما أنَّ النساء لا يعرفن ما هو الحبّ.

حين نهضتُ أردتُ مقاطعته:

- ومن أين لكَ أن تعرف أنّها لا تحبّني؟

ردَّ بسؤالٍ على سؤالي:

- هاتِ قل لي أين التقيتَ بها في المرَّة الأخيرة؟

- ولِمَ تسأل؟

- لتصدّق كلامي، لكن ستعدني أنّك ستصمت...

حين رأيته جادًّا، وعدته على الفور إن أقنعني بكلامه فإنّني سوف ألتزم الصمت، أمهلني يومين كي يفعل ذلك، وفي اليومين لم أره ولم أرَ بيريفان، في اليوم الثالث أقبلَ إليّ وحدّد لي الزمن:

- الليلة، في المكان الذي فيه البئر، مكان لقائكما، سوف ألتقي بــ بيريفان، يجب أن تعثر على مكانٍ لا تراك فيه.

- ماذا؟ بيريفان؟ لا أصدّقك...

- أدركُ تمامًا أنَّك لا تصدّق الآن، لكنّك ستصدّقُ الليلة.

لم يعرف ياسينو أنّه طعنني بسكّينٍ في عمق قلبي ورحل، أو لعلّه يعرف أيضًا، لكن إصراره على إثبات كلامه أنساه كلَّ أمر، لم أصدِّق أذنيّ، ذهابه وإيابه باتَ مثل حلمٍ، كابوسٍ وها هو ينقضي، أردتُ إقناع نفسي، لكن لا، على المرء أن يحتاطَ لكلّ شيء وأن يكون جاهزًا لكل حدَث، ربمّا يتهيأ لــ ياسينو، إلى أن حلَّ الليل مِتّ ألف مرَّةً.

قبل موعد اللقاء، أنا اليتيمُ، اختبأتُ تحت بيتٍ حديث البناء منتظرًا نهاية العالم وانهيار كل أحلام حياتي، مع مجيء ياسينو أحسستُ أنّ ثمة قاتلين يحملان سكّينين كبيرَين وينتظران ذبحي، أنا ضحيَّة حبّي الصافي والناصع كبكاءِ الأمّ النقيّ، ومع

اقتراب خيالِ امرأةٍ من بعيد استيقظتُ من حلمي وتصبّبت عَرَقًا، تلكَ المشيةُ والخطواتُ العجولةُ كانت لبيريفان، كان ذلك الجمالُ المختبئُ الناعم، كانت تلك القامة التي تمنحني أجنحةً أطيرُ بها نحو ربيعِ الحبّ، لكن ما الذي يحدثُ يا ترى؟ هذه المرّة، ذلك الجمال وتلك القامة لا يُقبلان نحوي، إنّما يتوجّهان رويدًا رويدًا نحو «قطعة لحمٍ» ياسينو الذي لم يعطها مجالًا للحديث محتضنًا إيَّاها ليبدأ نهب ذلك الجسد الناعم.

بفرحِ وهيجان حصانٍ منفلتٍ في البراري أوضحَ لي ياسينو، أنا العاشقُ الخسران، ثباتَ نظرته، كنتُ أرى كل شيء بعيني، فقط نحنُ الثلاثة، ثلاثةٌ من أبناء آدم، كنّا الشهودَ في تلك الليلة الثقيلة التي ابتلعت قلبي الموحِش ومضغته بين أنيابِ النار، قلبٌ يتحوَّلُ إلى رماد، وكلّما هبَّت ريحٌ كانت تعمي عينَ صاحبه المندهش والغارقِ في عرَقَ بارد، في تلك العتمة كان ياسينو يضاعف في ظلمهِ وتعذيبه لي واصلًا إلى درجة أنّ ياسينو أمسك بشعرِ بيريفان خافضًا رأسها إلى أعلى ركبتيه، رأيتُ تعذيبي إلى هذا الحدِّ فقط، هربتُ، تقهقرتُ من مكاني كلصٍّ جريح، وصلتُ إلى البيت متقطِّعَ الأنفاس، ارتميت في سريري بحذائي وعَرقي البارد، وضعتُ رأسي تحت الوسادة باكيًا إلى الفجر.

الخرزة 11: خرزةِ الصراخِ العجيب

لم أشعر بنفسي صباحًا، لذا حين استيقظت في فترة الظهيرة أحسستُ بألمٍ ثقيلٍ في رأسي، بحَّ صوتي، وجسدي لا يقوى على حملي، الشيء الوحيد الذي تذكَّرته هو أن أجمع كل لوحاتي التي تضمّ وجه بيريفان الباسم، جمعتُ اللوحات وأخذتها إلى باحة الدار وبعود كبريتٍ وقليلٍ من النار التي بداخلي أضرمتُ النيرانَ باللوحات، التهمتها النيرانُ فَرِحَةً، وكأنّني صببتُ عليها البنزين، كانَ دخانٌ وغمامٌ ذلك اليوم، لم أعد أعرف إن كانَ دخان اللوحات أم دخانَ روحي التي تحترق منذ يوم أمس.

بعد موت والدتي كانت تلك المرة الثانية التي أتقابل فيها مع الموت، وعدا الموت لم أعد أعرف ماذا أسمّي انكساري هذا، فما بقي في داخلي لم يكن سوى أنقاض، شيء ما داكن يشبه الكهولةَ بدأ يتسلّلُ إلى داخلي الذي تنبعث منه رائحة الموت، على لساني طعمُه، وبالقرب من أذني صوتُه، إنَّهُ الموتُ بعينه، ومع الوقت تعرّفنا إلى بعض، بتنا صديقين لا نقوى على العيش معًا وعدوّين لا يملكان القدرة على العيش سويَّةً، لأنّني لم أقوَ في يومٍ من الأيَّام أن أحتضنه وأقبّله، ولم يكن بمقدوري يومًا كذلك أن أُطلق رصاصةً من الخلف على ظهره جاعلًا إيَّاه يتمرَّغ في الأرض وأنتهي منه، أنقذتني ألواني لاهثةً لنجدتي، حاولتُ أن أعثر على عينَي الموتِ الغدَّارتين اللتين خرّبتا حياتي وأثبتهما داخلَ لوحةٍ

ما، بت كطفلٍ تاهَ عن أمِّهِ في بريَّةٍ واسعة بلا نهاية، وبأحاسيسِ الطفل ذاته حملتُ الفرشاة ساكِبًا الصراخَ الذي بداخلي على القماشَةِ النَّاصعة، انتهت بي الحالُ إلى لوحةٍ بلا بدايةٍ أو نهاية، وبهيجانٍ غريب أكملتها، جلستُ إلى جانب لوحةٍ مثل جبلٍ ينظرُ إلى نفسه في مرآةٍ صغيرةٍ، شعرتُ أنَّ اللوحة لم تفلح سوى في إظهارِ قطرةٍ من بحر صراخي إلى الواقع، غضبتُ أكثرَ، حملتُ اللوحةَ وبشدَّةٍ ضربتها على رأسي صارخًا بصوتٍ لا يمكن أن يكون في العالم أعلى منه، صراخٌ عجيبٌ ويتيم لهُ أن يُنعِش روحَ كل جريح.

الخرزة 12: خرزةُ ينبوعِ الأفعى الخضراءِ المبقَّعة

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ إلى أن انتهى بناءُ منزل رزّو البائع المتجوّل واستقرّ فيه أولاده، والأمر الذي أخافهم كان وجود الأفعى الجديدة، أفعى لم يلقَ لها مثيلٌ بهكذا لونٍ في البلاد، فالأفاعي القديمة وكأنّها كانت قد أقبلت علينا من السماء، أمَّا هذه الأفاعي الجديدة كانت تخرج من تحت الأرض ومن أعماق التراب، ذهاب ومجيء الأفاعي الخضراء المبقَّعةِ لم تكن تغيب عن أعينهم، في البداية قالوا إنّها تخرج من تحت الأراضي المجاورة للبيت ولا بدّ من العثور على حلٍّ ما لها، ولكن بعد مراقبةٍ حثيثة تبيَّن أنَّ المنبع الأساسي لها هي بئرُ المنزل، تلك البئرُ التي كنّا نستند إلى جدارها أنا وبيريفان ومؤخَّرًا هي وياسينو، كانت الأفاعي الخضراء المبقَّعة تخرج من البئر، أفاعٍ طويلة وقصيرة، كبيرة وصغيرة، ولكن وكأنّ كلّها من الأب ذاته والأمّ ذاتها، لونُ كل الأفاعي كان أخضر وأجسادها مزيَّنةٌ ببقعٍ سوداء، في البداية لم تلدغ أحدًا، ولكن بعد أن تمّ قتلهم على يد من صادفوهم، بدأت هي أيضًا بالانتقام لقتلاها، وكانت الضحية الأولى ضيفٌ لـ رزو البائع الجوَّال، حيث تسلّلت أفعى ليلًا إلى سريره لتلدغه لدغةً قاتلة، عثروا على الضيفِ ميّتًا في سريره، وحيكت أقاصيصُ كثيرة حول هذا الأمر:

- لِم أفاعي رزّو لا تلدغه أو تلدغ أحدًا من أولاده فيما تلدغُ ضيوفه؟

- يبدو أن رزّو بنفسه يربّي هذه الأفاعي سوى أنَّهُ يتكتَّمُ على الأمر.

- لأنّ من قتل الأفاعي لم يكن رزّو أو أحدًا من أسرته، لذا فإنَّ الأفاعي تنتقمُ من الضيوف.

- إذًا هذه الأفاعي تمّ ترويضها وثمَّة عقل مدبِّرٌ وراءهم وهو لا شكّ رزّو البائعُ الجوَّال.

بهذا الشكل طالَت سلسلةُ الشكوك اللانهائيَّة حول الأفاعي الخضراءِ المبقَّعة، وأكثر من كل القصص التي باتَ يفكّر فيها الناس في الأنحاء، كنتُ أفكِّر في حكاية بيريفان التي قررت أن تغدو زوجةً لــ ياسينو، هذا القرار بالنسبة إليه كان فرصةً ليدفع عنه شبهة علاقاته الجنسيَّة مع الأطفال، وأيضًا ليتمكَّن من الاستمرار في نصره الذي كنتُ أنا بنفسي شاهدًا عليه، ومع انقطاع علاقته معي توضّح إليّ أنَّه قد استولى على بيريفان بالكامل، تلك التي انتظرت منها كلمةً واحدة طول حياتي، انكساري كانَ عميقًا لدرجةِ أنّ أحاسيسي شُلَّت، فكلّ شيءٍ أمام بصري ولكن ليس بمقدوري تصديق أيّ شيء، أو أن أقول إنّ ما أراه بعيني حقيقة، وددتُ أن أحزنَ قليلًا وأتألَّم قليلًا، لكن لم يكن يحصل ذلك، وددتُ أن أفرحَ لأمرٍ، وهو أنّني تخلَّصتُ من بلاءٍ عظيمٍ يدعى بيريفان وسوف أبحث عن فتاةٍ أخرى أحبُّها وتكون صادقةً معي، لكن

لم يكن يتحقّق ذلك أيضًا، وددتُ كأي شخصٍ منكسرٍ أن أذرف دموعًا دافئةً وأصرخ بكلِّ ما أوتيتُ من قوّةٍ، سوى أنّ دموعي لم تكن تنزل، وددتُ أن أدندن ألحان أجملِ أغنيةٍ، حتَّى تعرف بيريفان أنَّها ليست الفتاة الوحيدة في هذا العالم وأنه بإمكاني العثور على فتاةٍ أجمل منها بكثير، لكن صوتي لم يكن بمقدوره الخروج، وفوق كلّ هذا اشتدّت هجمات الأفاعي ضدّ من اعتبرتهم الدولة والرئيس أو أسمتهم بالخَونة، وأكثر من مرَّةٍ كنتُ هدفَ تلك الهجمات، فقط مرَّةً واحدة تمكّنت أفعى صغيرة من لدغي، وفي كلِّ مرَّةٍ كانت روح أمي تنقذني وتتولَّى حمايتي، ولكن تلك المرَّة وحين رفرف الطائرُ الأسود بجناحيه اختفت الأفاعي، ولكن لأنّ الأفعى كانت صغيرة فقد تمكّنت منّي ولدغتني، سوى أنَّ سمَّها كان قليلًا لصغرها فلم تقتلني، أو لعلّهم لم يودّوا قتلي.

هجماتُ الأفاعي تتغيَّر وفقًا للأشخاص، فكانت تلدغ البعض وتقتلهم، فيما ينجو البعض الآخر من موت لدغاتها، كان يبدو أنّها تلدغ البعض لمجرِّد الإخافة، أحيانًا كانوا يحدّدون الأشخاص، وليلًا يتسلّلون إلى أسرَّتهم ليلدغوهم ويردوهم قتلى، وأحيانًا أخرى، ولا سيَّما إن هاجموا الأطفال، لم يكونوا يلدغون، وإنّما يدسّون سمومهم إلى داخل أرواحهم ورؤوسهم الطريَّة، دون أن يتسبّبوا بأي أذى جسديّ لهم، فيكبر أولئك الأطفال ويتحوّلون إلى أفاعٍ، لدرجةٍ يخطئ المرءُ في أشكالهم إن كانوا بشرًا أم أفاعي، في كلّ بيتٍ أفعاه الخاصَّة، وأعدادهم تتغيَّر وفقًا للبيت وعمله. في منزلنا أيضًا، وكأي أحدٍ، بدأ أخي بترويض الأفاعي.

لّما حان وقت خروجي من مدينة عامودا لاستكمال دراستي إلى مدينةٍ أكبر في البلد الذي بات بأكمله بلدَ الأفاعي، تسلّلَ فرحٌ لامرئيّ إلى داخلي.

الخرزة 13: خرزة القراءة

لم تَدُم تلك الفرحة، فالجامعةُ للناظر إليها بسطحيَّةٍ تمشي بانتظامٍ وترتيب كما أيِّ جامعةٍ أخرى، لكن مع الزمن، توضَّح أنّه وخلف كل بناءٍ يسمَّى كليَّة أو جامعة، ثمَّة أبنيةٌ أخرى لأناسٍ يرتدون أزياءَ خضراءَ مبقَّعة، القليلُ منهم كانوا يخرجون إلى الطلبة بزيِّهم الرسمي، بل إنَّ أغلبهم كانوا طلبةً، وإلى جانب دراستهم يقومون بعملهم الآخر، وبين كل يومٍ وآخر وبغتةً يجرجرون الطلاب الذين أطلقوا عليهم لقب «ذوي الألسنة الطويلة» إلى تلك الأبنية المعروفة بالـ: «الأمن الجامعي» ويبدؤون بالعمل على تقصير ألسنتهم، البعض من ذوي الألسنة الطويلة عادوا فرحين وبدؤوا بارتداء الزيَّ الأخضر المبقَّع، فيما البعضُ الآخر صمتوا بلا حراك، يعودُ البعضُ مقطوعي الألسن، والبعض الآخر لا يعود أبدًا ويُنسى من غير أثر.

الأفاعي التي بدأت تخرج من منزل رزّو مؤخَّرًا كانت تأخذ لبوسَ الطلبة، احتلَّت الفوضى رأسي، لم أعد أميِّز إن كانت تلك الأفاعي الضَّخمة قد كبرت وتقمَّصت شكل الطلبة، أو أنّ الطلّاب قد تغيَّروا وباتوا يظهرون أمام عينيَّ كأفاعٍ، ولا سيَّما حينَ عرفتُ أنَّ الأساتذة والدكاترة الذين يلقنّوننا المحاضرات يعملون تحتَ إمرة ذلك البناء، كما أنَّ أغلبهم تمّ توظيفهم من قبل القائمين على البناء، لذا لا يمكن لأحدٍ أن يقتربَ من عمل الجامعة دون التماس

الإذن منهم.

السنةُ الدراسية الجامعيَّة لا يمكن لها أن تنقضي دون أسبوعين أو ثلاثة من التدريبات العسكريَّة، وفي أيَّام التدريب، يخرج عمّال تلك الأبنية لاستقبالنا بألبستهم الرسميَّة، وفجأةً يقبلُ الضبَّاط والرجال ذوو السحناتِ الكريهة كأُسودٍ جائعةٍ عثرت على كومةِ خرافٍ لا حولَ لها ولا قوَّة، لم يشاؤوا التهامنا، إنّما رغبوا في إخراجنا من لبوس المدنيَّةِ النَّاعم ويجعلون منَّا ضباعًا قويَّة مثلهم لأن نكون أوفياء لبلدنا في المستقبل ونهزم الأعداء، كانوا يفعلون هذه الأمور الصعبة لأجل ما سَمُّوهُ وطنًا، أرادوا تطهيرنا من إنسانيتنا، وعلى حدِّ زعم ضابطنا الكبير فإنَّ الأمرَ يحتاجُ إلى وحوش. الأمر الذي لم أفهمه هو أنّ الوطن بطبيعة الحال لكي يعيشَ فيهِ الإنسان. لكن ما الذي سنفعله بوطنٍ نغدو وحوشًا؟... فشلوا في ترويضي كوحشٍ، ولم يكن ممكنًا لي أن أبقى إنسانًا، ورويدًا رويدًا كنتُ أرتابُ من نفسي، رأيتُ بأمّ عيني كيف أنّ أصدقائي الطلبة الهادئين وهم يرتدون الزيّ الأخضر المبقَّع يتحوّلون إلى وحوشٍ، فتأثيرُ ذلك الزيِّ كان أشبه بالسحر ويغيِّرُ المرءَ على الفور، ويومًا إثر آخر كانت أمواج المياهِ الخضراء المبقَّعةِ تقوى وترتفعُ وتغدو عميقةً وتشدُّ إليها الطلَّاب.

الطلبةُ مكسورو الأجنحةِ الذين حاولوا حماية أنفسهم من تلك الأمواج، يبقونَ أسرى آلامهم في حيرةٍ ووجَع، والبعض منهم يختنقُ مع الزمن، فيما البعضُ الآخر يخرجُ نصفَ ميِّت، ليهرب البقيَّةُ أملًا في البقاء على قيد الحياة.

كان مطلوبًا منّي أن أعثر على حلٍّ لنفسي بنفسي، تولَّد لديَّ رغبةُ الفرارِ والبقاء في آنٍ معًا، تختلطُ الألوانُ على قماشةِ لوحتي، ليغطيها الأخضرُ المبقَّعُ كلّها، في كلِّ لوحةٍ ثمَّة أفعى تُخرِجُ رأسها، إلى أن وصلتُ إلى نتيجةٍ مفادها أنَّ لوحاتي كلَّها تشبه بعضها الآخر، كلّها تُعطي ذاتَ الفكرة وتعبِّر عنها، وهي فكرة الخسارة، الخسارةُ أمامَ مجتمعٍ محاصرٍ من اتجاهاتهِ الأربعة بأفاعٍ، والآن بدأ يتسلّلُ إلى داخله أخضر مبقَّع وبدأ بالتهامه. في الماضي كانت هناك بيريفان التي تملأُ الروح والدماغ، لكن الآن لا ألم القلبِ يخفُّ ولا نهاية تلوحُ لحرائقِ روحي ولا العقلُ بمقدورهِ أن يعملَ.

مع أنّ الرئيس الكبير، الجنرال السابق، قد رمى زيَّهُ الأخضرَ المبقَّع، ومثله مثل أكثر رؤساء الدول كان يظهرُ بزيٍّ مدنيّ، لكن طوفان الزيّ الأخضر المبقَّع أغرقَ الملايينَ من الناس دونَ أن يتوقَّف.

الخرزة 14: خرزةُ الرئيسِ الكبير

استولى الجنرالُ -الذي يشبه بشكله الأفعى- على السلطة بانقلابٍ عسكريّ، بترَ رؤوس الأفاعي الكبيرة كلّها، فيما أبقى على الأفاعي الصغيرة لتخدِم قراراته، والويلُ كلُّ الويل لمن يدنو منه، انضمّ الملايينُ إلى حزبه، وارتدوا بالمئات الزي الأخضر المبقّع لكي يحموه مُقسمينَ على أن يكون رئيسهم الأبديّ، وتوضَّح الشعارُ الذي سوف يبقى مرفوعًا طوال أربعين سنة أخرى في هذه البلاد: الله، الرئيس، والوطن فقط، رويدًا رويدًا باتَ الله في المرتبةِ الثانية فيما ارتقى الرئيسُ إلى الأعلى، ومن يخرج ضدَّهُ يموتُ أو يتمّ تغييبهُ أو إخضاعه بالقوَّة للرئيس وجعله يسجد له مع سؤال من هو ربَّك؟ ولا بدّ أن يجيبَ «الرئيس».

استقرّت صورهُ في كلّ مكانٍ، تماثيلُ وهياكلُ لرأسه، لم يعد أحد يلفظُ اسم البلد دون أن يلحقَ به اسمَ الرئيس، كما أنّ البلد باتَ اسمهُ بلد الرئيس الذي هو مقياسُ كلّ شيء، وبعده تأتي عائلته ومن ثمّ أقاربه ومن ثمّ جيرانه وهكذا دواليك، لم تتبقَّ أحزابٌ في البلد، ولا شيء يُدعى سياسة، الجيشُ غدا جيشَ الرئيس، وكذلك الأرضُ، السماءُ، الحجارةُ، الأشجارُ، الناسُ، الحيوانات، الطيورُ، كلَّها باتت من أملاك الرئيس، كانَ لا بدّ لأيِّ نشاطٍ وفي أيِّ مكانٍ أن يُقام تحت ظلّ صورته، وكذلك في قائمة اللوحات المعروضة لا بدّ أن تكون صورته هي اللوحة الأولى، وفي كل منطقةٍ ثمَّة

مكتبةُ الرئيس الوطنيَّة، حديقةُ الرئيس، جامعةُ الرئيس، جسرُ الرئيس، منظمة أطفال الرئيس، شبابُ الرئيس، نساءُ الرئيس، فنانّو الرئيس، كتَّابُ الرئيس، صحفيّو وقوات حماية الرئيس وتماثيله وصوره، وهكذا فجأةً باتت خيرات البلد كلَّها هبةً من هبات الرئيس وفضائله، وهناكَ من رأى أن الأكسجين في هواء البلد ليس إلا هبةً من هباته، لعلّهم على حقّ، لأنّ من لا يحبُّ الرئيس لا يليقُ به أن يشمَّ أكسجين الحياة في هذا البلد، من له أن يصدِّق أن يكون كره الرئيس سببًا في نهاية حياة إنسان؟ ومرَّةً أخرى، كان الطائرُ الأسود، روح أمي التي تجعلني شابًّا، كانت تنقذني من الموت، ولولا ذلك الطائر الأسود كنتُ الآن قد تهتُ أو متُّ عشرات المرَّات، في لوحاتي لم يكن يظهرُ الرئيس، إنَّما أظافرهُ المدماة والخوفُ الذي عمَّ الأنحاءَ كلَّها، ولا أعرفُ كيف لاحَ لأحد رجاله رأسٌ شبيهٌ برأسه في إحدى لوحاتي ذات مرَّة، رأسٌ كانَ قد غطَّاهُ اللونان الأسود والأحمر، هذه الرؤيةُ رمت بستارها على حياتي أنا الفقير، فخرّبتها، وبينَ الدخول والخروج من السجن وإليه أنهيتُ دراستي الجامعيَّة وانكسرت أقدامُ حصان حياتي الأربعة، ورغم أنّني كنتُ فنَّانًا في زاويةٍ صغيرةٍ وميَّتة ولا يوجدُ من يرى لوحاتي سوى أشخاصٍ قلائل من رجال الرئيس إلَّا أنّني وبعد رحيل بيريفان بات انشغالي باللوحات السبب الرئيس لخرابِ حياتي، وككلّ مرَّةٍ حين تغلقُ الأبوابُ في وجهي، تهرع روح أمي إلى نجدتي ولا تتجاهلني.

الخرزة 15: خرزةُ الطائرِ الأسود

إلى تلكَ اللحظة اعتقدتُ أنَّ الطائر ذاك ليس إلَّا حلمًا أو خيالًا لطيفًا قد يظهر لعين أي امرئ، يُقبِلُ كي يريحَ قلبي ومن ثمَّ يغادر، أحيانًا كنت أشعرُ بنفسي مريضًا بحاجةٍ إلى دواءٍ ما، ما زلتُ الطفل الذي بلا أمٍّ، ذلك الطفل المنكسر والحزين الذي عوقِب وهو لا يزالُ في قِماطه، لكن لا، ها هو الطائرُ الأسود حقيقة، ها هو في زاوية الغرفة، كمثل عجوزٍ ضخمة وقويَّة، وضع جناحيه إلى جانبه كعباءة سوداء، وبصوتٍ ليس بغليظٍ ولا ناعم، بذلك الصوت الذي يشبهُ مياهًا تتسلّلُ في صيفٍ قائظٍ إلى تشقّقاتِ الأرض، هكذا كان يتسلّلُ الصوتُ إلى تشقّقات روحي، دُهشتُ لطلب الطائر، كان يودُّ أحيانًا أن يصحبني معه، وكانت هذه المرة الأولى التي أخافُ من هذه الروح التي تظهرُ فجأةً ومن ثم تختفي، تذكَّرتُ الموت، فوضى كبيرة اعترتني، فمن جهةٍ وددتُ المضيَّ نحو حضن الموت بنفسي والتعرّف إليه، لا سيَّما أن أمي هناك واشتقت إليها، ومن جهةٍ أخرى يشدُّني حبُّ الحياة وأخشى الذهاب مع الطائر الأسودِ الضخم، كلُّ شيءٍ كان يمضي في رأسي كبرقٍ، روح والدتي التي تحوَّلت لصوتٍ عذبٍ يتسلّل إلى أحشائي أقبلت لتغيير مكاني وتفتح الحدود المُرتَجة التي تمنعني عن الخروج، وحينما رأتني أرتعشُ من البردِ والخوف، طلبت مني أن أتدفَّأ بجناحيها، أطعتها، ذهب ارتعاشي وجلستُ قبالتها وحدّقت في وسط عينيها النورانيَّتين، ومع هيجان قلبي عدتُ إلى رُشدي

وحالتي الحقيقيَّة، هل الصوتُ صوتُ والدتي أم صوت روحها؟ أمّ أنَّها هي بذاتها، ها هي في غرفتي وتحدُّثني. خرابُ حالتي كان قدّ هزّ إيماني بالربّ وعدالته، لكنّ إرساله لهذه الروح التي من نورٍ وصوت أمي الحنون كانت لي بمثابة إيضاحٍ كبير، ودلالةٍ على وجود قوَّةٍ إلهيَّة تحقِّقُ العدالة، سوى أنّني كنتُّ دائمَ التمنّي أن تكون أمي التي من لحمٍ ودمٍ وحضنٍ دافئٍ موجودة، أمّ بإمكان أصابعها أن تصلَ إلى هذه الدموع وتمسحها وتوقِفها، أمّ أرتمي في حضنها كنمرٍ جريحٍ وأبكي، الطائرُ الأسود، روحُ أمي، كان قد علِم بمخطَّطاتي في الهروب، لذا كان قد أتى ليفهم، في تلك اللحظة اختلطت آلافُ الفِكَر في رأسي، المئاتُ من الزجاجات الساخنة انكسرت داخل روحي، لم أعد أعرف ما الذي أقوله، وهي عرفت أنّني فقدت القدرة على الكلام وعوض ارتعاشةِ الخجل تعرّقتُ، نهضت مستعدَّةً للرحيل، وقبل أن تذهب أفهمتني أنّها وإن كانت كائنًا من خارج أرضنا إلَّا أنَّها سوف تسعى لأن تجعل حياتي جميلة ومستعدَّة لمساعدتي، لا أعرف كيف خطرَ لها أنّني في تلك اللحظة كنت أفكِّرُ بالموت، وكأنّها تقرأ أفكاري، قالت:

- أنت تعرف أنّ جناحي كبيران وأبواب السماء مفتوحةٌ أمامي، والشيءُ الوحيد الذي أستطيع فعله لأجلك هو أن أخلِّصكَ من كل حدود العالم، ومتى ما قرّرت فأنا على أتمِّ الاستعداد، لا أستطيعُ فعلَ كلِّ شيءٍ بالطبع، فأنا في النهاية كائنٌ أرضي مثلك وإمكانياتي محدودة.

كان صوت الأم يغدو عذبًا أكثر، انتظرتُ أن تخبرني بأي مقبرةٍ

هيَ، لكنّها لم تقُل، تلك الاعترافات حرّضتني على أن أعرف عنها كلَّ شيء، جمّعت قواي كلّها وسألتها:

- ترى أينَ تسكنين؟

لم يَبِن على صوتها أيّ انزعاجٍ وردّت بسهولةٍ:

- في كلِّ مكان، ربمّا في رأسك، أو حتَّى في قلبك.

- لِم لا تُظهرينَ وجهكِ لي؟

- أنا هكذا، وجهي نورانيٌّ، ولستُ مضطرَّةً إلى الكشف عن كلِّ شيء.

- ما الذي تريدينه منّي؟

- أنت ولدٌ من أولادي ولا أريدُ أن أدعك بمفردك.

- إن كان صحيحًا ما تقولينه، لِمَ تركتني باكرًا وجعلتني وحدي؟

- الرحيل عنك لم يكن بإرادتي، لكن إرادتي أعادتني إليك.

- ما هذه الأجنحة؟ لمِ طائرٌ أسود بداخله امرأةٌ نورانيَّة؟ لَم أفهم؟

- لكلّ شيءٍ سبب، فأنا من غير الأجنحة لا يمكنني الذهاب إلى أيِّ مكانٍ، واللونُ الأسودُ يحميني في الليالي، هذه النورانيَّة روحٌ، وهذا الصوتُ صوتُ والدتك.

- ترى هل أنتِ حقيقةٌ أم خيال؟

- أنا مثلك، خيالٌ وحقيقة في الآنِ معًا.

بهذه الكلمات طبقت جناحيها، كضيفٍ تأخَّر على موعدٍ، نهضت وطارت، اختفت إلى الأبد، أشعلتُ الضوء وهرعتُ نحو المرآة كي أنظر إلى نفسي.

- هل حقًّا أنا موجود، أم أنّني خيالٌ أيضًا؟

لعلّ حكاية الطائر الأسود خيالٌ، ولعلّني أبدو خيالًا بالنسبة للبعض، فيما أبدو غير ذلك للبعض الآخر، ففي أكثر الأحايين أعبر جانب الناس، ينظرون إليّ دونَ أن يروني، هكذا: حب بيريفان، صداقة ياسينو، فوضى والدي، بغض زوجته، أفعى البائع المتجوِّل رزو، تماثيلُ وصور الرئيس الأكبر، القراءةُ، النوم، الموت، ضجيجُ هذا العمر المشلول والفارغ، هذه الأيَّام التي تشبه فئرانًا عالقةً في فمِ أفعى، كلّ هذه الأشياء تتبع بعضها بعضًا، وكأنّها سوف تبتلع بعضها الآخر ولكن لا نهاية لها، ربمّا كل تلك الأشياء ليست إلَّا محضَ خيالٍ، وربمَّا حقيقة، من يعرف؟

الخرزة 16: خرزة السجن

لا أعرفُ لِمَ تركوني ثلاثة عشر يومًا في تلك الزنزانة الضيِّقةِ المُعتِمة، تشكَّل لديّ يقينٌ بأنني سأقضي ما تبقَّى من أيَّام عمري في هذا المكان، فلا يوجدُ من دخل مثل هذه العلب وخرج منها ليشعر بنفسه إنسانًا، بلا شكٍّ سوف يبحثُ عنّي أبي لفترةٍ وبعد فترةٍ قصيرةٍ من الحيرة سوف يتعب، سيقولونَ له توكَّل على الله واغسل يديكَ منه طالما أنَّ التهمةَ سياسيَّة، لذا لا بدّ أن يتّكل على الله وأن يستعدّ لئلّا يعثر على جثّتي أيضًا، في تلك الأثناء اقتادوني إلى غرفةٍ فارهة تحوي ما يقارب العشرين شخصًا، استقبلني البعضُ منهم مرحّبين، فيما امتعضَ البعضُ الآخرُ، وكأنّني قد أتيتُ لأخذ لقمةِ خبزهم، عرفتُ مباشرةً أن الناس هنا مختلطون، البعضُ منهم لصوص، البعضُ الآخر قَتَلة، ومنهم من هو سياسي، فيما البعضُ الآخر قالوا: لا نعلَم سبب جلبنا إلى هذا المكان، وحينَ عرف السياسيَّون أنّني معتقلٌ لأسبابٍ سياسيَّة باتوا يتقرّبون إليَّ ويتودّدونَ أكثر، ويومًا إثرَ آخر اتضحّت حالة العلاقاتِ والتواصل في السجن، كان البعض من المعتقلين على علاقةٍ طيّبة بالمسؤولين عن السجن وينقلونَ كلّ ما يحصل داخله، لذا كان المسؤولون يجلبون لهم كلّ ما يحتاجونه، في الوقت الذي كان هناك مساجين على خلافٍ دائم مع مسؤولي السجن ودائمي الطلب في تحسين شروط حبسهم. المعتقلونَ في ذلك المهجع

كانوا يدخلون غرفة التحقيق واحدًا إثرَ الآخر، في كلِّ مرَّةٍ يَحينُ دور البعض، كنتُ أنتظر دوري بسعادة، كنتُ أقولُ لنفسي: سوفَ يجعلونني رهنَ الاعتقال، ومرّاتٍ أخرى أقول سوف يخرجونني من هذا الثقبِ الذي يمنع الإنسان عن التنفّس، فربمّا حصل خطأٌ ما، أو ربمّا كانوا يبحثونَ عن شخصٍ آخرَ اسمه يشبه اسمي والآن اكتشفوا خطأهم، ومن الممكن أن يعتذروا إليّ حين يكتشفون أنّني لستُ من يبحثون عنه، بهذه الشكوكِ الممزوجة ولّوا وجهي نحو الغرفةِ الأخرى، كانت أدوات التعذيب منتشرة في كل بقعةٍ، ثمّة قطع حديديَّة حادَّة تستخدمُ لقلع أظافر المعتقلين أو لجرح أجسادهم وأرواحهم، تسلّل انكسارٌ وخوف وحزنٌ في الآن معًا إلى داخلي، رماني جنديّ إلى المكان وخرج، دخل الحارس أبو علي الذي ذاع صيته في كلِّ أنحاء المعتقَل، والمعروف بملك التعذيب، كان صاحبَ قرار موت أو حياة السجناء، حين دخل بجسده الممتلئ وشواربه الكثَّة وعينيه الصغيرتين المحفورتينِ كثقبٍ في وجهه، أدركتُ أن يومًا أسودَ ينتظرني، وغضبه كانَ من أنّني وحسبما قيل له إنّني أكِنُّ العِداءَ للرئيسِ الأكبر، وحينَ أنكرتُ هذا الاتهام، اشتدّ غضبهُ أكثر، وصاحَ بي:

- أيُّها الكلب، من تظنّ نفسك لكي تطيل لسانك على الرئيس الأكبر، الرئيسُ ربُّك، من هو أيُها البغل، قُل من هوَ؟

- إنّهُ ربّي.

- ماذا؟ قُلها مرَّةً أخرى؟

- إنّه ربّي.

نادى بصراخٍ لجنديّ، طالبًا منه جلبَ صورةٍ للرئيس، طلبَ منه أن يضعها أرضًا، مدّد الجنديُّ الصورةَ على الأرض وعادَ خطوتين إلى الوراء، طلبَ مني أبو علي أن أخرَّ ساجدًا للصورةِ، وحينَ رآني متردّدًا، صرخَ في وجهي ماسكًا برأسي ومخفّضًا إياه نحو الأرض:

- اسجد لربّك يا سليلَ الكلاب...

على إثر قوّة يديه ارتطمَ وجهي بالأرض، نزف الدمُ من أنفي، وحينَ رأى دمي النازف وقد انطبعَ على أنف الرئيس في الصورة، طلب على الفور من الجنديّ أن يأخذَ الصورة، فأخذها تاركًا إيَّاي وحيدًا بين يدي أبو علي الهائج، لم يسألني أسئلةً كثيرة، ولكن على الرغم من ذلك وحين أنكرتُ علاقتي بالتنظيمات الممنوعة وصمت، بدأ يسردُ مادحًا قضيبه الطويل والكبير:

- اصغِ إليَّ جيدًا، هذا القضيب ولجَ مؤخرات الكثير من الكلاب أمثالِك، هل فهمت؟

معها اعتراني غثيانٌ، وتذكّرتُ الحوادث التي رواها لي المعتقلون بخجلٍ واختصار، حين قال ذلك، دنوتُ من أن أتقيّأ وبلا إرادة ذهبت يدي إلى مؤخّرتي، حينها غيَّر أبو علي تهديدهُ بآخر:

- لكن، لن أوسخه بمؤخِّرَةٍ قذرة، سوف أحمّمكَ وحسب.

مع هذه الكلمات فكّ سحاب بنطاله، وأرداني أرضًا بضربتينِ من قدمه، وبدأ يتبوّل عليّ، حاولت أن أحمي وجهي بيدي، لكنّني لم أتمكّن الإفلات من طوفان بوله، تيقَّنتُ أنّه احتفظ ببوله أسبوعًا كاملًا لأجلِ هذه اللحظة، أردتُ أن أتقيَّأ كي أستطيعَ التنفُّس، لكن لم يتسنّ لي ذلك، خرج أبو علي وقد تركني بين دوُارٍ في الرأس، بين انكسارٍ عجيب، كان يبدو واضحًا أنّه يريدُ أن يعرف قوّة تحمّلي قبل أن أعترف، ربمّا كان في انتظار أن أعترف بعلاقاتي مع التنظيمات السياسيَّة في جهات الأرض الأربع لكن في الحقيقة لم يكُن يوجَد صديقٌ أسردُ له ألمي وحزني، وحتَّى علاقاتي مع الجيرانِ كانت معدومة، لكنّه لم يكن ليصدّقني في أمرٍ.

غضبتُ من نفسي أكثر من غضب أبو علي، الذي كان ينظرُ إليّ شخصًا عنيدًا ومتحمِّلًا ومقاومًا، فيما أنا كنتُ قد أصبحتُ رجلًا منكسرًا، هاربًا، جبانًا باقيًا بين بول جلّاده، وما لم يعرفه أبو علي الذي يشبهني هو أنّه قد يكونُ نتاجًا لخيالِ شخصٍ مريضٍ ومختلّ. لم يتبقّ لي سوى روح والدةٍ ميّتة في هذا العالم.

كانوا ينظرون إلى المعتقلين وكأنّهم حشراتٌ ولا بدّ لها أن تُدعَس تحت أحذيتهم، لا بدّ أن أعترف أنّهم تعاملوا معي بإتقانٍ، ولكنّهم شبعوا من معلوماتي وأجوبتي المُكرَّرة، محاولته الأخيرةُ معي كانت أن أرتبط معهم وأن نتوحَّد جميعًا لحماية وخدمة البلد مثلهم، كنتُ أودّ أن أجعلهم على يقينٍ أنّني أنفر من نفسي ومن كلِّ الأشخاص، ولا أحد يثق بي أن يعطيني منشورًا ممنوعًا، على الرغم من عدم تصديقهم، سوى أنّهم فقدوا الأمل، جعلوني أوقّعُ

على وثيقة تنصُّ على أن أراجعهم مرَّةً كلَّ أسبوع ومن ثمَّ أطلقوا سراحي.

بعد إطلاق سراحي لم تكن صورةُ أبو علي تغيبُ عن ذهني، ففي كلِّ الأوقات، في خيالي، كان يظهرُ لي كقضيبٍ كبيرٍ يبول، كان يقفُ قِبالتي بوجهٍ لحميٍّ بلا عينين وينزّ منه ماءٌ أصفر، الوجهُ الآخرُ لهذه الحادثة الصعبة تلخَّص في أنّني لن أتخلَّص من أبو علي ورجاله ولا بدّ أن أغيب عن أعينهم.

الخرزة 17: خرزةُ الهروب

كرجلٍ يمشي وهو نائم، كنتُ أمشي نحو أماكنَ مجهولة، لم أكن أصدِّق أنّ الشخص الذي يستعدُّ للرحيل والهرب هو أنا، كنتُ أعتقد أنَّه شخصٌ آخر يشبهُني، لكنّه سواي، في بعض الأحيان يتقمّصني ويتألّم مثلي، وأحيانًا أصبحه وأشعر بألمه، لكن متى يكون أنا، ومتى أكون هوَ، لا أعرف تمامَ المعرفة، كان يشدُّني نحو طفولةٍ لم أرَها، كانت عيناي تبحثان عن حضن أمٍّ لم يتسنَّ لي رؤيتها، اعتقدتُ أنَّ الذي يكبرُ ليسَ أنا، سوف أولَدُ من جديد ويصبحُ لي أمّ، هكذا حينَ أكبرُ أيضًا سوف تتحقَّقُ كلُّ أحلامي، كنتُ في انتظارِ اليوم الذي أعودُ فيه سنواتٍ عشر إلى الوراء وأن يتألَّم ذلك الشخصُ الذي يشبهني، يمضي من خسارةٍ نحو أخرى إلى أن يختنق يومًا ما تحت لحافه مثل كلبٍ فطيس. كنتُ ممنونًا للتوأم الذي يشبهني، كنتُ أشعر أنّه يعاني أكثر من مرَّة بسببي، ولا سيَّما حين أبكي بلا دموعٍ، كنتُ أعرفُ أن صاحب هذا البكاء هو أنا، وعلى الرغم من ذلك لم أكن الذي يبكي.

على هذه الحالة توجّهت نحو المهرّبين الذين يشبهونَ أشباحَ الليل ويرسلونَ الناس إلى جهات العالَم الأربع، وفي تلكَ الأثناء هرع الطائرُ الأسودُ إلى نجدتي وانتهت الاستعداداتُ التي ستمكّنني من عدم رؤية وجه أبو علي إلى ما لانهاية، لكن الأمر لم يكن بهذا القدر من السهولة. حياتي وحياة شبيهي كانت رويدًا

رويدًا تُجفُّ وتُشلُّ، شعرتُ أنّني أمضيتُ عمري في ما بين المطبخ والمرحاض والنوم، الإنسانُ في حدِّ ذاته كائنٌ غريب، ففي كلِّ صباحٍ أو في كل ظهيرة لا بدّ أن يملأ معدته وبعدَ فترةٍ وجيزة يجبرُ على إفراغها لكي يعاودَ ملأها، وما بين الإملاءِ والفراغ ينتابهُ النعاسُ، يقضي ساعاتٍ عدَّة في النوم، ومن ثمَّ يستيقظُ على عجلةٍ ليبحث عن رزقه ويعمل لكي يملأ معدته مرَّةً أخرى ويفرغها وهكذا، بتُّ أشعرُ بالغثيان من هذه المتاهةِ التي يعيشها المرء، شعرتُ بقرفٍ من نفسي ومن غيري، وددتُ لو أن أقرِّرَ، فإمَّا أن أغيَّر نفسي أو أن يغيَّر هؤلاء الأشخاص الذين لا يتركونني وشأني أنفسهم، وإن لم يحصل الأمران لا بدَّ أن أغيَّر مكاني.

في بعض الأحيان كنت أشعر بعدم قدرتي، لأنّني مثلَ الدود الذي اعتادَ على مكانه ولا يستطيعُ العيشَ في مكانٍ آخر، دود سيتمشَّى في الطرقات إلى أن ينهي حياته حذاء شخصٍ مجهولٍ مرَّ من هناكَ مصادفةً، يدعسهُ ويقتله ومن ثمَّ يغادر، لكنّ الرجل الذي يشبهني كان فَرِحًا، يشكو إليَّ ويمنّي قلبه بالتحرُّر، هكذا كنتُ أنظر بتعلّق إلى مكاني بعينٍ، فيما عيني الأُخرى تنظر إلى مكانٍ بعيدٍ عن هذا المكانِ المحاصرِ بالخرابِ والموت.

الخرزة 18: خرزةُ ألمانيا

فجأةً أبصرتُ نفسي مُحاصرًا بالأبنية العالية والسيَّارات وجدران الحديدِ والإسمنت، شعرتُ وكأنّني فأرٌ تسلّلَ ماءٌ عظيم إلى حفرته وانهارت بكاملها، وخوفًا من أن يفقد روحه ولكي يَنجو يرمي بنفسه خارجَ هذه الفوضى، هكذا يبصرُ نفسه في غرفةٍ صغيرةٍ ونظيفةٍ وفارغة وتحت حماية الشرطة، كان الفأر يفرحُ لأنّه لم يختنق في وحل تلك الحفرةِ ليغدو جسدًا منسيًّا، وتارةً كان يحزنُ لأنّه أُجبِرَ على ترك حفرته الضيِّقة والدافئة التي اعتادَ عليها، النظافةُ في الأنحاء لم تستطع إخراج البردِ الذي في أحشاء الفأر.

كانت تلك المرَّة الأولى التي أُبصِر نفسي فيها بين هذا العدد الهائل من الناس الذين لا أفهم لغتهم، وهم لا يعرفون لغتي، ومحاولات الفهم منهم بدأت منذ اليومِ الأوَّل، لا أعرفُ لِمَ كنت في هذه الحالة، حيثُ كلَّما نظرَ أحدٌ في اتجّاهي اعتقدتُ أنَّه يسألني هذا السؤال:

- هذا الرجلُ الغريبُ الذي يشبهُ فأرًا، ما الذي يفعلهُ هنا؟

هكذا كنتُ أفكِّر، لكن الآن تيقَّن البعضُ منهم أنّني هربتُ من بلدٍ لا يوجد بِهِ خبزٌ، ولأجل الحصول على لقمة الخبزِ أتيتُ إلى هنا، كانوا يشفقون عليَّ قليلًا، وهكذا كانوا يصدِّقون أنّني نجوتُ من

مشاكلَ عظيمة والتجأتُ إلى بلادهم، فيما كان البعضُ ينظرونَ إليَّ نظرةً مرتابة على أنّني مرتزقٌ يريدُ أن يستغلّ نظام بلادهم لصالحه، دون أن يخطر في بال أحدٍ منهم أنَّ محاولاتي للمجيء إلى بلادهم ما كانت إلَّا محاولات النجاةِ من الموتِ البطيء عبر الخنق وهربتُ منه، ولن يُصدِّق أحدٌ أنَّ طائرًا أسودَ أسطوريًّا قديمًا ساندني ولولاه لما استطعتُ الوصولَ إلى هذا المكان الآمِن، لكن مع مرور الزمن بتُّ أسخرُ من الأخيلةِ التي كانت تراودني، لم أكن أعرفُ أنَّ الناس ها هنا على مسافةٍ بعضهم من بعض، يعيشون دونَ أن يدريَ أحدهم بما يعانيهِ الآخر، لم أعد أفسِّرُ ماذا يعني تحديق من يمرُّ بجانبي أو من ينظرُ إليّ، عرفتُ أنَّ الجميعَ مشغولون بأنفسهم وأنَّ تلك التحديقات أكثر منها نظراتٍ ذات معنى فإنّها حركةٌ طبيعيَّة وبلا أيِّ معنى، هذا الأمر كوّنَ مشاعرَ متناقضة في داخلي، فمن جهةٍ فَرِحتُ أنَّه لا يوجدُ من يمدُّ يده إلى حياتي ويتدخَّل بها، ومن جهةٍ أخرى كنتُ حزينًا لكوني وحيدًا هكذا، كنتُ أشعرُ بنفسي أكثر من أنَّني مدنيّ دبًّا عجوزًا يعيشُ داخلَ كهفٍ في جبلٍ بعيد، وحولي ثمَّة الكثيرُ من الطيور التي بإمكانها أن تعلو في السماء وتذهب إلى أين شاءَت، لكن أنا الدبُّ المسكينُ العجوز الذي بلا أجنحة ليس بمقدوري مغادرةَ هذا الكهف الحجريّ المخفيّ، لم أعد أعرف إن كنتُ أنا نفسي، هذا الذي يحيا حياةَ دُبٍّ، أم أنّه شخصٌ آخر يشبهني وأنّني كنتُ أحلم.

الخرزة 19: خرزةُ الهجرة

الهجرةُ شيءٌ يشبهُ أن تسيرَ في شارعٍ مليءٍ بالناس، أن تصادف الآلافَ منهم دونَ أن تربطكَ بهم ذكرى واحدة، وكأنّ كل واحدٍ منهم شخصٌ بعيدٌ عنك، كذلك أنتَ شخصٌ غريبٌ عنهم، هذا يعني أنّه لا توجدُ نكتةٌ يضحكُ منها الجميعُ معًا، كما أنَهُ لا توجدُ حادثةٌ لتحزنوا معًا، أو يوجد شخصٌ تسرد له الحادثة وتحزنوا معًا مرَّةً أخرى.

اللاجئُ حين يتوهُ عن أثرِ وطنه يغدو مثل سلحفاةٍ تسحبُ رأسها إلى قوقعتها في أيِّ مكانٍ يشعرُ فيه بالضيق، دونَ أن يبحثَ عن وطنٍ جديد، بل يحسَبُ المكان الذي فيه وطنًا له، تلك السلحفاةُ التائهةُ عن وطنها هي أنا، حينَ يتحدَّثُ أحدهم عن ندم ترك وطنه، أشعرُ بسخريةٍ إزاءه، فقبل ذلك لم أكن أعثرُ على حياةٍ كحياة السلحفاة، لم تكن هناك رقعةٌ صغيرة واحدةٌ آمنة في بلد الأفاعي، ففي كلِّ رقعةٍ ثمة العشراتُ من الأفاعي التي تودُّ التسلُّلَ إلى أسرار وأحلام الإنسان والدخول إلى بيته، لم تعد هناك حاجةُ إلى بابٍ، كانت تتسلّلُ من تحته، كان بإمكانها أن تتسلّل من تحت النوافذ إلى الأسرَّة وتلدغ المرءَ، وحينها لا بدّ للمرءِ إمَّا أن يتحوَّلَ إلى ضحيَّة أو قاتل، وأنا لم أرِد أن تلدغني الأفاعي ولا أن أتحوَّل أنا نفسي إلى أفعى، لذا خرجتُ من البلد بشكلٍ أشبه إلى الهرب، لا أعلم إن كانَ بمقدوري وصفَ خروجي على

أنَّه هربٌ أم شجاعة، حيثُ لم يكن الأمر سهلًا بالنسبة لآخرين أن يغمضوا عيونهم ويرتموا في أحضان الغربةِ، لا سيَّما من هم مثلي لا يملكُ أحدًا في الغربة، كنتُ على ثقةٍ من أمرٍ واحد، وهو أن أخرجَ حيًّا من حدود هذا البلد الذي لفَّ الحبل حول رقبتي، في طريق التهريب المليءِ بتهديدات الخوف من الاعتقال شعرتُ بأنَّ الأمر ليس سهلًا، ولكن مهما يكن فقد قُضيَ الأمر.

في البلد، وفي خضمِّ أحلام أوروبا، والشيءُ الأوَّلُ الذي سيبحثُ عنه فتىً مثلي هو فتاةٌ ذات شعرٍ أشقرَ وعينَين زرقاوين، تحبّني بلا أيّ صعوباتٍ وخلال فترةٍ قصيرة سوف تكون في حضني ولن تغادرني إلى أن أموت، لكن حين وصولي إلى البلاد الجديدة لم يكن الشيءُ الأوَّل الذي بحثتُ عنه فتاةً شقراء ذات عينين زرقاوين، بل كانَ مرحاضًا! فطريقُ الدخول إلى الجنَّة والبقاء في هذا البلد الجديد كان مرهونًا بمن يدخلُ المرحاض بسرعةٍ قبل الآخر، وأن يمزِّق كل ما يملك من ثبوتيَّاتٍ تدلُّ عليه، أن يمزّقها إربًا إربًا ويغمرها في مياه المرحاض، ومن ثم يهرع إلى الشرطة طالبًا منهم اللجوء، بعد انتهائي من جواز سفري المزوَّر، كان ثمَّة أمرٌ يشغُلني، هربتُ من بلدي كي لا أقع في قبضة شرطتها، والآن أهِبُ نفسي إلى شرطة هذا البلد الغريب، أحيانًا كنت أفكَّر ألَّا أسلِّم نفسي لهم، وحين يروني واصلًا إلى هنا بلا جوازِ سفرٍ سوف يعتقلونني فَتُحَلُّ المُعضلة، مضت ساعاتٌ طويلة، لم تهدأ حركةُ الناس في المطار ولا انتبهت الشرطةُ إليَّ وإلى عدم امتلاكي جوازَ سفر، والشيءُ الذي أذهلني هو حين توجّهتُ نحو شرطييَّن كانا

يتجوَّلان هناك استقبلاني ببرودةٍ عجيبة! وأنا الذي اعتقدَ أنّهما يبحثان عمَّن هم مثلي بلا جواز سفر ولا بدّ أن يتمّ إلقاء القبضِ عليهم، ولكن حين تناهى إلى أسماعِهما عبارةٌ خرجت من فمي «No Pasport» لم ينصتا، فقط أشار أحدهما بيده إلى مكانٍ أشبه بمكتبٍ، ومع ذهابي إلى المكان فهمتُ لِم يهتمّ الشرطيَّان بأمر عدم امتلاكي لجوازِ سفرٍ ولا لخوفي، كان ثمّة العشراتُ من الأفغان، الأفارقة، العراقيين، الغجر، الألبان والفيتناميين قد تجمّعوا قبلي في انتظار دورهم كي يتمّ تسجيل أسمائهم كلاجئين هناك، أسدل الليلُ ستاره حين وصلني الدور، وبعدَ أن أخذوا إفادتي بعونٍ من مترجمٍ اصطحبونا إلى مكانٍ يشبهُ من حيثُ أبوابه المغلقة السجون، ولكن من حيث نظافته وبرودته كان يشبه غرف فنادق الأربع نجوم في بلدي، وفي اليوم التالي ولّوا وجوهنا إلى معسكراتِ اللاجئين، أحسستُ سريعًا بأنّني داخل حلقةٍ دائريَّة وسلسلةُ الأهدافِ طويلة، حلقةٌ تستندُ إلى أخرى، حين قرّرتُ الرحيل قلتُ سوف تحلُّ معضلتي لمجرَّد العثور على مهرِّب جيِّد، عثرت عليه وانتظرتُ وعوده، ثلاثَ مرَّاتٍ لم يفِ بوعده، ولكن في الرابعة نجحَ في ذلك، اعتقدتُ أنَّ الأمور كلَّها تمضي لمجرَّدِ أن أصِل، ومع الوصول خرجَ أمر التخلُّص من جواز السفر، وقُضيَ الأمر، ومن ثمّ لا بدَّ أن أبقى في المطار، ومن ثمّ بعد ذلك المكوثُ في معسكرات اللجوء التي تحوي أُناسًا من جهات العالم الأربع، أتوا من كلّ الجهات التي بها حربٌ وقتلٌ وفقر، أتوا والتقوا هنا، المئاتُ من الناس من مختلف البلدان، أصحابُ لغاتٍ وعادات وتقاليد مختلفة، جلبوا معهم كل ضجيجهم وأتوا إلى هناك.

وضعوا من يملك أسرةً في غرفةٍ أو اثنتين، ومن لا يملكُ أسرةً يضعونه مع شخصٍ آخرَ في غرفةٍ واحدة، كان المطبخ والحمّام والمرحاضُ مشتركًا، ما عدا الذين أمضوا سنواتٍ طويلةٍ في هذا المكان وفقدوا الأمل في الحصول على حقِّ اللجوء، كان هناك الكثيرُ من الذين تمضي الأيَّامُ بهم في انتظار قرار المحكمة، مع وصولي إلى هناك شعرتُ أن حلقة انتظاري عادت لتبدأ من جديد، وسينتظرُ المرءُ مرَّةً أخرى ليعطي إفادةً جديدة، وبعدها في انتظار الردّ وهكذا، هذا كلّه ولم تبدأ بعدُ مرحلة تعلِّم لغة البلاد والتعرّفِ عليها، بهذا الشكل أحسستُ أنَّ حياتي تتحوَّلُ رويدًا رويدًا إلى سلسلةٍ من الحلقات اللامنتهية، تعبتُ سريعًا وشعرتُ بالقرف من كلِّ شيء، كان حقدي يزدادُ تارةً على من كان سببًا في هجرتي وتارةً أخرى على هذا القَدَر اللعين.

الخرزة 20: خرزةُ المعسكر

المعسكر الذي مكثتُ فيه كان في بريَّةٍ، وكان يفصل بينه وبين القرية القريبة نحو كيلومترٍ واحد، يمرُّ الطريقُ بمحاذاةِ المعسكر المؤلَّف من طابقين، كل طابقٍ يحوي نحو عشرين غرفة، كان ثمّة الكثيرُ من الرجال والنساء والأطفال من مختلف أصقاعِ الأرض، من إفريقيا وحتَّى فيتنام، عرب، أفغان، كرد وألبان وحتَّى غجر أوروبا الشرقيَّة، كان بمقدور المرءِ أن يعرف من خلال الناس في ذلك المعسكر أيّ شعبٍ في أي بقع العالم تعاني من الشروط الصعبة في عيشها، كان البعض منهم قد وصل حديثًا في انتظار رسائل المحاكم ومؤسسات اللجوء، لكي يحصلوا على حقِّ اللجوء ويخرجوا من هنالك ويوزّعوا في أماكنهم الجديدة وتبدأ رحلتهم في هذا البلد الجديد، المعسكرُ كان بمثابةِ محطَّةٍ، وبالنسبة للبعض الآخر كان بمثابة مكانٍ ثابت قد أمضوا سنواتٍ طويلةً من حياتهم فيه، كانوا ينظرون إلى أنفسهم كلاجئين بلا حظوظٍ لأنّهم لم يحصلوا بعد على حقوق اللجوءِ كاملةً، والأقدمُ بينهم كان كرديٌّ يعرَفُ بين العرب والكرد هناك باسم مختار الذي عرفتهُ منذ اليوم الأوَّل لقدومي، كانَ شهمًا ويتعاملُ مع المرء وكأنّه على معرفةٍ به منذ سنواتٍ بعيدة، لذا بدأت زياراتنا تتكرر وتزداد منذ اليوم الأوّل لوصولي إلى المعسكر، كانت قد مضت عشر سنواتٍ على خروجه من «عامودا» ومكوثه في المعسكر، لم يكن غاضبًا

وحسب من المسؤولين عن محاكم اللاجئين، بل غاضب أكثر من مسؤولي المعسكر الذي كان يسمّيهم جميعًا بالألمان:

- خرجنا من سوريا هربًا من الجنود والنازيين، أتينا هنا، فوضعنا الألمانُ في بيوت الجنود النازييِّن.

كان مختار يقول إنّ المعسكر الذي وضعونا فيهِ كانَ في الحرب العالمية الثانية مقرًّا للجنود النازييِّن والآن تحوَّل إلى معسكرٍ للاجئين، لم أعرف، صحة معلوماتهِ، إلى أي درجة. لكن كان واضحًا من طريقة بناء المكان أن كلامه منطقيّ.

الخرزة 21: خرزةُ مختار

الحياة بالنسبة للاجئٍ تتوقَّفُ في انتظار ورقةٍ، تلك الورقة تفصح عن قَدره، هكذا ساقَني قدري إلى عاملٍ معروفٍ بـ «126»، كانوا يعرفونه كمحامٍ سوى أنَّهُ كانَ موظَّفًا لدى الحكومة في شؤون اللاجئين، يسألُ عشرات الأسئلة، ومن ثمّ يسجّلُ الأسئلةَ وأجوبة اللاجئ ويترجمها عبر ترجمانٍ محلَّف ويرسلها إلى المؤسسات ذات الصلة، كان اللاجئونَ يمكثون شهورًا وأحيانًا سنوات في انتظار الردّ. «126» كانَ رجلًا أشيبَ الشعر، ذا وجهٍ عابسٍ وعينين زرقاوين وكأنّه منزعجٌ من أمرٍ ما، لكن حين كان يتكلّم تبدو عليه الثقةُ والصغرُ في السنّ، حين سألني عن أسبابِ مغادرتي لسوريا جاوبته، لكن تفسيراته التي أتت عقِب إجاباتي أذهلتني، قال إنَّه يعرف سوريا جيّدًا وإنّ ما أقوله حول الديكتاتور ذي العينين الحمراوين ووجود المخابرات كلامٌ عارٍ عن الصحَّة! وقال إنّه كانَ موظّفًا تابعًا لألمانيا الشرقيَّة وبقي لسنواتٍ في سوريا لذا فهو يعرفُ جيّدًا نظام سوريا الاجتماعيّ، لم أعد أعرف إن كانَ عليَّ أن أبتسمَ لقدري العجيبِ هذا أو أن أبكي، هذا القدرُ الذي رماني من بين كل الموفين في شؤون اللاجئين بين يدي هذا الرجلِ الغريب، قالَ إنّه يعرف أوضاع الكرد والعرب أيضًا، وبإمكان كلِّ شخصٍ أن يعيش بأمانٍ إن أراد ذلك في تلك البلاد ودون أي تعذيبٍ أو ضرب، حين خرجتُ من عنده انقطعت أوتارُ روحي، تسلّل حزنٌ ثقيلٌ إلى داخلي، حزنٌ يشبه الذي كانت

تسبّبهُ معتقلات البلد الذي أتيت منه. بعد ذلك التحقيق الذي أحزنني، قال لي الجميع بأنّ الرد سيكونُ سلبيًّا وفعلًا هذا ما حصل، وبالطبع هذه كانت أحاديث اللاجئين، من ذا الذي استلم الجواب وما كان الجواب وهكذا، كان واضحًا أنَّ مختار يحزنُ عليَّ أكثر من أيِّ أحدٍ، واساني بالقول:

- لا تحزن يا ابن مدينتي، لا تهتمّ سيأتي يومٌ تُفتَحُ فيه أبوابُ الفرج، لا تقلق كثيرًا...

تعرّف مختار إليّ باسم (فيصل العاموديّ)، لم أعرف أنّه سيعرفني ويعرف كلَّ عائلتي، وحين سألني عن أبي وزوجته، فهمتُ أنّه على علمٍ بالكثير من التفاصيل. على الرغم من مضيّ سنواتٍ طويلة على مجيئه لألمانيا، لكن ثمّة قصصٌ عجيبةٌ كانت تُروى عن (فيصل العاموديّ) ومن تلك القصص، حكايتهُ مع مطّلقته، يقالُ إنّه لكي يحصل على حقّ اللجوء لطفليه قال للمحكمة إنّه قد طلَّق والدتهم وبذلك يحصل الطفلان على اللجوء مع أمّهم، بين الجدّ والمزاح قال فيصل:

- الحقيقة زوجتي كانت قبيحةً، وبهذه الذريعة سنحت لي فرصةٌ التخلّص منها، ولم أضيِّع الفرصة.

بعد الأسئلة التي تراكمت في رأسي، حاول أن يُفهِّمني:

- انظر أخي، لن تفهم ما أقوله إلى أن تتزوَّج.

لأنَّ مختار كانَ الأقدم هناك، لذا كان الجميعُ يلتجئون إليه لكي

يساعدهم في أن يكون ترجمانًا لهم عند المسؤولين في المعسكر، في بعض الأحيان وحين عودته من الترجمة يأتي إليّ ساخرًا من الذي ترجم له:

- يعتقدُ هؤلاء أنّني ضليعٌ في الألمانيَّة، هؤلاء الذين لا يتقنونَها مطلقًا يتعجّبون من لغتي، لا يعرفون أنّني أخطئ في جملة واحدة ثلاثَ مرَّات، لكن مهما يكُن فإنني أساعدهم وأساعدُ نفسي، أفضلُ من لا شيء.

كان يتعامل مع الجميع ومن أي بلدٍ كانوا بنفس السويةِ من الابتسامة وينخرطُ في كلامٍ فوضويّ، يتحدَّثُ بلهجةٍ مزيج من الكرديَّة والعربيَّة والألمانيَّة، بأسلوبِ لغةٍ خاصَّةٍ أتقنها اللاجئون ويفهمها الجميع، كان مختار يُدخِلُ إلى لغته الألمانية مفرداتٍ عربيَّة وأخرى كرديَّة، وكانت النساءُ من الفيتنام وروسيا وإفريقيا وألمانيا يقبلن إليه أيضًا، ومؤخَّرًا كانت علاقته القويَّة مع «بِتنا» الألمانيَّة تحظى بانتباه الجميع، وكان يتحدّثُ للجميع عن نيَّته في الزواجِ منها، لكي يتمكَّن بعد ثلاثِ سنواتٍ من الحصول على جنسيّتها ويترك المعسكرَ إلى الأبد، كانت «بِتنا» الأربعينيَّة من برلين تعيش وحدها، وأحيانًا حين كان يختفي يعلمُ الجميعُ حينئذٍ أنَّهُ في ضيافتها، وكلّما عادَ يمسكُ بظهره:

- أمرٌ جيّد أنّ هناك شيئًا اسمه (فياجرا)، وإلَّا ما كنتُ أقوى على الاستمرار ليومين متتاليَين أمام «بِتنا» الشبِقة، لقد كسرت

ظهري، أو لعلّني كبرتُ في العمر، أو ربمّا هي من لا تشبع، لا أعرف حقيقةً.

هكذا كان يودُّ أن يتحدَّثَ النَّاسُ عنه وعن نسائه، بفخرٍ يتحدّث عن مغامراته المختلفة مع النساء المختلفات، لم يكن لينتهي الحديثُ عن أولئك الناس الذين أمضوا سنواتٍ عدة في هذا المعسكر، كان يتحدّث عنهم بألمٍ وحزن:

- لا تنظر هكذا إلى هؤلاء الأشخاص الذين يأتون ويلتمّون حولي بضعة أشهرٍ ويطيبون خاطري بكلماتٍ ومن ثمّ حينَ تسيرُ أمورهم ويغادرون المعسكرَ لا يردّون التحيَّة على أحدٍ حتَّى، الجميعُ يودُّ منفعته، في هذه الأماكن تزدادُ أنانيَّة الأشخاص الذين هجروا بلدانهم، وكأنّها القيامةُ قد قامت وكل واحدٍ منهم يبحثُ عن غايته ويقول اللهم نفسي.

حين كان يتحدّثُ عن ذكرياته، يتنهَّدُ عميقًا، يفتحُ النافذةَ ويسحبُ بكلِّ قوّته نَفَسًا من سيجارته، يشدّ الدخانَ إلى داخله ليختفي بين فوضى ذكرياته:

- ما الذي سأقوله لك يا آزادو، لقد خانني الحظّ وحسب، هذه هي المسألةُ كلُّها.

بهذه العبارةِ كان ينهي حديثهُ، وعلى النقيض، كلّما عادَ إلى وضع المعسكر:

- أتعلَم أنّ كل مخادعٍ مكّار في بلده أتى إلى هنا ليجتمع مع من مثله، وكل واحدٍ منهم جلب خداعه معه، فَلتَقِس الأمر، بدءًا من بيع الحشيش والهيروين وصولاً إلى المصائب المتعلّقةِ بالنساء، ولا سيما من جانب من بقيَ تحت تأثير الظلم والحرب والقتل، التواصل مع هؤلاء اصعبُ من كلِّ شيء.

كان في جعبته العديدُ من الحكايا عن أولئك الأشخاص وودّ أن يخبرني إيَّاها، لا أعلم ربمّا كان يريدُ أن يرتاح من خلال الحديث عن مغامرات أولئك الأشخاص، أو لعلّهُ كان يودُّ تنبيهي، أحيانًا كان ينسى أنّ هناك من يصغي إليه، وأحيانًا أخرى يقطع حديثه في المنتصف محدِّقًا بي:

- تستطيعُ القول الآن إنَّك لستَ مثلهم؟ لكنني أؤكِّدُ لك أنّك وبعد شهرين من حصولك على حق الإقامة ومغادرتك هذا المكان، سوف تنسى المعسكر وكل شيءٍ مرتبطٍ بي.

وحينَ كنتُ أودّ أن أنبّهه لخطأ شكِّه، يهزّ برأسه:

- سنرى، لن نموت معًا...

كان يغيب مع دخان سيجارته، وكلّما أنهى حديثًا، يوجّه حديثه نحو السيجارة:

- أتعرف آزادو، لقد غيَّرتُ نساءً بقَدرِ شعر رأسي، لكن دائمًا كانت ثمّة امرأتان لي: زوجتي وسيجارتي، يمكن العيشُ بلا

امرأة، لكن لا يمكنكَ العيش دون السيجارة.

بمساعدة مختار تمكّنتُ من الاستقرار في المعسكر، كنت منشغلًا بعينٍ لأفهم وضع المكان الجديد، فيما العينُ الأخرى على صندوق البريد في انتظار رد المؤسسةِ ذات الصلة بشؤون اللاجئين، وفي تلك الأثناء كان يخوضُ في تفاصيل أحداث هذا المعسكر وأحداثها المختلفة، أحيانًا كان يجلبُ الجعةَ ويناديني، لأنّ غرفته كان بها تلفاز وريسيفر ولم يكن ينقصها شيء، لذا كان يدعوني:

- تعال إليّ تعال، غرفتك عارية، لا أستطيعُ الجلوس بها والشرب.

عبر سهراتي الكثيرة معه عرفت من ذا الذي عرفه، لأنّني سمعت من الكثيرين أنَّه مطلوبٌ لعدّة قضايا في المحكمة، وكان يتحدَّث عن تلك القضايا بفخرٍ، كان من بينها: في بداية كل شهرٍ كان موظّفو مؤسسة المساعدة المعروفة بين اللاجئين بالـ«سوسيال» يُقبلون، وكان كل لاجئٍ يقبض ورقة تشبه الشيك ويذهب للبنك لأجل صرفها بنقودٍ، ولأنَّ النقود قليلةٌ ولا تكفي للمصروف، لذا فإنَّ الجميع كان في انتظار بداية كلِّ شهر، وفي بداية كلّ شهرٍ أمام باب البنك كنّا نصادف رجلًا ألمانيًّا ثملًا، نقف في الطابور ننتظر أن نقبض النقود، يأتي الرجل الألماني المدعوّ ميشيل ليصرخ على الجميع، الآخرون لم يكونوا ليفهموا ماذا يقول، سوى أنّني كنتُ أفهم:

- اعملوا... اعملوا... لقد أتيتم إلى بلدنا وتأكلون وتشربون وتنامون، وفوق كل هذا تقبضونَ نقودًا أيضًا.

ميشيل الثمل لم يكن يصرخ فقط، بل كان يتشاجر مع الناس هناك، أرجعته خلفًا أكثر من مرَّة، قلت له بلطفٍ: إنّنا لا نملكُ حقَّ العمل، كان يردّ بأنَّنا إن أردنا العمل فسوف نعمل، سوى أنّنا لا نريدُ العمل، ويتهمنا نحنُ الغرباء بسرقة ونهب بلاده، سحبته إلى جدار البنك وقلت له: تعال إلى هنا أريدكَ في أمرٍ، وبدأتُ ألكمه وأركله وسط صراخه، ولأنّه كان ثملًا فقد سقط أرضًا من اللكمةِ الأولى، لم يفلح الناس في إخراجه من بين يديّ، طلبوا بعد ذلك الشرطة، وأنا أذهبُ إلى المحكمة منذ ذلك اليوم، مؤخرًا عرفتُ أنّ ميشيل نفسه روسيٌّ بلا عمل، في كل مرَّةٍ كان يأتي إليَّ ويقول:

- نحن الألمان نعمل وندفعُ الضرائب، بينما أنتم جالسونَ تنجبون الأطفال وتأخذون أموالنا.

وهو كان غريبًا ومثلنا بلا عملٍ ويقبضُ الـ«سوسيال».

مغامرات مختار لا تنتهي، تحدّث عن مجموعة من الشبَّان الذين يبيعونَ الحشيش والهيروين، وهكذا كانت حكاياتهُ كثيرةً ومختلطة دون أن تنتهي. حسب قوانين اللجوء، لا يمكن لأي أحدٍ أن يبتعد أكثر من ثلاثين كيلومترًا عن المكان الذي يستقرُّ فيه المرء، لكن على الرغم من ذلك كان أولئك الشبّان، الذين كان أحدهم عربيًّا والآخر كرديًّا فيما كان اثنان منهم رومانيين أو ربمَّا غجريَّين، كانوا يسافرون بين ألمانيا وهولندا، كل واحدٍ منهم

اعتقل أكثر من مرَّة وتمّ الإفراجُ عنه، حاول مختار قبل فترةٍ أن يمارس سطوته عليهم ليمنعهم من هذه الأعمال في معسكره دون أن ينجح في ذلك، لذا كانت الحالة متوترة بينه وبينهم، قبل فترةٍ وفي المدينة القريبة من المعسكر هاجم نازيّون الشاب الكرديّ، كانوا قد حاصروه في مكانٍ ما وضربوه ضربًا مبرحًا، استنجدَ الشابّ بـمختار الذي أسرع برفقة شابَّين آخرين واستقلّوا سيارته ومن ثمَ توجَّهوا نحو موقع الانتقام، في الهجوم على وكر «النازيين» ضربهم مختار وشبابه ضربًا موجِعًا ومن ثمَّ عادوا، وفي طريق العودة وكأنَّ مختار انتبه لنفسه، فقال لصديقيه:

- على الرغم من أنّنا لم نكن نحبّ بعضنا الآخر، وكنتُ أكرهُ عملكما، لكن إن استنجدَ بي عدوي فسوف أقدِّمُ لهُ العون.

لم ينتهِ الموضوع ها هنا، ولأنّ آثار الضرب كانت واضحةً على أجساد الشباب النازيين، ذهبوا وادّعوا في المحكمة على مختار وشبابه، كانت عيني وعينُ مختار لا تبرحُ تراقبُ صندوق البريد في انتظار الرسائل، كان هو في انتظار رسالة تحديد موعد المحكمة، فيما كنتُ أنتظرُ قرار تحديد وتوضيح قدر لجوئي، كان سؤالُ البقاء أو عدمه في هذا البلد الغريب، لم أعرف إن كان البلدُ غريبًا أم أنا، كنتُ أنتظر ماذا وما الذي صادفته؟ مشاهدُ تلك البلاد الجميلةِ والنظيفةِ والمتحضِّرة، الآمنةِ والمضيئة لم تفارق عيني كخيال حلمٍ جميل، باتَ كمرآةٍ في هزَّةٍ أرضيَّة تشقّقت مئات التشقَّقات وفي ثنايا تلك التشقَّقات تكوَّم الترابُ والغبار، ذبلَ المشهدُ تمامًا، تحوَّل إلى معسكرٍ مصفرٍّ باهت، حزين، مليءٍ

بالناس الهاربين المتشرِّدين، وهكذا كل شهرٍ في الانتظار كانَ يلتهم سنواتٍ عشرًا من عمر المرء، لم يكن ليعترف أحدٌ بانهيارِ أحلامه، كل لاجئٍ يعتقدُ أنَّ قدره سيختلفُ عن قدر اللاجئ الآخر، لكن مع مرور الزمن بدأت تلك الأحلام تضع أصابع قدميها في فمها وتلتهمها، كانت الحياةُ تمضي هكذا، وكلّما مرَّ يومٌ يسخرُ المرءُ من أحلامه، في تلك اللحظة، اللحظةُ التي يتخلَّى فيها المرءُ عن تحقيق أحلامه، ترى شروطَ تحقيقها متوفِّرةً.

كان الزمنُ في المعسكر كسلحفاةٍ ميِّتة، مختار كان يقول عن الألمانيين: إنّ أعمال هذه البلاد تسيرُ وفقَ الرسائل والأوراق، وها قد مضت الأيَّامُ، لا بل سنواتٌ دون أن تصلني أيّ رسالة.

من جهةٍ أخرى كان ثمَّة البعضُ في هذا المعسكر يأتون ولا يلبثون أكثر من ثلاثة أشهر حتَّى يحصلوا على حقِّ الإقامة ويغادروا المكان، ومن جهةٍ أخرى كان مختار الذي بات يشبهُ أسيرَ حربٍ، فليس بمقدوره أن يعود إلى البلد الذي أتى منه ولا استقرّ في البلد الجديد، كنتُ في خوفٍ أن يحصل معي ما حصل معه وأن تغلَقَ أبوابُ الهرب من هذا البلد أمامي، ولولا نصائحه كنت لن أنتظرَ الرسالةَ هاربًا إلى بلدٍ آخرَ، وفي خضمّ ذلك، كنتُ أبصرُ وجه مختار المُتعَب والمنكسر قبالتي، يأتي ليلًا وعلى الفور يركبُ أمواجَ ذكرياته، كان يقبِلُ مكسورًا وخاسرًا وحزينًا، يبدأ من «عامودا»، من «قامشلو» ومن المدن والأرياف المحيطةِ بها، كان يسمّيها واحدةً واحدة وكأنّي به أقبل يومَ أمسٍ من هناك، هكذا وبحرارةٍ يتحدّث عن الأشخاص هناك، وحينَ كنتُ أمتدح

ذاكرته يردُّ عليَّ ضاحكًا:

- لا لا الوقت باكرٌ على الخَرف والنسيان...

أحيانًا كان ينقلب على ظهرهِ ضحكًا، وأحيانًا أخرى ولا سيما حين يثمل، يبقى حزينًا، يغضب، أو يبكي بصوتٍ عالٍ، مختار ظاهرًا كان يبدو شديدَ البأسِ، قويًّا، زيرَ نساء، ولكنّه داخليًّا كانَ مكتئبًا وحيدًا، مكسورًا وحائرًا، كانت تدبّ فيه الروح وحسب حين يسردُ مغامراته مع النساء، كان ينتعش وتلمع عيناه، بطريقةٍ ما كنت قد تأثرت به ولم أكن أتخيَّلُ حياتي من دونه، حين وصلت الرسالةُ من المحكمة واقترب يوم خروجي من ذلك المعسكر، أقبلَ يهنّئني بمشاعرَ مختلطة:

- أتعرف، أشعرُ وكأنَّ هذا المعسكر ماخورٌ وأنا عاهرةٌ فيه، هذه حالتي.

قال هذا وأدار ظهره لي وذهب ليشرب، فهمتُ أنَّه يقصدُ بذهاب وإياب اللاجئين وبقائه في المعسكر، لم أعرف ماذا أقول، فرحتُ لأنَّ أبواب الحياة في هذا البلد فُتِحَت أمامي، سوى أنّني حزنتُ أيضًا لترك مختار الذي أمضى عشر سنواتٍ من عمره في هذا المكان، أتى الوقتُ الذي لا بدَّ أن أخرج فيه من المعسكر، وأن أستأجر لي منزلًا وأبدأ بتعلّم لغة هذه البلاد، ومع ذهابي إلى دورة تعليم اللغة فُتِحَت جروحي القديمةُ مرَّةً أخرى.

الخرزة 22 : خرزة السنواتِ السبع

مع بداية العام الدراسي الجديد، كان بعض الطلاب يفرحون فيما يحزنُ البعضُ الآخر، في كلِّ صفٍّ ثمَّة أكثر من ثلاثين طالبًا، اقتعدوا المقاعد المتتالية حسب طول القامة أو قِصَرِهَا، قصيرو القامة والمجتهدون كانوا فرحين لأنّهم يجلسونَ في المقاعد الأماميَّة بالقرب من المعلِّم وكانوا على أتمِّ الاستعداد للخروج إلى السبورة أو الإجابة عن أي سؤالٍ، وعلى النقيض منهم كان طويلو القامة يجلسون في المقاعد الخلفيَّة ويكرهونَ الخروج إلى اللوحة أو أن يسألهم المعلِّمُ شيئًا ما، كانَ مصدر فرحٍ لهم أن يخرج الأطفال حسب ترتيب المقاعد إلى السبورة لأنّ دورهم كانَ يتأخَّر وكانت محاولاتهم الحثيثة مستمرَّة في أن يتأخَّروا عن كلِّ شيء، وهكذا كان يبدو طوال القامة كسولين فيما قِصارُها مجدّون، لكن دائمًا ولأنّ ثلاثة أو أربعة من الطلاب ذوي القامات الطويلةِ كانوا على علاقةٍ وثيقةٍ مع مدير المدرسة لذا فإنَّ الطلبة ذوي القامات القصيرة كانوا في قلقٍ من أمرهم ولا سيَّما عريفُ الصفّ الذي كانَ يدوِّنُ أسماء من يخالفُ قوانين المدرسة ويعطيها إلى المدير العام للمدرسة، أو كان هناك أحيانًا ثلاثة أو أربعة من الطلّاب بمثابة آذانٍ لإدارة المدرسة العامَّة، وأكثر الطَّلبة الذين كانوا يعاقَبون ويتعرَّضونَ للضرب هم طلّاب السنة الأولى الذين لا يتقنونَ اللغةَ العربيَّة، التكلُّم باللغة الكرديَّة كان

أمرًا ضد قوانين وأنظمة المدرسة وعن طريق أولئك الأشخاص كانت أسماء من يتكلَّمُ باللغة الكرديَّة تصل إلى الإدارة العامَّة للمدرسة، وأنا لم أكن أعلمُ بشؤون لغة المعلّمين والمُديرين، ولأجل ذلك اضطررتُ أن أمدّ كفّ يدي ظاهرًا وباطنًا إلى العصا التي بيد المعلِّم الذي لم يكن يصغي إلى وجعي وآهاتي، الضرباتُ الغدّارة من العصا كانت تتهاوى فوق رؤوسنا، كنّا نودُّ أن نكبر بسرعةٍ مثل الأطفال في الصفّين الخامس والسادس وأن نتقنَ لغة المُديرين والمعلمين وننجو من الضرب على إثر حديثنا بلغةٍ ينفرُ منها المعلّمون والمُديرين، لا أتذكَّرُ كيف أنّني كبرتُ هكذا وتعلَّمتُ لغة المعلّمين وبدأتُ الترجمة عن تلك اللغة.

تمكَّنتُ من تعلِّم لغتهم، لكنّني لم أتمكّن من نسيان مرارة ضربات عصيّهم.

الخرزة 23: خرزةُ نكهةِ الحب تحت اللسان

في معهد تعلم اللغةِ، لم يكن الوضع مختلفًا عن وضع المعسكر، مرَّةً أخرى اجتمع أشخاص من أممٍ مختلفة، لغاتٍ مختلفة، بلادٍ مختلفة، ثمَّةَ هدفٌ واحدٌ جمَّعهم، وهو تعلُّم اللغة، وكلٌّ واحدٍ منهم كان قد جلب معه غضبه وفرحه، مشاكلَ ومصائب بلده وأهلها، كان القدر قد رماهم إلى هذا المكان، في الدرس الأوَّل حصلت مشاجرة، فلأجل التعارف كان كل واحدٍ منّا يذكر اسمه واسم بلاده التي أتى منها بغية أن يتعرَّف إليه الآخرُ، ولأنّ كرديًّا يدعى محمد قال إنّه من (كردستان) قامت قيامة رجلين تركيَّين وعلا ضجيجهما، بدأ الأمر بين الثلاثة بهمسٍ تركيّ وفجأةً تحوَّل الهمسُ إلى صوتٍ عالٍ، ولأنَّ الضجيج كان باللغة التركيَّة لذا لم أفهم أنا ولا من هم حولي شيئًا من الأمر، فقط كانت ثمّة مفرداتٌ مفهومة في سياق الحديث مثل: ديار بكر، كردستان وتركيا، كان يبدو واضحًا أن محمد من ديار بكر فيما كان التركيَّان يرفضان أن تُعرَف ديار بكر باسمِ كردستان، أستاذ اللغة كان قد فهم قبلنا، لذا توضَّحت أسبابُ المشاجرة، قال: ليست هذه المرَّة الأولى التي تحصل فيها مشاجراتٌ كهذه، وليس فقط بين الكرد والأتراك، بل بين الفلسطينيّن والإسرائيليّن، بين الباسكيّن والإسبان، هذا الأمر طبيعيٌّ إلى حدٍّ ما، ولكن لا يجب أن تنسوا أنّكم هنا في ألمانيا وليس في تركيا أو إسرائيل أو مكانٍ آخرَ، من يسمّي بلده بأي اسم، ماذا يفكِّر أحدكم تجاه وضع بلده السياسيّ، هذا حقٌّ

طبيعي ولا يجوزُ أبدًا أن يُمنع هذا الحقُّ عن أي شخصٍ، توجّه الأستاذ إلى محمد:

- بالنسبة إليك ديار بكر هي كردستان، فليكن لك ذلك...

التفتَ إلى التركييَّن:

- ولأجلكم، ديار بكر هي تركيا...

كان واضحًا أن الأستاذ يريدُ أن ينهي هذه المشكلة ويشدّ انتباهنا إلى درس اللغة، رمَت الحادثة بظلالها على الأشهر الثلاثةِ الأولى من مرحلة تعلُّم اللغة، فأثناء الدرس يجلسُ الجميع إلى جانب بعضهم، فيما كان من يتقنُ لغةً ما يجلس إلى جانب من يعرفها أيضًا أثنا فترة الاستراحة، مضت الأشهر الثلاثةُ الأولى على هذا النحو، ومع بدء المرحلة الثانية من تعلّم اللغة أتت مدرِّسةٌ جديدة تدعى ساندرا، كانت لطيفةً وشابَّة وبدأت للتوِّ بعملها في التدريس، كنت أشكُّ بأنني أكبر منها في العمر بسنواتٍ كثيرة، لكن عرفت مؤخَّرًا أنّها تصغرني فقط ببضعة أشهر، في البداية تأثَّرتُ بصوتها كثيرًا، لا أعرفُ لِمَ كان صوتها يجعلني حزينًا وصامتًا، في الدرسُ كنتُ أستمعُ إلى صوتها مثلَ جريحٍ يودُّ أن يستمع إلى صوت ممرِّضٍ يريدُ أن يداويه، ثمَّة شيءٌ ناعمٌ وعميقٌ وله تأثيره في صوتها، صوتٌ يذكّرني بصوت بيريفان البعيدة والمنسيَّة، شرحها للغة كان يشبهُ ماءً عذبًا يتسلّلُ إلى داخلي المشتعل، لم تُطفأ النيرانُ ولا المياهُ جُفَّت.

كانت تلكَ اللغةُ الألمانيَّة الثقيلة والصعبة تتحوَّلُ بلسانها إلى لغةٍ سهلة، ومثل أمٍّ رؤومة كانت تُشغلُ رأسها بتعليمنا نحن الطلبة الاثني عشر، ومن بينهم رجالٌ في سنِّ والدها، ولأجلنا جميعًا حين كان يستعصي علينا فهمُ أمرٍ ما تعيدُ مرَّةً واثنتين وثلاثًا، وأحيانًا كان يغلبها غضبها، كانت تضيّق عينيها الجميلتين، تحمّر وجنتيها وتبذل ما بوسعها لإخفاءِ غضبها، كنتُ أعرف متى يحصلُ لها ذلك، بالضبط حين كانت تسهب في الشرحِ من دون أن ينتبه لها أحدٌ أو أن يمزحَ بلغته، أو أن يردَّ عليها بلغتِهِ الأمّ التي لا تتقنها هيَ، رويدًا رويدًا تعرّفت ساندرا إلى طلّابها، لذا كانت جديَّةً مع الجديِّين فيما كانت تتجاهلُ من لا يودُّ أن يتعلَّم، بالنسبة إليّ كانت دروسها تتحوَّل أحيانًا إلى جلسة تعذيبٍ وأحيانًا أخرى إلى نسيمِ حبٍّ بلا اسم.

يغزو اليباسُ أحشاء المرء حين يغادرُ بلده وينقطع عن مكان طفولته، ينتفي الاخضرارُ في قلبه الذي يغدو صحراءَ قاحلةً مغبرَّة.

رؤيتي لـساندرا فجأةً، وتسلُّلُ صوتها نحو بريَّة روحي جلبَ معه ربيعًا ملوَّنًا وبدأت مرحلةُ خسارتها، كنت أتصبَّبُ عرقًا وتنتابني أحاسيس خجولةٌ حين أفكّر في ساندرا كامرأةٍ تعشَقُني، أنا فقير الله، الغريب مكسور الأجنحة. ساندرا في منزلها، في بلدها، تتحدَّثُ بلغتها وتعيشُ بين أهلها، وأنا الغريبُ الذي بلا وطنٍ وصاحبُ اللغةِ المحظورَة، الذي يعيشُ بعيدًا عن أهلِهِ وناسه، عالمان مختلفان، على النقيض من بعضهما، كيف

يمكن لهما أن يتقرَّبا ويعيشا معًا، هذه المشكلةُ كانت تلوحُ لي أحيانًا مثل مزحةٍ، وأحيانًا أُخرى مثل تراجيديا، عدا عن ذلك، فـساندرا كانت تعشقُ عملها في التدريس وكانت على مسافةٍ بعيدةٍ ومحدودة مع طلَّابِهَا.

على الرغم من أنّ حبَّها كان قد غطَّى كفستانٍ ملوَّنٍ وواسع، سوى أنّها لم تكن ترى شيئًا، أو لعلَّها كانت تفكِّرُ بهذه الطريقة، أنّني شابٌّ قادمٌ من بلادٍ تُحرم فيها العلاقاتُ مع النساء لذا فهو يفتحُ فاهه كلّما رآني، أو ربمّا كانت تظنُّ أنّني لم أرَ في حياتي امرأةً، إنَّها مُحِقَّةٌ في ذلك، فأنا لم أرَ في حياتي امرأةً تقبضُ على روحي بكلتا يديها وتجعلني أسيرَها. يبدو أنَّ بيريفان سطت على سماءِ روحي في هذه البلادِ البعيدة كغيومٍ مُثقلةٍ، روحُ أمّي المسكينة التي لم تلقَ منِّي خيرًا، والآن بركان ساندرا يتفجَّرُ في داخلي، ثلاثُ نساءٍ من لهيبِ النَّار، من الضباب، من الأشباحِ ومن ألمٍ معسولٍ حاصروا حياتي، ومن بينهن كانت ساندرا وحسب أمام عينيّ، كإصبعٍ من أصابع اليدِ قريبةً ومثل غيمةٍ مُسرعَةٍ نحو البعيد.

عوضَ أن أستمع خلال الدرس وأصغي مدوِّنًا الكلمات الجديدة، كنتُ أستمع إلى صوت قلبي، وأخطُّ جمال قامة مدرّستي، ضحكة عينيها وحركتها، وحين أقبل اليوم الأخير من الأشهر الستَّة كنتُ سأبكي، وددتُ أن أبكي بصوتٍ عالٍ مثل طفلٍ سُرِقَت منه دميته، لكن ليس بمقدوري أن أؤخّر هذا اليوم أن أبكي علانيةً، أعطيتها خمسة بورتريهاتٍ رسمتها لها مؤخَّرًا، تناولت ساندرا هديتي

بفرحٍ:

- لم أكن أعرف أنّني معلِّمةٌ لرسَّامٍ جيّدٍ مثلك.

حين أخبرتها أنّ علاقتي بالفنّ التشكيلي قديمة، تورَّد خدَّاها:

- أمرٌ جميلٌ أن يكون المرءُ معلَّمًا لفنَّان.

عوضَ الوداع ناولتني ساندرا بطاقةً صغيرة:

- يوجد في هذه البطاقة عنواني وأرقام هواتفي، أريد أن أقولَ لك شيئًا: أبي أيضًا يرسم، تعالَ إلينا في المنزل لكي تتفرّج على بعضٍ من لوحاته.

لم أكن أقوى على حمل جسدي من الغبطة:

- سوف آتي بلا شكّ، ولكن ألا يزال والدكِ يرسم، أم أنّه تركَ الأمر؟

ردّت مبتسمةً:

- لا، أبي نصفُ ميِّتٍ منذ زمنٍ طويل، لكنني أحتفظُ برسوماته ولوحاته.

- كيف نصفُ ميِّت؟

- حكايةٌ طويلة، إنّه معتلٌّ بمرضٍ لا يساعده عمره على الشفاء.

وعدتها بالمجيء، لم تعرف أنّ أباها النصفَ الميّت أنقذني من موتٍ محتَّم، ربمّا لولا لوحاته كنُت لن أراها مرَّةً أخرى على الإطلاق.

الخرزة 24: خرزةُ ساندرا

جانبٌ، رجل منكسرٌ وحزين يعيشُ مع روحه الميَّتة، عاشقُ البكاء وصاحب القلب الرقيق الذي يشبه دبًّا مضرَّجًا بثلجٍ وحدَته، أشيب الشعرِ وكهل. الجانب الآخر: امرأةٌ يافعةٌ مبتسمة، تعيش فَرِحَةً مع والدتها، حين تضحكُ تتناثرُ خلفها عشراتُ أزهار الضحك، وجنتاها تشبهان جانبي قمرٍ في الليلةِ الرابعةِ عشرة بإمكانه أن يضيء عتمة سماء مئة رجلٍ منهزمٍ مثلي، صاحبة قلبٍ مفتوحٍ للجميع، مصادفةٌ عمياء أمام أبصار القدر الذي جمع جانبين متناقضين، من جهةٍ كان اجتماعُ الطرفين صعبًا، فالخيبةُ أصبحت مثل عجوز تمدُّ لسانها وأرى أسنانها تتساقطُ واحدةً تلوَ الأخرى، ومن جهةٍ أخرى كانَ الفرحُ قد نصَبَ خيمته محضِرًا إلى الأذهان المشاهد العتيقة للرجال والنساء، المرأةُ من تملأُ الجانب الناقص للرجل، فيما الرجلُ هو الجانب الآخر للمرأة، فالرجلُ يبحثُ عمَّا ينقصه لدى المرأة، والمرأةُ لدى الرجل، إن كان ذلك فعلًا، أنا أتمّم ساندرا وهي تكمّلني، حين مرَّت هذه الأفكار في رأسي شعرتُ بأنني رجلٌ من قسمين، أو ربمّا رجلان، نصفٌ أنا والنصفُ الآخر هو ساندرا ويجب أن يجتمعَ النصفان بعضهما مع بعض، كان معي رقم الهاتف، تذكَّرتُ أنّني لا أعرفُ حتَّى الآن شيئًا عنها، كنتُ فقط مشغولًا بنفسي وأفكاري، لكن قلبها بمن مشغول؟ تُرى ما هي أحلامها؟ هزّني هذا السؤالُ من أعماقي واعتراني خوفٌ لم

أفهمه، فحتّى تلك اللحظة لم أفكّر بهذه النقطة، ولكي لا أفلِت لجام أفكاري توجّهتُ نحو الهاتف وبدأ قلبي يخفق، لا أعلم لِمَ تحوَّل الهاتفُ بين يدي في تلك اللحظة إلى قنبلةٍ بيد عسكريٍّ غير ممرَّن وخفتُ من أن ينفجر بين يديّ، كانت هذه المرَّة الأولى التي سوف أرى فيها ساندرا كامرأةٍ أو ابنة رسَّام وليس كمدرِّسة لغة.

الخرزة 25: خرزة المرآةِ المتصدِّعة

لم أعلم أنّ ساندرا احتلَّت حياتي كاملةً، فرؤيتها اليوميَّة على مدار ستة أشهرٍ خلق عندي إحساس أنّه يمكن للمرء رؤيتها وقتما شاء يحيّيها ويتكلَّمُ إليها ويسألها عن المفردات الصعبة، لكن مع انتهاء التدريس انتهت أحاسيسي تلك، بدت رؤيتها مرَّةً أخرى صعبةً للغاية، وأدركت أنَّني واقعٌ تحت تأثيرها وأنَّ رؤيتها بالنسبةِ إليّ أمرٌ لزامٌ أكثر من لزومِ ماءٍ بالنسبةِ إلى تائهٍ في الصحراء، كانت أذناي تشتاقان إلى صوتها، عيناي إلى رؤيتها، وروحي إلى حركة أصابعها حين تلمع أثناء الكتابة، لم أعد أعرف إن كانَ عليَّ أن أبكي بحالتي أو أضحكَ، أنا الغريبُ القادم من نهاية العالَم، واحدٌ من مئات الأشخاص أصحاب الشعورِ السوداء الجالسين أمام مدرّسة اللغة على كراسي التعلُّم، وباتَ عاشقًا لمعلّمته، تلك التي أعادتني سنواتٍ ماضية إلى «عامودا»، في الصف الخامس كانت معلّمتي تدعى سحر. سحر التي كانت قد سحرت كل تلاميذ مدرسة الغزالي في «عامودا»، وأكثر من الجميع خضرو ابن لطيفِ البقَّال، ليس فقط التلاميذُ الصغار، بل حتَّى معلّمو المدرسة عشقوا سحر القادمة من اللاذقيَّة جالبةً معها اخضرار وانتعاش بلدها بالإضافة إلى خصوصيَّة اللهجة المحكيَّة في مدينتها التي كانت تخرج من فمها مثل ماء عذبٍ يتسلَّلُ إلى تشققات الروح.

حبّي للغة العربيَّة بدء مع مجيء الآنسة سحر، كنَّا أنا وخضرو الشاهدين الأوَّلين لمعلمٍ أتى إلى الصف وتحدَّث عن حبِّه للآنسة سحر، وعدها أن يطلِّق زوجته أمَّ طفلين ويتزوجها إن هي قَبلت بالأمر، وكذلك خادم المدرسة الذي كان يسمَّى بالـ«آذِن» والذي سمَّاهُ أطفالُ المدرسة بـ «بروس لي» لأنّه كان قد صفّفَ شعره مثلما يصفّفه بطل أفلام الكاراتيه المعروف «بروس لي»، كان يقسم لسحر إنَّه هائمٌ في عشقها وإن رفضت هذا الحب فإنَّه سيقتل نفسه وستكون هيَ السبب، كل هذا الأمر كان يجري أمام أبصار خضرو العاشق الأسطوريّ ذي الاثني عشر عامًا، الذي كان يختنق في المدرسة بين أمواج الحيرة والغضب، كان خضرو يعِد إن قبلت به سحر فإنَّه سوف يقتلُ «بروس لي» ويرمي بجثَّته أمام باب بيت زوجته، ولأنّه صديقي المقرَّب كان خارج المدرسة يفتح قلبه لي، وحين الكلمات لم تعد تكفيه للحديث، كان صراخ حيرته هذه الجمل:

- من بين هؤلاء الرجال المستعدين لترك زوجاتهم لأجلها، الشبَّان ذوي العيون الجائعة التي يأكلون بها جسدها من رأسها وحتَّى أخمص قدميها، من بين هؤلاء الأطفال جميعهم بمن فيهم أنت والذين عشقوها، كيف سوف أتحدَّث لمعلّمتي عن الحب، ها قل لي يا آزادو؟

يفكّر قليلًا ومن ثم يقول كلمتهُ الأخيرة:

- تُرى هل ستسخر من حالتي أو ستبكي؟

بعد هذه السنوات، ها أنا أيضًا أسأل السؤال ذاته لمعلمتي ساندرا، كما سأل خضرو، حين قارنت بين حالتي وحالته ارتاحَ قلبي قليلًا، على الأقلّ أنا ومعلِّمتي في العمر نفسه، هذا الأمر دفعني إلى أن أتوجَّه نحو الهاتف:

- هلّو، أنا آزاد...

- أتكلَّمُ من خارج المنزل.

كانت ساندرا تتقنُ الحديث مع من هم مثلي، كانت تعرف ما الذي أفهمه وما الذي لا أفهمه، كان الحديثُ معها فقط أمرًا جميلًا.

استقبلت هاتفي بحفاوةٍ، وبسهولةٍ أوضحت لي مكان اللقاء، بعد ساعتين في مقهى قريبٍ من المكان الذي أنا فيه، التقينا وبدأتُ أضع ساندرا الخاصة بي، وليست المعلِّمة، أمام المرايا، لقد كانت امرأةً حقيقيَّة، لكن لا يبدو عليها أنَّها كانت يومًا من الأيَّام معلِّمتي في اللغة، وبدا أنَّها لا تحبّ هذا العمل، وأنّها تعمله مع دراستها ولا نيَّة لديها لكي تستمرّ في المسير بهذه المهنة، تحدّثت بحرارةٍ عن دنوّ انتهائها من دراستها في الاستشارة الاجتماعيَّة، كانت امتحانات نهاية العام قد اقتربت وكانت في انشغالٍ دائم بدراستها، تواصلها الليِّن وبلا أيِّ مشكلة كان يفتح الطريق أما دنوّي منها، لكنني لم يكن بمقدوري العثور على ذلك الخيط الذي سيربطها بي ويظهر وضعٌ خاصٌّ بيني وبينها، الإمساكُ برأس ذلك الخيط كان صعبًا للغاية، بعد اللقاء الأوَّل بدأت العلاقة تتّسع، لم يحصل وأن سألتني عن حالي بشكلٍ موسَّع،

لكن نظرتها السلبيَّة تجاه الرجال لفتت نظري، الرجل بالنسبة إليها نموذجُ انعدام الوفاء والإخلاص، وحين سؤالي عن وجود أو عدم وجود عائلتها ضحكت، لكن هذه الضحكة شوّشتني:

- اعثر لي في العالم على رجلٍ مخلص وسوف أتزوّجهُ في الغد.

لم أفهم جوابها جيدًا، لذا أردت توضيحًا أكثرَ:

- بخصوص أن أتزوّج الرجل المخلص، فأنا لا أمزح، لكنني أقول هذا الشيء حقيقةً، فالرجل في الزواج إمّا يخونُ زوجته أو تكون أنظارهُ موجَّهةً إلى غيرها، أو ربمّا لعدم وجود فرص فإنُّه مجبرٌ على الوفاء، ألا تعتقدُ أنَّ هذه المسائل مختلطة، لِم توجِع رأسك بها يا آزاد؟

- لا، إنّها بالنسبة إليَّ أمورٌ ضروريَّة.

كانت تتحدّث بسهولةٍ مبرهنةً حديثها بالتجارب، وكانت واثقةً من أنّ المسلّمات التي تؤمِن بها تشاركها مع المرء الذي يقابلها، دون أن تنتظر جوابي أو اعتراضي، وحتّى تلك اللحظة وعلى الرغم من أسئلتي الدائمة عن حياتها الخاصَّة، لكنها لم تكن تعرف أن القنَّاص في قلبي قد نصب فِخاخًا كثيرة أمامها لكي يحصل عليها.

الخرزة 26: خرزة دنوّ الجان من الحديد

في طفولتنا كانوا يقولون لنا دائمًا إن الجان تخاف من الحديد، لذا فإن الطفل الذي كان يستيقظُ ليلًا من نومه مذعورًا كانوا يعلّقون بثيابه إبرةً كانت تسمّى (إبرة اللحاف)، كنتُ أتذكَّر كلام أبي كحلمٍ:

- إلى أن كبرتَ والتحقت بالمدرسة كانت إبرتكَ معلَّقةً بثيابك.

الآن، وبعد مرور سنواتٍ طويلةٍ، تسلّل خوفٌ من جنٍ أو من امرأةٍ تدعى ساندرا إلى قلبي، هذه المرّة لن تستطيع كلُّ إبر العالم أن تساعدني، لا بدّ أن أعترف أن الضربة كانت قاضيةً وأنَّ الهربَ من حقيقة هذا الحبّ الذي شوَّش ذهني بات أمرًا مستحيلًا، لأجل ذلك، لقاؤنا ذلك اليوم مرّ بشكلٍ غريب، كنّا قد جلسنا للتو على الكراسي أمام طاولةٍ قبالة بعضنا، اعترتني أحاسيسُ مختلطة، نسيتُ كلَّ شيءٍ وانشغلتُ بها، وكأنّ بيننا قصة حبٍ طويلة وهي آتيةٌ للقاءٍ غرامي، لا شيء من هذا القبيل بانَ لديها، كانت ساندرا مشغولةً بدراستها في الاستشارة الاجتماعية التي دنت من نهايتها، قالت:

- خلال شهرٍ واحد سوف يتضح قدرَ عملي أيضًا.

كنتُ قد ربطت قدري بها، فيما هي ربطت قدرها بالانتهاء من دراستها والعثور على عملٍ، حين سألتها عن عملها في تدريس

اللغة ردّت فورًا:

- لا، إنّه عملٌ أثناء الدراسة وحسب، أحيانًا لكي أحصل على بعض النقود أمارس تدريس اللغة.

بهذا الشكل بدأ الكلامُ يجرُّ الكلام وينحى الحديث نحو موضوعٍ آخر، فهمتُ أنّها عقدت آمالًا كثيرة على نجاحها في الامتحانات التي ستتضح نتائجها بعد شهرٍ، وعدتني إن كانت النتائج مُرضيةً لها فإنّها ستدعوني لمنزلها وتعدّ طعامًا شهيًّا على الرغم من أنَّها لم تكن تحبّ إعداد الأطعمة، لأنّ هدفها هو الحصولُ على عملٍ لذا فإن العمل لا يمكن الحصولُ عليه من دون دراسةٍ، وحين أتى الحديثُ إلى العلاقةِ بين الرجلِ والمرأة، سردت على الفور نظرتها السلبيَّةَ إزاءَ الرجال:

- لا وجودَ للسياسيّ الصادق ولا للرجل الذي يصدقُ زوجته.

كانت الكلماتُ تخرجُ من فمها بسلاسةٍ، كنتُ أقولُ لنفسي:

- تُرى لِم هذه المرأةُ تخاف من الرجال بهذه الطريقة؟

كنت أتذكّر علاقة والدي بزوجته، وأحيانًا أخرى أمّها التي لا أعرف عنها شيئًا، وأحيانًا أتذكّرها هي، كان يخطر في ذهني أنَّ العديد من الرجال قد مرَّوا في حياتها، ومن كل الأمور كنتُ أبغضُ هذا الأمر بالتحديد، فإن كان ثمّة العديدُ من الرجال قد مرَّوا في حياتها وترك كل واحدٍ منهم خلفه ألمًا وانكسارًا فمعنى ذلك أنّ داخلها مليءٌ بالانكسارات والهزائم، والحالُ هذه، فلا بدَّ

أنَّ ساندرا سوف تنتقم لنفسها وألمها كلِّه من زوجها المستقبليّ، تخيّلتُ أن أكونَ زوجها! من جهةٍ حزنتُ لأنّني سأغدو ضحيَّةَ غيري، ومن جهةٍ أخرى كنت أفرحُ لأنّ ساندرا بذاتها سوف تكونُ بين أحضاني، منذ ذلك اليوم باتَ نومي شبيهًا بنوم أفعىً جريحة، فقدتُ القدرة على النوم ولم يكن خيالُ ساندرا يبارحني، لم أرَ نومَ الأفاعي، لكن يقال إنّها تنامُ بعيونٍ مفتوحةٍ، هذا ما حصلَ لي، عينٌ تنام وأُخرى مستيقظة على الدوام.

الخرزة 27: خرزةُ الضيافة

بعد لقائي بساندرا تسلَّل ألمٌ شديد إلى أعلى ظهري، كانت كتفاي تتحدّثان مع بعضهما، تستنجدان، خيوطُ الألم كانت تتجوّل في دمي، وكأنّ إبرًا حادَّة تتجوَّل في شراييني عوضَ الدم، كأفاعٍ تغلغلت إلى داخل ظهري وكتفيّ وانطوت على نفسها بثّت سمومها في ثنايا روحي كاملةً، تذكّرتُ أفاعي والد بيريفان الخضراء المبقَّعة ومعها فكرة غريبة، لربمّا الأفاعي التي نمت فجأةً كانت صغيرةً بداخلي حين أحببتُ بيريفان والآن كبرت ونمت مع حبّي لساندرا، يبدو أنَّ للحب أفاعي أيضًا، وكأنَّ الألم يصعدُ من كتفي نحو دماغي، كلَّما فكَّرتُ بساندرا شعرتُ بدوُارٍ، كنتُ أحسُّ أنَّ عالمها يختلف عن عالمي، هي في مكانٍ يبعدُ عنّي آلاف الكيلومترات، هي قطعةُ جليدٍ في صباحٍ شتويّ، وأنا حجرٌ ساخنٌ تحت شمسٍ صيفيَّةٍ حارقة، على الرغم من ذلك كانت ثمّة قوَّةٌ عظيمة تشدّني نحوها، كنّا في المكان ذاته وعلى مقربةٍ بعضنا من بعض، وهكذا كما أنّ الطبيعة بحاجةٍ إلى صيفٍ وشتاء فإنّنا كنّا بحاجة بعض، أنا الغريبُ المنكسر، الحزينُ المهموم كنتُ بحاجةٍ إلى ساندرا القويَّة المتبسِّمة.

هذه المرَّة هي من دعتني، كانت قد انتهت من الامتحانات بنجاح ومرّ يومان على عيد ميلادها، وأرادت مشاركتي فرحتها، قالت عبر الهاتف إنّها تدعوني لأكلةٍ كرديَّة، تحدّثت عن تحقيق أمنيتها

بالحصول على عملٍ محبَّبٍ إلى قلبها، كنت مشغولًا بها، بصوتها، برقَّتها، بأسلوب ابتسامتها وبها بالذات، بعملي وبغَدي، كان ثمّة سؤالٌ بلا جواب يدور في خاطري:

- تُرى من أين تعلّمت إعداد الطبخ الكرديّ؟

كانت قد دعتني وحدها إلى منزلها للطعام، لم أفهم لِمَ أنا وحدي، كان البيت يتألّف من غرفتين، غرفة للجلوس احتّلت الكتبُ جدارًا كاملًا، بينما الغرفة الثانية كانت للنوم، ابتسمت حين رأتني مندهشًا:

- ما بك؟ لمَ أنتَ صامتٌ هكذا؟

- كتبك الكثيرة لفتت انتباهي.

حتَّى تلك اللحظة لم تكن قد رأت الهديَّة التي لم تشدّ انتباهها، وبردٍّ سريعٍ حاولت معه أن تغيّر موضوع الحديث عن الكتب:

- هذه الكتب نتيجة اقتناءٍ استمر لعشرات السنوات، لكن الآن وقت الطعام الذي أتمنَّى أن ينال إعجابك.

حين أرادت توجيهي نحو المطبخ، أشهرتُ هديتي في وجهها كما يشهرُ العسكري سلاحًا غير ممرّنٍ عليه سابقًا:

- لقد جلبتُ لكِ هديَّةً؟

- هديَّة؟

اندهشت من أنّ اللوحة المغلّفة لم تشدّ انتباهها، وحين عرفت أنّها هديَّةٌ لها، أرادت توضيح الأمر:

- حين أتيت ولم تعطني إيّاها مباشرةً اعتقدتُ أنّها لوحة سوف تأخذها معك إلى المنزل!

- لا أنا قادمٌ من البيت...

- آه... إذًا شكرًا جزيلًا على الهدية، انتظر سوف أزيحُ الغلاف عنها.

كنت قد رسمتُ بورتريهًا لها، على الرغم من أنّني لم أكن مجتهدًا في رسم البورتريهات، لكن حين رأت ساندرا صورة وجهها اندهشت:

- أوه يا إلهي، نعم وهذا هو اسمك في الأعلى...

- أنتِ أجملُ من الصورة، لكن إمكانياتي قليلة...

- لا... لا... الصورةُ أجمل منّي بكثير، لِم لا تقول إنّي أعرف رسامًا كبيرًا...

- رسَّام نعم، ولكن كبير لا...

بفرحٍ تناولت اللوحة من يدي وركنتها إلى حائط الكتب، كانت تتكلّم بصوتٍ يجرحُ القلب، ثمّة إيقاعٌ غريبٌ في ترتيبها للكلمات، كان يعتريني إحساسٌ حزين وأندمُ لِم لا تترتّبُ هذه الكلمات

وتصبح حبًّا جمًّا، كنتُ محتارًا في أمري، على الرغم من أنّني معها بين أربعة جدرانٍ وبين يديّ إلّا أنّ الحصول عليها أمرٌ صعب للغاية، حين مشيتُ متمهِّلًا نحو المطبخ أمسكت بيدي مسرعةً:

- تعال لقد أعددتُ لأجلك طعامًا كرديًّا.

- طعامٌ كرديّ؟

- نعم، لا يحبّه كرد سوريا فقط، بل الكردُ جميعهم.

- ما هذا الطعام يا تُرى؟

- اجلس وتذوَّق وأخبرني بعد ذلك...

مطبخها صغير، سوى أنّه نظيف، كلُّ شيء مرتَّب في مكانه، في الحقيقة يشعرُ المرء وكأنّه في مطبخٍ كرديّ، لحم الدجاج، برغل، شوربة العدس، صلصة البندورة، سلطة ولبن رائب كانت أمامي على الطاولة، تذكّرت أيَّام عامودا وضيوف والدي وكأنّني في فيلمٍ قصير، كانت ساندرا حسَّاسةً جدًّا وبإمكانها قراءة أفكاري، سألت:

- ما كان اسمُ مدينتك في سوريا؟

- عامودا.

- الآن سوف تتذكَّرُ عامودا.

كدتُ أبكي بصوتٍ عالٍ، في تلك اللحظة وضع يتمي، بؤسي،

وحدتي، زوجةُ أبي والغربة، وضعوا جميعهم أياديهم في رقبتي وبدؤوا بخنقي، استيقظتُ على إثر صوتها:

- ما الذي دهاك آزاد؟ عوض أن تفرح، أحزنَك طعامي؟

- لا، اعذريني، فقط عامودا لدي لها علاقةٌ بذكرياتٍ حزينةٍ...

- اعذرني أنت، لم أقصد أن أحزِنَك...

كانت قد أعدت الطعام بمهارةٍ، مع الأكل فهمت أنّها ومن خلال عملها في التدريس تعرّفت إلى نساءٍ كرديَّاتٍ علمّنها الأكلات الكرديَّة، أكلتُ بشراهةٍ، ثمّة جوعٌ تسلّل إلى عظامي، وكأنّ بي لم أشبع منذُ طفولتي وحتَّى الآن، فرحت ساندرا وبفخرٍ استقبلت مدحي لإعدادها للطعام، بعد الانتهاء من الأكل ودون أن تسألني بدأت بإعداد الشاي وسألتني أثناء ذلك:

- أنا واثقة أنّك مثل أيِّ كرديٍّ يحبُّ الشاي بعد الطعام.

اختلطت الأمور في رأسي بعد كلامها، وبدأ حوار بداخلي، تُرى من أين جلبت كل هذه المعلومات؟ إمّا أنها كانت على علاقةٍ طويلةٍ بأناسٍ كُرد أو ربمّا أوجعت رأسها بجمع تلك المعلومات، حين رأيتها تنتظر ردّي هززت لها برأسي:

- نعم صحيح، أحبّ شرب الشاي بعد الطعام.

بعد شرب الشاي أرادت أن نتجوّل في بيتها، قالت فجأةً:

- نسيتُ أمرًا، كان لا بدّ أن ترى البيت فور مجيئك، لنبدأ من غرفة العمل.

كانت غرفةً صغيرة، ركنت الحاسوب الشخصي وأدوات العمل في زاويةٍ، على الطاولة بعضُ الكتب والمجلات، الغرفةُ الثانية التي دخلناها كانت مخصَّصةً للنوم، حاولتُ جدًّا أن أتراجع، لكنّها كانت تودّ أن أرى المنزل بكامله، أسَرني اللونُ الأحمرُ الغامق للستائر والشراشف في غرفة النوم، مرآةٌ كبيرة ركنت على خشبها أدوات التجميل، سريرٌ واسع، اللحافُ وحصيرةُ النوم كانتا مغطاتين بشرشفٍ أحمرَ، النافذةُ نصف المفتوحة أضفت رومانسيَّةً على الغرفة، بقيت عيناي معلَّقتين بسريرها وبدأت أفكاري الغريبة تُطحَن في رأسي، تُرى كم رجلًا مرَّ على هذا السرير؟

أيعقلُ امرأةٌ متحررة، جميلة، دافئة في تواصلها، تعيشُ بمفردها، ألا تفتح باب هذه الغرفة لرجلٍ؟ هكذا، لا أعرفُ لم تخيّلتها عاريةً على السرير لحظة نومها مع الرجال، حينَ كنتُ أتخيَّلُ نفسي عاريًا في سريرها وغارقًا في بحر نعومتها وفي بيتها، كان قلبي يكادُ أن يتوقَّفَ عن الخفقان، انتبهت لنفسي مع سماع صوتها، ناولتني منشفة بيضاءَ صغيرة، في تلك اللحظة كنت أتصبّبُ عرقًا، وحين رأتني على هذه الحال أرادت مساعدتي لكي أمسح عَرَقي، شكرتها، سوى أنّي كدت أختنق بين خيالات ومشاهدَ جنسيَّةٍ وحزنٍ عميق، انتبهت إلى حالتي، لكنها قالت ضاحكةً:

- يبدو أنّك شابٌّ خجول!

لا أعلم كيف توصَّلت إلى مثل هكذا نتيجة، سوى أنّني انشغلتُ بأمرٍ آخر، بالخرابِ الذي جلبته معي من (عامودا)، الرجل الذي يودّ أن يكونَ في نظر المرأة الرجلَ الأوَّلَ والأخير الذي يجب أن تعيش معه، الرجل الذي لا يريدُ أن يكون أحدٌ ما قبله قد مزّق غشاءَ جنّته، على الرغم من أنّني قادمٌ إلى بلد يعيشُ فيه الرجالُ والنساءُ على نحوٍ مختلف، لكن خرابي كان بمثابة حملٍ ثقيلٍ، هذا الخرابُ الذي تحوَّل ذلك اليوم أمام غرفة نومِ ساندرا مثلَ شوكةٍ في حلقي لا يمكنني بلعها وليس بمقدوري إخراجها، في ذلك اليوم كانت قد دحرجت كرةَ نارٍ نحو القشّ الذي بداخلي وتدور حوله ضاحكةً، عدنا إلى غرفة الجلوس، كنتُ حزينًا مكسورًا مشوَّشًا مصفرًّا وذابلًا، وعلى النقيض مني، كانت ساندرا مفتخرةً، مبتسمة، ذات وجهٍ نقيٍّ ومغتبِط.

كانت هناك مئاتُ الأسباب التي تجعل من أمر علاقة حبٍّ مع ساندرا أمرًا صعبًا، وفي الوقت عينه ثمَّة المئات من الأسباب الأخرى التي تجعل الأبواب مفتوحةً على مصراعيها أمام علاقة حبٍّ طويلةٍ وربمّا تدوم إلى ما لانهاية، وبالنسبة إليّ كانت ساندرا صعبةً بقدر ما كانت سهلة، مهما كانت بعيدةً فهي قريبة، حضنتني حينَ الوداع، شددتُ رائحة شعرها بنَفَسٍ عميقٍ إلى ثنايا روحي بطريقةٍ انتعشَ معها كبدي، اعترت ركبتيّ رعشةٌ خفيفة حينَ لامس صدرها لأوَّل مرَّةٍ صدري، كدت أتحوَّل بين يديها إلى ريشةِ طائرٍ هاربٍ، على أمل لقاءٍ جديد تركتُ جزءًا

كبيرًا من روحي لديها، في ذلك اليوم مثل جنرالٍ جريحٍ خارجٍ من معركة، أدرتُ ظهري لمنزلها متوجِّهًا إلى حظّي الذي لا أعرف ما الذي قد خبّأه لي.

الخرزة 28: خرزةُ موتِ أبٍ

واحدة من تلك المصائب التي لم أكن منتبهًا إليها في يومٍ من الأيَّام بأنّها ستحلّ، هي موتُ والدي. لا أعرفُ لمَ كنتُ مؤمنًا أنّه سيكون على قيد الحياة طالما أنّني في الحياة، أو إن كان سيرحَل فليس الآن وإنَّما بعد فترةٍ أخرى، لكن صوت أخي حميدو الذي كان واضحًا أنّه باتَ خشنًا قالَ شيئًا آخرَ، منذ ذلكَ اليوم ارتبطَ صوتُ أخي بالموت، صوتٌ تخالهُ قادمًا من قبرٍ عميق، لم أسأله من أين حصل على رقم هاتفي، أعتقدُ أنّ أبي من أعطاه الرقم قبل مماته طالبًا منه إبلاغي بموته، وها هو أخي ينفِّذُ وصيَّته، لكن، أنا الفقيرُ، اللاجئ مكسور القلب، الوحشُ العجوز الذي يترنّح في كهفِ غربتهِ ووِحشَتِه ما الذي بإمكاني أن أفعل، كانت تُمطِرُ في الخارج والطقس باردٌ، رأيتُ نفسي أمشي تحتَ وابلِ المطر الذي بلّل شَعري وملابسي، وكذلك دموعي بللت عيني ووجهي، فجأةً أحسستُ بصوتي العالي، لم يكن بكاءً ذلك اليوم، كانت صرخةً طويلةً وعميقة خرجت من روحي، كانَ المطرُ شديدًا وكأنّي به يعبِّر عن غضبه وحزنه لأجلي، طوال حياتي لم أرَ برقًا ورعدًا بتلك القوَّة، وكأنّ شعاع البرقِ كان من روحي، وكأنّ أصوات الرعد تخرجُ من جراح قلبي الملتهبة، لم أعد أعرف إن كنتُ أُبكي أبي الميِّتَ أم أُبكي نفسي، في لحظة وفاته كبرتُ عدَّة سنواتٍ دفعةً واحدة، حينَ يرحلُ القدماء يغدو الموتُ من نصيب الأبناء، الآن جيلي، أنا الذي يخطو سريعًا نحو الشيخوخَةِ، يغدو مُرشَّحًا

للموت.

هذا النهج حياةٌ، هذا الدولاب الذي يدورُ دون كَللٍ مسندًا الواحدَ تلو الآخر إلى اللاوجود، والآن حانَ دورُ جيلي، وكأنَّني كبُرتُ فجأةً، وكأنّ الموتَ يقف لي بالباب، تسلّلت أحاسيس حزينةٌ إلى أعماقي في ذلك اليوم، في تلك اللحظات كان بمقدوري أن أفهم طلب أبي الذي سبَق موته:

- يا ليتني رأيتُ أولادك أمامَ عينيّ قبل مماتي يا ولدي...

لعلّ هذه الأحاسيس والرغبات هي من إشارات دنوّ الموت، أو لعلّها على العكس إشارةٌ ما إلى الرغبة في البقاءِ واستمرار الحياة، وربمّا الأمر كله لا يتعدّى أن يكونَ مجرّد تطييب خاطرٍ، المرءُ يعرفُ أنَّه على وشك الرحيل سوى أنَّه يواسي نفسه ببقاء أبنائِه وأحفاده، وهكذا يكبر الأطفالُ ويعيدونَ حكايةَ الخداع، أغضبُ من رفض البعض لحقيقة الحياة، لكن الأمر الذي كان يحيّرني هو أنّني أيضًا مثل هؤلاء البعض، وصلت إلى مرحلة أنّني لا بدّ أن أتزوَّج في وقتٍ قريب لأصبحَ أبًا، بتُّ أشبهَ بسجينٍ بين جدرانٍ سميكةٍ مُرتَجة ولا يملكُ سوى بابٍ واحد وهو بابُ ساندرا، البابُ الذي غمرهُ الضبابُ والضجيجُ والسؤال، ساندرا بذاتها كان جليًّا أنَّها امرأةٌ مرتابَةٌ وصعبة، لكن وفي الآن نفسهِ امرأة عذبة، وسيمة، صاحبة قلبٍ دافئ، في أرجوحة أفكار الموت والحياة والزواج وإنجاب الأطفال والأبوَّةِ والغربة وأشياءَ أخرى فقدتُ القدرة على النوم، موتُ أبي مزَّقَ خيوطًا لامرئيَّةً داخل قوّة الشباب التي

بداخلي، ذلك الرجلُ الذي أينما حلَّ كانَ يصطحبُ معه ضجيجَ الحياة، الذي كان يجولُ ويصولُ في شوارع وأروقة (عامودا)، يحيّي الجميع، يصرخُ على البعض، يتشاجر مع البعض، يبتسمُ مع البعض، يغضبُ، يشتمُ الناس ويشتمونه ومن ثمّ يتصالحون، أبي الذي أمضى عمرًا مليئًا بالعمل والضجيج والبؤس باتَ الآنَ جسدًا باردًا صامتًا تحت التراب في مقبرة (عامودا) بجانب (تل شرمولا) الذي يمضي هو الآخرُ نحو الاندثار، لم يكن بمقدوري ابتلاعَ هذه الحقيقة، ثمّة شيءٌ رفيعٌ وحادٌ كان يبقى عالقًا في حلقي، كنتُ أخالُ نفسي وكأنّني لستُ الشخص الذي يشعرُ يوميًّا بموت العشرات، وكأنّها المرَّةُ الأولى التي أرى فيها رجلًا حيًّا يموتُ ويدفنونه تحتَ التراب، سوى أنَّ هذه المرَّة مختلفة، جديَّة أكثر وقاسية، هذه المرَّة غرزَ الموتُ أنيابهُ في رقبتي ورقبة أبي، ها قد أخذَ الموتُ الشخصَ الوحيد الذي بقيَ لي في هذا العالم، لم يكن يكفيني أَلَمُ أمّي وها ألمُ أبي تكوَّم فوقه، بهذه الأفكار استيقظتُ على رفرفة جناح الطائر الأسود من أحلام اليقظة التي بلاني الربُّ بها، وككلِّ مرَّةٍ حطّ في زاوية الغرفة، لم أصدِّق عينيّ، كانت روحُ أمّي مرَّةً أخرى، صوتها، قامةٌ نورانيَّة، على الرغم من العتمة التي حلَّت محلَّ النور مُخفيةً بدنَ الطائر تمامًا، سوى أنّني فشلتُ مرَّةً أخرى في طبعِ صورةٍ جليَّةٍ لها في عقلي وروحي، في تلكَ اللحظة وَددتُ لو أَن أقفِزَ إلى حضنها، لكن وكأنّ قدميّ مقيّدتان بعشرات السلاسل دون أن أقدر على التحرُّك، أردتُ ولو لمرَّةٍ واحدةٍ وحسب أن أتعرّف إلى طعم اللحظة التي يكونُ فيها الطفلُ في حضن أمّه، اعذريني يا أمَّاه أنا ما زلتُ ذاكَ الطفل الذي

يمكنهُ أن يبكي عليكِ، أن يرتمي إلى حضنك ويصرخ، ذلك الذي لا يعرف السبب لِم يحرمه الله من أحلى شيءٍ في العالم وهو الأمّ، ما زلتُ نفسه يا أمَّاه، الذي تُشفى كل جراحه بحركةٍ من يدك، نعم أمَّاه، أنا الطفلُ الذي يودُّ أن يصبحَ أبًا بعد موت أبيه، أنا الطفلُ الذي لم يلقَ خيرًا منكِ ويودُّ الآن أن يعارِك الموتَ والعَدَم، كانت أمي، أو روحها، تصغي مندهشةً، عرفتُ من صمتها أنّها تفكّرُ بموت أبي، كنتُ حزينًا لأنني كبرتُ في الوطن بلا أمٍّ، والآن في الغربة بتُّ بلا أبٍ وأمّ، انسابَ سمّ أفعى الوحدَةِ من أعلى وامتزجَ مع دمي ومع كل جزءٍ في بدني، كانت الوحدَةُ قد آلمت جسدي كلَّه، نشفت جداول روحي، أضعفتني، كسرتني، وجعلتني بقلبٍ رقيقٍ، كان صوتُ أمي هذه المرَّة يختنقُ في البكاء، إحساسُ الأمّ فقط بإمكانها أن ترى روح طفلها عاريةً، كانت مثل طائرٍ صغير جُرِحَ في جناحه والآن انكسر جناحهُ الآخر، هذه كانت حالتي وأبي وأمي، كانت روح أمي قادمةً لمواساتي، لتسألني بسرعةٍ عن حالتي وتعرف لتغادر، لذا غادرت بسرعةٍ ذلك اليوم، الشيء المثير للاهتمام أنّ الطائر يأتي بجلبةٍ وضجيج، سوى أنّهُ يغادرُ صامتًا آخذًا معه كلَّ أثرٍ، كان أبي يقولُ دائمًا:

- الحياةُ مثل مَزحَةٍ.

هكذا مرّت حياته أيضًا كمزحةٍ، مزحة لا تُضحِكُ أحدًا سوى أنّه يحاول بكلِّ قوَّته أن يضحكَ، أراد أبي أن يتغلّب على الفقر ببناء بيتٍ صغير، ومع ولادة طفله الأوّل، الذي هو أنا، ماتت زوجته، وبزواجه من امرأةٍ أخرى أراد أن يتغلَّب على قدر العائلةِ الأسود

وأن يبنيها مجدّدًا، لكن الأمر بالنسبة إليَّ كان متأخِّرًا، عينه عليّ، والعينُ الأخرى على تأمين حياةٍ أفضل، لم أبقَ عنده ولا حياته تحسَّنت، موت أمي أبقى على خيطٍ مقطوعٍ بيني وبين أبي، لم أعرف لِمَ كان هذا الخيط أو كيف، لكن ذلك الانقطاع، ذلك الفراغ، تلك العقدة اللامفهومة، كان دائمَ الوجود بيننا، أبي لا يشبه أيًّا من الآباء، كان يحبّني على طريقته، حبٌّ تشعر وكأنّه عيبٌ أو شيءٌ مخجل إن أعلن عنه، وربمّا هي مشاعره المخفيَّة في ندمه على أن يكون سببًا لإنجاب طفلٍ يتيم، أو ما زال في قِماطه وغدا يتيمًا، لم يكن يحبّني فقط، إنّما يُشفقُ عليَّ أيضًا ولا يريدني أن أشعر بهذه الشفقة، لكي أكبر ككلّ الأطفال في عمري الذين يكبرون بأمٍ وأب، أبي مع موت أمي كانت روحه قد جُرِحَت، يعضُّ شفتيه، لكي يخفي جرح روحه، دون أن يعرف أنّ ثمَّة جرحًا أكبر وأوسع قد نما في روحي أيضًا، وها قد رحل آخذًا معه ألم جرحه أيضًا، تركني وحيدًا للألمِ والجراح المفتوحة، تركني في ملح الغربة، كانت جملتي الأخيرة تلك الليلة:

- وداعًا يا شريكَ جروحي، وداعًا يا أبي...

الخرزة 29: خرزةُ الأرجوحة

من جانبٍ كان موت أبي يربطني بالأمس وبذهنٍ قديمٍ متعب عبر حبلٍ غليظ، ومن جانبٍ آخرَ كانت ساندرا تربطني بالرَّاهن عبر سلاسل حديديَّة وتشدُّني نحو اختلاف الروحِ والبدن، كان أبي يزجّني في بئر الحزنِ العميقة، حيثُ أسبحُ في مياه الطفولة واليتم وأغرق دون أن أودَّ الخروج، كنت أتلذّذُ بتعذيب نفسي وبالبكاء، ولا سيّما حين أكون بمفردي بعيدًا عن أبصارِ الناس، بتٌّ بحيرةً للأيَّام والسنوات الماضية، كنتُ أعيشُ في الأمس، مثل وحشٍ عجوز متساقط الأسنان يعيش في كهف ذكرياته المشلولةِ والفارغة، حينَ كان يغلبني الأمس، لم أكن أريد أن أتركه، سوى أنّني حين أخرج من وحل تلك الذكريات الثقيلة أتمنَّى ألَّا أعودَ إلى ذلك الصمت الثقيل والحزين مرَّةً أخرى، دخول ساندرا إلى حياتي كان أشبه بمرور عابر سبيلٍ أمام بئرٍ سقط فيها طفل، مع وقع صوت قدميها، بخطواتها البطيئة، كنتُ أرتعدُ خارجًا من الأمسِ داخلًا إلى اليوم، حياتي باتت كأرجوحةٍ بين الأمسِ واليوم، في تلك الأثناء انتابني جوعٌ وحشيٌّ للولوج إلى ما بين أفخاذ النساء، في حياة الأمس وكلّما مشيتُ في شارعٍ كنتُ محاطًا بالرجال ذوي الوجوهِ العابسة، على العكس من حياتي اليوم التي ينتفي فيها الرجال، في حين أنَّ ثمة عددًا هائلًا من النساء، في الشوارع، في كلِّ مكان، في الأماكن المغلقة، عيناي كانتا معلَّقتينِ بأسفلِ بطني على الدوام، وكلَّما رأيتُ فتاة جميلة

أو أنثى وسيمة وإن كانت على عجالةٍ تتوجّه أبصاري نحو المؤخّرة، كنتُ أنزع ثيابها في خيالي، أديرها وأضع ثدييها بين شفتي ولساني، وأصغي إلى آهاتها، أو أمسك بفلقَتي مؤخِّرتها بنعومةٍ وبكل ما أوتيتُ من قوَّةٍ وأَلِج إلى نار جنّتها، لا أعلَم لمَ كانت هذه الوحشيَّة تستيقظ في داخلي كلَّما أبصرتُ فتاةً أو امرأةً لا أعرفها، كل النساء حين كنتُ أتعرَّفُ إليهنّ أو أعرفهنّ كانت رغبتي تبرُد على الفور ولا تقوى على تحريك شيءٍ بداخلي، كنتُ أتخلَّى عن رغبتي في تعريتها ويتعبُ خيالي في مساعدتي على أن أقلبها على ظهرها تارةً وعلى بطنها تارةً أخرى وألعب معها لعبة الحياة والموت الساخنة، يوميًّا في خيالي كنتُ أرمي بذاري في كل شارعٍ داخل عشرات الأرحام دون أن أشبع، لا أعلم لمَ كان خيالي يمتنع عن تعرية كلِّ النساء، عوضَ خلع الملابس، ولا سيما إن كانت الفتاةُ ترتدي بنطالًا، أثقبُ البنطال في مكان فم الجنَّةِ، وأنا بملابسي وهي بملابسها لتمتزج أعضاؤنا وتتداخل في بعضها الآخر، يبتعدُ الجسدان بشهوةٍ ويقتربان من بعضهما، النتيجة أنّني كنتُ أشعر بلذَّةٍ لم أشعر بها في حياتي كلِّها، لكنني كنتُ أعلِّلُ شهوتي اللانهائيَّة هذه بابتعادي الطويل عن النساء، كانت شهوةً من نارٍ متَّقِدة بداخلي دون أن تنطفئ، بعيدًا عن أعين الناس كنتُ أجول ببصري بحثًا عن تلك الثقوب والممرَّات الدافئة المختبئة تحت أثواب النساء الجميلات، عمَّ كنتُ أبحثُ لا أعرف، لِم يحدث هذا، لا أعرف، فقط كان ثمَّة طعمٌ للحياة في تلك اللحظات الهاربة، كلّ امرأةٍ لا أعرفها عن كثب كانت تغدو لي فريسةً لذيذة لهذه اللعبة الخياليَّة الساخنة، والغريبُ في الأمر

أنّني وبعد مرور دقائقَ قليلة على تلك الأحداث الخياليَّة كنتُ أنسى ملامح تلك المرأة وكلّ الدفء في تلك اللحظات، ثمَّة نساء يعرفن ما الذي يريده منهن الرجل دون النظر إليه، أقول هذا عن تجربتي الشخصيَّة، أحيانًا دونَ أن تنظرَ إليَّ كانت المرأةُ التي أنظرُ إليها بسهام نظراتي الشهوانيَّةِ الحادّة تشعرُ بي على الفور، كنتُ أعرف ذلك من نظرتها ولون وجهها، لا سيّما حين كانت تبتعدُ عني مغادرةً، وكأنّهن يرغبن المشاركةَ في تلك اللعبة الدافئة، لم أرَ ذلك، ربمّا قد أكونُ مخطئًا أيضًا، إنّهن يخفن من نظراتي التي تشبه نظرات النمر، لا سيما أن شرطًا من شروط الدخول إلى هذه اللعبة أن ينتفي وجود الرجل مع المرأة، فوجود الرجل مع المرأة يقضي على خيال الاستحواذ على المرأة، هذا كلّه الضجيجُ الذي بداخلي الذي لا يعرفُ به أحد، هكذا لم أكن أعلم ما الذي سيفعله الاستحواذ أو الزواج بساندرا بهذه الأخيلة، لذا كانت قدمي دائمًا تمضي نحو الأمام، فيما الأخرى مقيَّدة بسلاسل هذه الجنَّة التي فتحها موت أبي، ورأسي يلتفتُ نحو السنوات الماضية، في وسط هذه الأرجوحة حطّ الطائرُ الأسود، طائرُ روح والدتي الذي كنت بحاجةٍ ماسَّةٍ إليه في تلكَ الأوقات لذلك أتى، مع رؤيته اغرورقت عيناي بالدموع، خلتُ أن أمّي تعيش في قلبي وفي لحظات حاجتي إليها تعرف ذلك فتأتي، صوتها بدا واضحًا أكثرَ، فهمت من حديثها أنَّها حزينةٌ لأجل موت والدي وتركه لي وحيدًا في هذا العالم، سوى أنَّ قربَ والدي منها الآن أمرٌ مفرحٌ لها، لم أعرف إن كان بوسعهما اللقاء، كنتُ كالثملِ ذلك اليوم، في الدخان، وما بين النوم والصحو، أتت روح أمي

وغادرت، وددتُ لو أسألها أسئلةً كثيرة، سوى أنّني لم أستطع ذلك، هي من جهةٍ ووالدي من جهةٍ أخرى، وكذلك ساندرا وحتَّى خيالُ بيريفان كانوا جميعًا يقفزونَ إلى هذه المعضلة التي في رأسي، صورةُ بيريفان كانت قد تبعثرت، حاولتُ جاهدًا أن ألملمَ تفاصيل الصورةِ القديمة لكنني كنتُ أفشل، أردتُ أن أرى ذاك الوجه النورانيَّ القديم واضحًا، سوى أنّ وجه ساندرا كان يمنعُ ذلك محاصرًا إيَّايَ من الجهات الأربع، كيف أتى الطائرُ الأسود وكيف غادر لا أتذكَّرُ الأمر جيِّدًا، فقط أتذكَّرُ أنّ أمي أعطتني مفتاحًا جديدًا للحياة مع ساندرا ومن ثمَّ غادرت، لعلّها مثل كلِّ أمٍّ تريد تزويج ابنها بأي شكلٍ من الأشكال وأن تفرَح بمجيءِ حفيدها، أو لعلّها ودّت إخراجي من بئرِ الوَحْدَةِ العظيمِ والمُعتِم وترميني إلى حضنِ ساندرا الدافئ.

الخرزة 30 : خرزةُ الزواج

بتُّ كمسافرٍ جاب أنحاء العالم كلّها ومن ثم توصَّل إلى يقينٍ أنّ السفر في العالم لا يمكن له أن ينتهي والمرءُ لا يمكن له أن يرى كل الأمكنة، كنتُ متعبًا، قلتُ يمكن أن أشبع من رغبة الولوجِ إلى تشقّقات النساء يومًا ما لكن لم يحصل هذا الأمر، الدخول والخروجُ إلى التشقَّقات الدافئة كان على العكس من شرب الماء حين العطش وارتوائه، لكن مع النساء الأمر مختلفٌ تمامًا، فكلّ امرأةٍ جديدة توقِظُ العطش لامرأةٍ أخرى، أدركتُ أن العمر يمكن له أن ينتهي ولا يمكن للعطش للنساء الجميلات أن ينتهي، كانت أحاسيسي على هذه الشاكلة، لم يبقَ إلّا القليل وسأغدو متأخِّرًا، وقبل أن أشعر بالندم على التأخُّر قررت قراري الذي لا عدولَ عنه، كمثلِ مقاتلٍ عجوزٍ رفع الراية البيضاء أمام أعدائه رفعتُ بكلتا يدي الراية البيضاء وتوجّهت نحو منزل ساندرا، كانت تلك المرَّة الأولى التي أذهبُ إليها دون أيِّ موعدٍ، حينَ فتحت الباب قالت:

- كنتُ أعرف أنّه أنت؟

- وكيف عرفتِ؟

- قلبي حدّثني بذلك.

أدخلتني إلى المطبخ، كانت تعدّ الطعام لنفسها، قالت بأنّني محظوظٌ للغاية، فقد أتيتُ قبل إنهاء إعداد الطعام بوقتٍ قصير،

كدتُ أقول لها بأنّ أمكِ تحبني، سوى أنّني أوصلتُ إليها الجملةَ بطريقةٍ أخرى، قلتُ عندنا وحين يصلُ أحدهم في موعد الطعام يقالُ له إنّ حماتك تحبِّكَ، ويبدو واضحًا أنَّ حماتي تحبُّني، ضحكتْ قائلةً:

- الحموات كلهنّ يحببن أصهارهن، ولا سيَّما حين يكونُ الصهر كاملًا.

- ماذا تعنين بالكامل؟

- أعني أن يكون مختلفًا عن كل الرجال، أن يكون وفيًّا ولا يخدع زوجته.

- كلُّ الرجال؟

- لا تنزعج، عداكَ أنت.

- لا أملك زوجةً ولا حماةً.

- سوف تملك...

- متى؟

- متى أردت ذلك.

هنا أدركتُ أنّ الفرصة متاحة ولا بدَّ أن أستغلّها:

- وأنتِ؟

- وما شأني أنا؟

لم أعرف إن كان اندهاشها تعبيرًا عن فرحةٍ، أو لأنّني دائمًا على عجلةٍ من أمري، دون أن تتكلَّمَ، أفصحت عيناها عن كلِّ شيء، بعد الانتهاء من تناول الطعام أسرعت إلى إعداد الشاي وجلسنا في الغرفة، كعاريين متقابلَين، كانت تلك المرَّة الأولى التي تغمرني أنوثتها بأمواجها العالية، في المطبخ كانت الشهوة وتوّحش الأنوثة والرغبة العميقة في الأعين تختفي بالانشغال بالطعام، ولكن في غرفة الجلوس لم يبقَ شيءٌ يمكن إخفاؤه، فُتَح بيننا حديثٌ بلا حدودٍ أو ستارٍ، حديثٌ بين امرأة وحيدة وشابَّة وبين لاجئٍ منكسر، حديثٌ بين نصفينِ يبحثان بعضهما عن بعض، قطعت ساندرا الحديث ومدَّت يدها نحوي، أمسكت بأصابع يدي اليسرى ووجّهتني نحو غرفتها، سريرها فارهٌ ويتّسع لشخصين، دُهِشتُ لهذه الدعوة إلى سريرها، كنتُ أعتقد أن مجيئي إلى هذا السرير يتطلَّبُ أيَّامًا وسنواتٍ طِوالًا، لكن ها قد جلست على السرير ودُقَّت طبول حرب نزع الثيابِ والقبلات الدافئة، لم يكن الذي بين كتفيّ رأسي إنَّما شعلةُ نورٍ في تلك اللحظات، لم يكن يسري في جسمي دمٌ في تلك اللحظة، لم يكن دمًا إنَّما نارٌ، لم تكن وساداتٌ وستائرُ حولي في تلك اللحظة إنما أشجارٌ وجبال، لم أكن في تلك اللحظة الرجل المنكسر، عاشق البكاء والعذاب، كنتُ بطل ملحمةٍ تاريخيَّةٍ قديمةٍ، بشراسةٍ مؤلمةٍ، كانت أعضاء جسدين مختلفين ومتنوّعين محرومين يتداخلان، وكأنّ تلك الخيالات ساعدتني لأكون ماهرًا وواثقًا من نفسي، لم يكن سريرًا ذلك الذي يئنُ تحت

وطأةِ جسدين، إنما غيمة.

مع لحظةِ الانقضاءِ الأخيرة، لحظة انطفاءِ براكينِ الأنحاء، وكأنّني فقدتُ وعيي، وددتُ أن أصرخ بصوتٍ مرتفعٍ سائلًا أين أنا، تسلّل دوارٌ خفيفٌ إلى رأسي مثل ثملٍ، ومع صوت ساندرا انتهى الأمر:

- القهوةُ جاهزة...

ارتديتُ ثيابي متوجِّهًا إلى ساندرا في المطبخ، كان لونها قد تغيَّر تمامًا، كانت واقفةً أمام النافذة تدخّن وتفكّر دون أن أعرف بماذا، تنظرُ نحو البعيد، وكأنّ أحدهم أزالَ قشرةً، هكذا تسرّبَ بياضٌ مصفرّ إلى لون وجهها، قلتُ لها جملتي الأخيرة:

- اليوم تغيَّرت حياتي، وسلكت دربًا آخرَ مختلفًا.

كانت تصغي إليّ صامتةً وبعينين مليئتين بالأسئلة، صمتها أربكني، لم أعرف لِم هيَ باردة إزاء الزواج على العكس مني، كسرتِ الصمتَ بجملةٍ واحدة فقط:

- لم أكن أعلم أنَّك ماهرٌ هكذا على السرير.

جاوبتها نصفَ مازحٍ:

- المهارةُ على السرير هي القاعدةُ الأساسيَّة لكل زواجٍ ناجحٍ، لا أعرف تمامًا، سوى أنَّ أبي كان يقول هذا دائمًا.

الخرزة 31: خرزةُ وضع العشّ

الأبُ بعد أن يمضي عمره ويموت يشعرُ الأطفالُ أنّهم يصبحونَ مختارين لإماتة الطبيعة، فإلى أن يكون الأبُ على قيد الحياة فإنّ الطفل يبقى في نظر نفسه طفلًا ولا يشعرونَ بدنوّ موعد الرحيل، ولكن حين يموتُ الأب يأتي الموتُ إلى بابِ أطفاله، كنت أشعرُ بأحاسيس من هذا القبيل، فأينما حللتُ رأيتُ نفسي تحتَ ظلِّ الموت، هذه الأحاسيس ضاعفت قوَّة رغبتي في الزواج والأبوَّة، لأنّني لم أعتقد يومًا أن تكون هذه الأمور على علاقةٍ بعضها ببعض، كان بالنسبة إليَّ أمرًا في غاية الغرابة، ولكن في النهاية هذه هي حالتي، كنتُ أفكّرُ أكثرَ الأمر في إنجاب طفلٍ، كنتُ أقارنُ بين عمري كأبٍ وبين عمر طفلي الذي لم يأتِ بعد فأحزن، كأبٍ لا أريدُ أن أترك خلفي طفلًا يتيمًا، لا بدّ للأطفال أن يكبروا ومن بعدها إن ماتَ المرءُ أيضًا فإنّه يستطيعُ الذهابَ إلى القبرِ بقلبٍ مطمئنّ غير خائف، تلك الأفكار كانت قد جعلت رأسي في مواجهة رصاصات الارتباك، وصلتُ إلى البيتِ برأسٍ تائهٍ وجسدٍ متعب.

لم يمضِ يومان على الهزَّة التي حصلت في حياتي، وصلتني رسالةٌ أخرى، لم يكن هناك أحدٌ سوى ساندرا بإمكانه أن يترجم الفحوى لكي أفهم. كانت الرسالةُ تنصَّ على منحي حقَّ الإقامة بالإضافة إلى موعدٍ محدَّد للحديث عن خطط البقاء المستقبليَّة، كان لا بدّ لساندرا أن ترافقني إلى ذلك الموعد، وحين طلبتُ منها

ذلك ضحكت:

- سوف آتي معك، لكنني سوف أترجمُ لك اللغة الألمانية التي يتحدّث بها الموظّفون إلى لغةٍ ألمانيَّةٍ تفهمها أنت.

حصل ذلك، وفي نهاية الحديث وصلنا إلى هذه النتيجة، لا بدّ أن ألتحق بمدرسة تعليم اللغة والمهنة معًا لمدّة عامين، والمهنةُ هي أن أعمل في الترجمة وكيفيَّة إدارة الحياة المشتركة التي كانت تسمَّى بكلمةٍ واحدة: الاندماج، كان لا بدّ أن أتعلّم لمدة عامين هذا الأمر، لكي أغدو مترجمًا مهنيًّا ومُتقِنًا، رأيتُ نفسي في غمرةِ انشغالٍ لانهائيَّة، ومع هذه الانشغالات اتّضحت بعض الشيء حياتي القادمة، انتهت مشكلتي مع اللجوء وبدأت مرحلة التعلّم على العمل، ومعها كنتُ أعدُّ أمور الزواج بسرعةٍ، حين أفصحتُ لساندرا عن رغبتي بوضوحٍ قالت:

- لِم الآن، ولِمَ هذا الزواج المستعجل؟

- لأنّني إن أخبرتك قبل ذلك كنت ستعتقدين أنّني أطلب الزواجَ منكِ لكي أحصل على حقِّ الإقامة.

لم تكن ساندرا مطمئنَّةً لطلب الزواج، قالت بعد فترةِ صمتٍ وجيزة:

- هل أنت متيقِّنٌ أنَّك تقوى على هذا الحِمل؟

- نعم.

- ألا توجد لك امرأةٌ، زوجةٌ، حبيبة؟

- سؤالكِ غريبٌ بعضَ الشيء!

- لا، أنت تعرف نظرتي إزاءَ الرجال كلِّهم، وفي نهاية الأمر أنتَ رجل.

- سوف أغيّر نظرتك هذه.

- لا أعتقد... سنرى.

أمنيتها كانت ألَّا أكونَ مثل باقي الرجال، بينما كانت أمنيتي أن أحرِّرها من هذه الريبة، وبأمنياتٍ أكثر توجّهنا سويَّةً نحو المكتب الخاص بشؤون الزواج في بلدية المدينة، كنتُ الرجل الوحيد بين خمس رفيقاتٍ لساندرا، شهدت اثنتان منهنّ على زواجنا، تذكّرتُ أنّه في الإسلام تعتبر شهادة امرأتين بشهادةِ رجلٍ واحد، لكنني لم أتحدَّث عن الأمر، فقط كان يتطلَّب منّا أن نقول «نعم» على اختيارنا بعضنا بعضًا كزوجين ومن ثمّ نوقِّع، بعد الانتهاء من هذا العمل الثقيل بالنسبةِ إليّ، توجّهنا نحو مقهى بالقرب من مقرِّ البلديَّة وشربنا نخب زواجنا أنا وساندرا، مضى الأمر كلَّه مثل مزحةٍ، لم يكن بمقدوري التصديق بأنّ هذه المرأة التي نصفها حوريَّة ونصفها الآخر إنسان باتت الآن زوجتي، أنا وريثُ سلسلة جبال الألم التي تشبّثت بالأرضِ بكلّ قوّتها وبكامل علوِّها واضعةً رأسها بين الغيوم البيضاء في السماءِ السابعة.

الخرزة 32: خرزة ولادةُ أبٍ

في طريق الذهاب نحو منزل ساندرا تذكّرتُ لوحات والدها، وتذكَّرتُ أيضًا أنَّ موهبتي في الرسم بتُّ أشعر بخسارتها، لا بدّ أنَّ الفراغ الكبيرَ الذي استقرَّ داخل روحي هو سببُ تلك الخسارة، في ما مضى كنتُ أعتبر لوحاتي أطفالًا لي، لكن حين تنتفي اللوحات تتعاظمُ الرغبةُ في الأبوَّةِ وإنجاب الأطفال، كانت هذه الأفكارُ تدورُ في رأسي حين دخلتُ منزلَ ساندرا، اتفقنا أن نكونَ سويَّة في بيتها وكلٌّ واحدٍ منَّا في منزله، وما بينَ الوقت الذي كنتُ أمضيه في المدرسة والبيت كانَ الشهرُ يفرُّ هاربًا كعصفورٍ نجا من موت رصاصات قنّاصٍ قاسٍ، كنتُ ثملًا بانتفاخِ بطن ساندرا يومًا إثرَ آخر، الآن ثمَّة روحٌ في رحمِ هذه المرأة، ورويدًا رويدًا يغدو لتلك الروحِ بدنٌ، ويكبر هذا البدنُ أيضًا يومًا إثرَ آخر، في الشهر الرابع عرفتُ من الطبيبة المعالجة أنّ الطفل الذي ننتظرهُ بنتٌ، حينها كانت قد بدأت تتحرَّكُ في بطنِ أمِّها، كنتُ متشوّقًا في انتظار مجيئها، كنّا نسأل أنا وساندرا بعضَ الأحيان كيف ستكون هذه الطفلة: تُرى ستشبه مَن أكثرَ؟ كنتُ أتابع أسبوعيًّا ما يزيدُ على الجنين، الطول والوزن، ولا أعلم لِمَ صحبَ هذا الفرح خوفٌ تسلَّل إلى داخلي، كنتُ أتذكَّر موت أمّي وتعتريني فكرةٌ سوداء تعمي عيني، من الممكن أن يكون قدر ابنتي مثل قدري، مع مجيئها تودّع والدتها هذه الحياة الناصعة وترحل، ما من شيءٍ يضمنُ لي أن تجتاز الأمُّ هذا الامتحان بسلامةٍ، ومع دخولها المستشفى

في قسم الولادات، اشتعلت الفكرتان معًا، كانت ساندرا تمسكُ يدي وتصرخ وهي تعضّ شفتيها، كانت هذه المرَّة الأولى التي أرى فيها ألم أمٍّ في المخاض، بين اللحظةِ والأخرى كانت تأتي الممرِّضة ذات الرداءِ الأبيض لتلقي نظرةً على ساندرا ومن ثمّ تغادر، في كلِّ مرَّةٍ كانت تقول الوقت يقترب، آلامُ المخاض كانت تمنع ساندرا عن التنفّس، مسكت يدي بشدةٍ:

- لم أعد أحتمل، إنّني أموت...

خفتُ من كلامها هذا، أفلتُّ يدها وأسرعتُ باحثًا عن الطبيبة المسؤولة، في الطريق منعتني الممرِّضة ذات الرداء الأبيض وطلبت مني أن أبقى بجانب ساندرا، هذه المرَّة تركتني لتذهب وتنادي كل رفاقها.

مدّت الطبيبة ذات الشعر الطويل يدها إلى ما بين فخذي ساندرا التي كانت تحاول مساعدة نفسها جاهدةً ومتعرّقة وتصرخ، كان ثمّة ثلاث ممرضاتٍ على أتمّ الاستعداد، مع خروج الجنين، ناولتني إحداهنّ المقصَّ طالبةً منّي أن أقصَّ بنفسي حبل السرَّة لتضع الجنين على صدر أمّها التي كانت ترتجفُ وكأنّها عاريةٌ بين الثلج، ما زلتُ أفكِّر هكذا وإذ بالطبيبة تردُّ عليَّ ضاحكةً:

- لا تخف، لا تخف، إنّها دقائق معدودة وسيكونُ كلُّ شيءٍ على ما يرام، حين يخرج الجنين يتركُ مكانه فارغًا، لذا فإنّ الحرارة التي كانت تتحوَّل إلى برودة، هذا هو السبب.

حملوا الطفلة من على صدر أمّها ولفّوها بشرشفٍ وناولوني إيَّاها، ومعها توقّف بكاءُ الطفلةِ وارتجافُ ساندرا، هنّأتنا الطبيبةُ وغادرت، أرادت الممرَّضةُ أخذ الطفلة بغية تنظيفها ومراقبتها ومن ثم تهيئة أوراقها، وقبل أن تذهب طلبت منّا أن نحدّد الاسم، وأيضًا تحديد اسم طبيبٍ للأطفال، وإن كانت حالة الطفلة والأم مستقرَّة فإنّه بإمكاننا مغادرة المشفى إلى البيت.

الخرزة 33: خرزة طفلةٍ من دموع

اتفقنا على أن يكون اسم طفلتنا دانا. حين نادتني الممرِّضةُ المبتسمة كانت ساندرا غارقةً في النوم بعد التعب الطويل، كان وجهها مصفرًّا ودون أن تخبرني أنَّها ستنام، غلبها النعاسُ الشديد فغطَّت في نومٍ عميق، ذهبتُ إلى الغرفةِ الأخرى، فوجدتُ أنّهم كتبوا اسم دانا بخرزاتٍ وعلّقوها في معصمها، لا أعرفُ كيف انتبهت الممرِّضةُ إلى المسبحة الملتفَّةِ حول معصمي، وحين ودت أن تريَني خرزة دانا قائلةً:

- ها هيَ الآن تمتلكُ خرزاتٍ مثل خرزاتك...

كانوا قد سجلوا وزنها وطولها ووضعوها في سريرٍ صغيرٍ خاصٍّ بالأطفال، أخبروني بأنّهم فحصوا أذنيها وعينيها ورأسها وأنَّ كلَّ شيءٍ على خير ما يُرام، أعطوها لي مع السرير قائلين:

- بإمكانك أخذها والاعتناء بها إلى أن تستيقِظ والدتها.

بقينا وحدنا أنا ودانا الصغيرة في الغرفة، كنتُ أحدِّقُ في وجهها، عينيها، شفتيها، لسانها، ملامحها، قدميها ويديها وأصابعها الرقيقة، وثبت أمي فجأةً إلى ذاكرتي، اعترتني رغبةٌ قويَّة في أن أشارِكَ أحدًا فرحتي، فتذكَّرتُ أبي، كنتُ سأخبره باتَ لك حفيدةٌ الآن، انتظرتُ الطائرَ الأسود لكي أفتح له قلبي، بيد أنَّه لم يأتِ، أشفقت على نفسي، أنا اليتيمُ الشؤم، تأمّلتُ عيني

دانا النقيّتين وكبركانٍ غاضبٍ انفجرتُ باكيًا، ابتعدتُ عنها قليلًا، وضعتُ وجهي بين كلتا يديّ وبنواحٍ مستمرٍّ أدمعتُ، ثمّة فرحٌ عظيم وحزنٌ أعظم قد تقابلا، ليست دانا فحسب، بل أنا أيضًا كنتُ أبًا حديثَ الولادة، لكن لا أب ولا أم، لا أحد، لا أصدقاء ولا رفاق، هكذا وحيدًا وغريبًا، مكسور الجناحين يائسًا في بلدٍ غريب، أصمّ وأبكَم، في ذلك اليوم ذرفتُ وطنًا كاملًا من الدموع.

دانا الصغيرة، صغيرةُ طيرٍ بلا عشٍّ وبلا بيت، مع هذه الأحاسيس كنتُ أشعر أنّني مذنبٌ لأنّ هذه الطفلة في المستقبل سوف تتألَّمُ لأجل أبيها الغريب، ما ذنبها لأن تغدو ابنة رجلٍ يعيشُ بين أمواج البحار.

كل المشاجرات والضجيج بيني وبين ساندرا خلال السنة التي مضت كان مصدرها ريبتها المستمرَّة، هذا الأمر منع دخول السلام إلى حياتنا، دائمًا كان الخيط الذي يوصِلنا ببعض على وشك الانقطاع، انعدامُ الثقة بين الأب والأم يغدو بلاء الطفل، كنت خائفًا من أن تعيش دانا الصغيرة في خوفٍ وانعدام أمان بين أبٍ وأمٍّ من عالمَين مختلفين، دخولُ ساندرا عليّ في تلك اللحظة أخافني وكأنّ أحدهم اعتقلني لجرمٍ، خلتُ أنّها تقرأُ أفكاري في تلك اللحظة، هزّت برأسها ساخرةً:

- لا تذهب بعيدًا هكذا، لا تفكّر كثيرًا، هيا ننهي شؤون المشفى لنعود إلى بيتنا.

لم تكن ساندرا تطيقُ البقاء ليومٍ واحد هناك، اليوم صباحًا

خرجنا شخصين من البيت إلى المشفى والآن في المساء خرجنا ثلاثة أشخاصٍ وعُدنا إلى البيت، أليسَ ذلك أمرًا عجيبًا!؟

الخرزة 34: خرزةُ الرّيبة

باتت ريبةُ ساندرا تتعاظم منذ زواجنا، وفي الحقيقة لم أكن أعرفُ أشياءَ كثيرة عن حياتها السابقة، وهي لم تكن تريدُ أن تحدّثني في هذا الأمر، سوى أنّها كانت تسأل بفضولٍ شديد عن الأحداث صغيرةً كانت أم كبيرة التي مررتُ بها في حياتي، في البداية حدّثتها عن بيريفان، ومازحًا كنتُ أتحدَّث لها عن اشتهائي لقضم شفاه الفتيات الحسناوات، في البداية كانت تصغي صامتةً، سوى أنَّ تلك الحكايا باتت بالنسبةِ إليَّ بلاءً حقيقيًّا، فكلّما رأتني وحدي مفكرًا تهزُّ رأسها قائلةَ:

- أعرف بمن تفكِّر.

في الشارع كلّما مرَّت امرأةٌ جميلة، تحدّثني دون أن تلتفت إليَّ:

- أعرفُ جيَدًا إلى أين تنظر وما الذي يجولُ في رأسك الآن...

في المقهى كلّما جلسنا، كانت تجولُ بنظرها حولها، وتختارُ فتاةً جميلة لأغدو ضحيَّتها، وكلّما نظرتُ في اتجاه امرأة من الممكن أنَّي لا أعرفها، كانت ترى هذا الأمر تصغيرًا لها لتحرم على نفسها المجيء إلى المقهى برفقتي:

- لستُ مرتاحةً معك في المقهى، رأسك يترنّح كثملٍ وعيناك تجوب الاتجاهات الأربع بحثًا عن النساء.

وددتُ إفهامها أنّني لا أنظرُ نحو النساء إنَّما هي عادتي القديمة، حيثُ اعتدت أن أنظرَ نحو الباب كلّما جلستُ في مكانٍ مغلقٍ، يستحيلُ أن أدير ظهري إلى الباب، كان لا بدّ أن أرى الداخل والخارج، إنَّها عادةٌ سيّئة، سوى أنّها نمت معي منذُ طفولتي، لكنَّها لم تصدِّق ذلك، وودتُ أن تعرف أن ابتسامتي أو نظرتي نحو امرأةٍ تحدث في المقهى مصادفةً مع مَن يجلسُ قبالتي على أنّه أمرٌ يخيَّل إليها وحسب ولا يوجدُ شيءٌ من هذا القبيل، بيد أنّها لم تكن تصغي إلى شرحي وجوابها كان دائم الجهوزيَّة:

- تريدُني ألَّا أصدِّق عيني أيضًا؟!

لم تكن فقط نظرًا بالعين، إنَّما باتت كالشرطةِ التي تبحثُ عن المتّهم، وتقولُ دائمًا:

- كما أنَّ المجرم لا يستطيعُ إلَّا أن يترك خلفهُ أثرًا يدلّ على جريمته، الرجلُ هكذا تمامًا، ليس بوسعه إلَّا أن يترك أثرًا خلفه حين يخونُ زوجته.

كنتُ أسخرُ من كلماتها تلك التي كانت تقولها على الطعام، سوى أنَّ كلامها هذا، أحيانًا، كانَ سببًا لهياجي وغضبي، عدتُ يومًا ما متأخِّرًا من المدرسة، وحين فتحت ليَ الباب حدَّقت بي بغضبٍ وصمتت، لم أعرف ما الذي حصل، وثبَ الموتُ إلى ذهني فجأةً وبدأتُ على الفور أسألها عن سبب صمتها، سوى أنها لم ترد، دائمًا تقولُ:

- لم يحصل شيء...

استمرَّ صمتها إلى ما بعد تناول الطعام، وحين سألتها غاضبًا عن سبب صمتها الذي يُخرِجُ المرءَ عن طوره، انفجرت في وجهي بصراخٍ وسألتني:

- اسأل العاهرة التي كنت معها!

- عمَ تتكلمين، أي عاهرة؟ ما الذي تتفوَهينَ به؟

- نعم، نعم، كالمعتاد انكر كل شيء، أمرٌ طبيعي، وأنا أيضًا إن تمدَّدتُ تحتَ رجلٍ فلن أخبرك.

احترتُ قليلًا، لم أعد أعرف ما أقوله:

- أقسِم لك وقبل أن أعرفكِ إن أخبرني أحدهم أنَ ثمة امرأةً ألمانية مرتابة بهذا الشكل كنت لن أصدِّق!

- ستقلبُ الموضوع إلى موضوعٍ سياسي وثقافي، الآن تقول إنها امرأةٌ ألمانية ولا تهتم، أليسً كذلك؟

- لا... لم...

- لكي لا نوجِع رؤوسنا، توقَّف دقيقةً...

أدارت ظهرها إليّ مسرعةً نحو الغرفة لتعود ومعها مرآة، رفعت رأسي مباشرةً نحو المرآة:

- انظر، لكي لا تقول إنني أرتاب بك أو إن ما أقوله مجرد خيال.

نظرت إلى المرآة التي أمامي فرأيتُ نقطتين حمراوين على رقبتي، حقيقةً كان يبدو وكأن أحدهم مص جلدي، لكن كان هذا بفعل أظافري، تذكرتُ أنني في الطريق كنت أحك رقبتي بفعل دملةٍ تنمو بين الحين والآخر في جسمي وتنتقل في كل أنحاء جسمي، بعد ساعات خمس من احتراقي وحيرتي اللذين يدفعانني إلى أن أجن في البراري، وصلتُ إلى اكتشاف سبب التراجيديا هذه، أخرجت المرآة من بين يديها، وأمسكتُ بإصبعها واضعًا إياه على الدملة التي في رقبتي قائلًا لها:

- المسي، انظري، أهذه دملة؟ أم أثرُ تقبيلِ امرأة؟

حينَ لامس إصبعها رأس الدملة وشعرت بها، فهمت أن مشاعرها ليست سوى تخيلاتٍ، وفعلًا هي أثر الحكة ليس إلا، صعدت الدماء إلى وجهها، حاولت أن تحل الموقف بمزاحٍ، لكنها لم تستطع، البرودُ المخيم على المكان، كان برودَ الملل والحزن والخيانة والطلاق، وعلى الرغم من الموقف إلا أن تلك الشبهات لم تفارقني، فكلما وصلتني رسالةٌ على هاتفي الجوال، سواءُ باللغة الكردية أم بالعربية كان يغدو الأمر مثل عقدةِ خيطٍ عظيمة، من المستحيل فكها، لا بالأيدي ولا بالفم، فكل رسالةٍ أرسلها أو تصلني ستكونُ رسالة عشقٍ، أو كان لا بد لي أن أبرهنَ العكس، في يوم مغازلتي لها كان الوضع يتأزَّم، تهز برأسها قائلةً:

- الرب وحده يعلم ما فعلته اليوم في الخارج، حتى تبيعني

كلامًا معسولًا.

وفي اليوم الذي كنتُ أتحدث فيه معها بلسانٍ خشنٍ تقول:

- طوبى لألسنة أزواج الإناث المعسولة، الزوجُ يجلب لزوجته كل الكلمات الجميلة في العالم ليقولها لها، أما أنا فزوجي يجلب كل الكلمات الخشنة ويأتي ليحدثني بها.

لأنني كنتُ أعيش في منزل وهي بآخر، كان قلبها مرتابًا، ودائمًا ما كانت تُسمعني:

- الرب وحده يعلم ما تفعله في ذلك البيت.

ولكي نعتاد بعضنا بعضًا وأبعد الشبهات عن نفسي تركت منزلي وأتيت لأسكن معها، عشنا معًا في منزلٍ، وعوض أن تلينَ الأجواءُ في ما بيننا مع هذا الدنو إلا أن الأجواء كانت تضطرب أكثر، لأجل ذلك سكنت في بيت أوسع حاولت أن يكون منزلًا ومرسمًا أعمل به، يومًا إثر آخر كنت أتوصل إلى يقينٍ بأن الخيط الذي يربطني بساندرا هو دانا ليس إلَّا، دون أي مواثيق أو أوراقٍ بيننا قرّرنا أن ننفصل وأن أزور دانا نهاية كل أسبوع.

الخرزة 35: الوِحدةُ وتوأمةُ الفنّ

انفصالي عن ساندرا أعادني إلى المرآة التي بداخلي، الزواج والمنزل بمثابة أقراصٍ لتسكين أوجاع الرأس، وكذلك لتسكين أوجاع الوحدَةِ لفترةٍ، ولكن مع تصدّع أعمدة البيت يعود ذلك الألم مرةً أخرى وبشكلٍ أشد، عدتُ مرةً أخرى إلى الجدران الأربعة، الشيء الجديد أنه وخارج هذه الجدران الأربعة ثمة جزءٌ من روحي وهي دانا الصغيرة، هذا الأمر كان يزيد من شدة وحدَتي، فجأةً اشتهيتُ خلط الألوان والجنون أمام قماش اللوحة الأبيض، حولت غرفةً في منزلي إلى النوم فيما الأخرى إلى غرفةٍ للألوان، مثل مجنونٍ مشتاقٍ إلى الركض في الشوارع، رميتُ نفسي إلى درب الألوان، وبشغفٍ شديدٍ كانت روحي تركض في دروب الألوان المختلفة، كانت دانا قد رققت قلبي أكثر، فهي غيرت نظرتي إلى العالم وبخاصة نحو الأطفال، قبل ولادتها لم أكن أعرفُ أنّ المرءَ يشفقُ أكثر على الأطفال في هذا العالم، الطفلُ مخلوقٌ ضعيف ودائم الحاجة إلى عون الكبار، بقلبٍ دافئٍ كنتُ أراقبها وهي تكبر لحظةً إثر أخرى، قلت لأمها:

- إن تنكرنا يومًا ما لهذه الطفلة سوف تموت.

هكذا كنتُ أخاف على موتها المفاجئ، فإن مرّ وقتٌ من دون أن أسمع صوتها، كنت أسرع إلى الاستماع لدقات قلبها ومراقبة تنفسها ليطمئن قلبي، كنتُ أتألم أكثر منها في مرضها، ومع

ابتسامتها كانت تنبت لي أجنحة أطيرُ بها. رويدًا رويدًا كانت تكبر أمام عينيّ وتصبح قريبةً إلى القلب أكثر.

مؤخَّرًا ثمَّة حلمٌ غريب لا يتركني وشأني، ففي كلِّ ليلةٍ كنت أحلم أنَّ دانا تضيع، وفي كل مرَّةٍ كنتُ أتأخر في الذهاب لنجدتها، فأستيقظُ وقد تيبَّس حلقي وخائفًا، وأحيانًا كنت أراها وهي تتحوَّلُ إلى كتلة عجينٍ، وحين أحملها تتساقط أعضاؤها من بين يدي فيما يبقى بعضها على الأرض، وحين أستيقظُ يطمئنَّ قلبي إلى أن ذلك مجرَّد حلم، والحقيقة هي أنَّ ابنتي على قيد الحياة وبصحَّةٍ جيَّدة، كنتُ أفرح لكنني أفقد القدرةَ على النوم، عشرات المرَّات أفقدُ القدرة على النوم في منتصف الليالي، وفي اليوم التالي عند ذهابي إلى مكان التعليم كنت أنام في الدرس، وبعد سنتين بصعوبةٍ وسهولةٍ حصلت على شهادةٍ في الترجمة بشكلٍ رسميّ، كانت الخطوة الأصعب في رحلة العثور على عملٍ، وها قد تحقَّقت.

لم يساعد الفنّ روحي لكي أصل إلى نتائج، ولا إلى نتيجةٍ في حياتي اليوميَّة في أن أحسِّنَ من وضعي الاقتصاديّ، ولكن ها هي الترجمةُ التي كنتُ أمارسها منذ طفولتي ستغدو مهنتي المستقبليَّة، هذا الأمر كان يُلئِمُ كَسر قلبي بأن أبني جسورًا بين أهل وطني وأهل هذا البلد، شيءٌ يشبهُ ماءً عذبًا يتسلَّلُ إلى النار التي في داخلي.

الخرزة 36: خرزةُ حانوت الاندماج

«الاندماج» كانت مفردةً لا يمكن فهمها بسهولةٍ، ويَصعُب ترجمتها، أحيانًا تأتي بمعنى الحياة المشتركة، سوى أن ترجمتها تبقى حسرةً، لأن المعنى المُراد بها هو: هؤلاء الناس الذين يتركون مجتمعهم نحو مجتمع أوروبي لا بدّ أن يندمجوا مع مجتمعهم الجديد، أو أن ينخرطوا فيه ويؤسسوا لأنفسهم أماكنَ داخله، ومع الدخول اليومي للاجئين بشكلٍ سرّي إلى أوروبا كان ثمَّة حديثٌ دائم عن هذا الموضوع، فمنذ عقودٍ هناك حديثٌ مستمر حول سؤال حياة الثقافات واللغات المختلفة سويَّةً في هذا البلد، ومؤخَّرًا بعد تخصيص مبالغ نقدية ضخمة من قبل الاتحاد الأوروبي لصالح المؤسسات المهتمَّة بشأن الاندماج، بدأت حركة بعض الدول تزداد في سبيل الحصول على جزءٍ من تلك الأموال، حيث بدؤوا بإدارة المشاريع والمؤسسات، وهكذا باتَ الاندماج عبارةً عن سوقٍ يريدُ الجميع أن يفتح له حانوتًا في إطار هذا المسمَّى، بهذه الطريقة بدأ الجميع يتسابقون، ومن بين تلك الحوانيت كان ما يسمَّى بالترجمة، وفورًا اختاروني للعمل كمترجمٍ مختصّ لديهم، الحانوتُ الذي بدأتُ العمل فيه كان يسمَى باسم الاندماج وكلّ العاملين فيه كانوا غرباءَ، لكن على الرغم من ذلك المسؤولون عنه وذوو الرواتب المرتفعة لم يكونوا غرباء، منذ عشرات السنين يمارس أصحاب تلك الحوانيت هذا العمل، العشراتُ من الفروع المهتمّة بشؤون الغرباء كانت متوفَّرةً في

ذلك السوق، ومن إحدى تلك الفروع كان فرع الترجمة، صيتٌ وسمعة وثقةٌ من كل الأطراف حتَّى من قبل المؤسسات المرتبطةِ بالدولة وغيرها، بدءًا من المستشفيات وانتهاءً بمؤسسات الدولة، كقسم شرطة اللاجئين، مؤسسات تسيير شؤون الأطفال والشبَّان والنساء والعجائز وهكذا، ومتى ما احتاجوا إلى الترجمة كانوا يتّصلون بحانوتنا ويطلبون المترجمين، فيما كانوا يتقاسمون الحساب والنفقات، هكذا كانت حياتي تستقرّ، وباتت أيامي تسيرُ متشابهةً، العملُ كلّ الأسبوع ومع نهايته رؤية دانا الصغيرة التي كانت بمثابة فرح كبير وحزنٍ أكبر في حياتي.

في الأيَّام الأولى التي أعقبت انفصالنا كانت عيني دائمًا نحو ساندرا، لا أعرفُ إن كانت تلك الرغبة اشتياقًا للعودةِ إليها أو لأنّها تهتم بالصغيرة، لكنني اكتشفتُ أنَّها قد أخرجتني من حياتها بشكلٍ مطلق وتتصرَّفُ على أساس انقطاع علاقتنا بشكلٍ تامّ، هذا الأمر أراحَ رأسي قليلًا، هذا الأمر أشعرني بالحزن، سوى أنّه أراحَ رأسي قليلًا لكي أحاول أن أُخرجها من حياتي أنا أيضًا، كنتُ أشعر بنفسي وكأنَّها لا تستطيع أن تعيش يومها، ثمَّة شيءٌ يُرجعني إلى الخلف دون أن يكون بمقدوري أن أضعَ نهايةً لانشغالي بالأمس، وعلى النقيض مني كانت ساندرا تُجيد أن تعيش يومها كما هو مطلوب دون أن يشدَّ الأمسُ ذهنها، كنتُ أتمنَّى حال أيِّ أحدٍ، فكلّ من حولي كان يعيشُ كما يحلو له وكما يريدون، فيما كنتُ أعاني من شيءٍ منكسرٍ داخل روحي يمنعني عن العيش، دون أن أعرف الشيء المُنكسر، شيءٌ ثقيل ومؤلم

كان يتسلّلُ إلى داخلي، جرحٌ عميقٌ ومفتوح، تارةً يختفي الألم وأنسى الجرح، وتارةً ينفتح الجرح ليبدأ الألمُ الغادر، لا دواءَ لهذا الجرح، ولا يمكن له أن يلتئم من تلقاء نفسه، وددتُ هذه المرَّة، مثل بانٍ للجسور، كما كانوا ينعتونَ مهنتي، أن أبني الجسور المنهارةَ بين الناس الذين يعيشونَ سويَّةً دون أن يفهم بعضهم بعضًا لكي أحاول أن أستطببَ جرحي أيضًا، كنتُ أفرح لتقارب الناس، ولا سيَّما حين كان عدم الفهم يمّحي ويُزرع مكانه حبٌّ عوضَ النفور الذي بدواخلهم، لذا كنتُ أستقبل بفرحٍ التكليف بشؤون الترجمة، وهكذا باتَ أكثرُ من ترجمتُ لهم جزءًا عظيمًا من حياتي، والأصحُّ من كل ذلك باتوا جزءًا منّي أنا نفسي، جزءًا من جسدي وروحي.

الخرزة 37: خرزةُ الخوف من «حمزة» الهارب

كنتُ مطلوبًا أكثر من جهة المستشفيات الخاصَّة بالأمراضِ النفسيَّة، فأغلب الكرد أو العرب الذين لم يكن باستطاعتهم الحصول على حقِّ الإقامة كانوا يتوجَّهونَ نحو الأطبَّاء النفسيّين بغية الحصول على تقارير صحيَّة لكي يشهروها للمؤسسات الرسميَّة لأجل تحسين أوضاع لجوئهم، أو إيقاف قرار ترحيلهم، الكثير منهم كانوا يُرسلون ويُنصحونَ من قبل المحامين أو المسؤولين عنهم في المؤسسات ذات الصلة بشؤون اللاجئين.

كان حمزة واحدًا من هؤلاء الذين اختلط ذهنهم وتوجَّه نحو المصحّ النفسي، مرَّ على مجيئه إلى ألمانيا عشر سنوات، دون أن يحصل على حقِّ الإقامة، الكلمةُ التي كان يكرهها اللاجئون هي (دولدونغ)، وهي عبارة عن ورقةٍ تشبه الهوية الشخصيَّة تُمنَح لكلِّ لاجئٍ تم إغلاقُ ملفِّ لجوئه، دون أن يحصل على حقِّ الإقامة ويُعرفُ كشخصٍ يتمُّ تجهيزه لإعادته إلى بلده، وهكذا كان يُحرَم من كلِّ حقوق المواطنة وتصعُب عليه الحياة، أمَّا حمزة فقد خطا خطوةً نحو الأمام على النقيض ممَّن هم في حالته ولا يعثرونَ على عملٍ، فقد افتتح مقهىً صغيرًا وجميلًا، ولأنّ لغته الألمانيَّة كانت تكفي فقط للبيع والشراء فقد طلب مترجمًا في المشفى لكي يتمكَّن من التحدّث إلى الطبيبة النفسية ويتمّ ترجمة كلامها أيضًا. كان حمزة رجلًا في الخامسة والخمسين من عمره، أشيبَ

الشعرِ والشارب الناعم، يسردُ محتارًا وغاضبًا حكايته، كان من قاطني ريفِ (ماردين)، وفي خضمّ الحرب الدائرة هناك ونظام قطَّاع الطرق أحرقت الدولةُ قريته وهدمت بيته، هرب مع أطفاله وعائلته نحو (مِرسين) وافتتح مقهىً صغيرًا له ليقتاتَ منه دون أن يعلَم أنَّه افتتحه في مكانٍ يكره فيه الأتراكُ الكردَ، ولأنّه كردي فقد كان مستهدفًا من كلِّ الأتراك هناك، سرقوهُ مرَّةً، ومرَّةً أخرى كسَّروا باب المقهى، ومرَّةً أخرى جلسوا وأكلوا دون أن يدفعوا ثمن مشروباتهم ومأكولاتهم ليحلّ الأمر عن طريق الشرطة، لكن كان يبدو لهم أنّ حمزة لن يغادر المكان بنفسه، فهاجموه وضربوه ضربًا مبرحًا وكسَّروا المقهى ونهبوا منزله، أعطوه مهلةً قصيرة لكي يغادر (مِرسين)، لأنّهم يرفضون الكرد (القذرين) في وطنهم! فخرج حمزة من كلِّ تركيا خلال ثلاثة أيَّام متوجِّهًا نحو ألمانيا، وفي هذا البلد حين حصل على ترخيص افتتاح مقهىً صغير، وعدا عن مشكلته في اللغة كان يستطيعُ القيام بكلِّ شيءٍ بمفرده، وظّف شابَّين أقبلا إلى ألمانيا منذ زمنٍ، وخلال فترةٍ قصيرة بدأ العشراتُ يرتادون المقهى الصغير، مؤخَّرًا لاحظ أنّ هناك حركةً لمجموعةٍ من الشبَّان الألمان حول المقهى دون أن يعلم ما الأمر، أحيانًا كانوا يحطّمون زجاجات البيرة الخاصَّة بهم أمام باب المقهى ويمضون، يتحدّثون بصوتٍ مرتفع دون أن يكون بمقدوره أن يفهم منهم كلمةً واحدة، إلى أن أقبلت ليلةٌ كان فيها المقهى فارغًا من الزبائن فيما بقي حمزة وحده، هاجم الشبَّان بزجاجاتهم المكسورة المقهى، فهم من الضجيج كلمةً واحدة قالها أحد الشبَّان المهاجمين وهي «التركيُّ القذر»، في

اليوم التالي شعر حمزة بنفسه وهو في المشفى، ألقى نفسه معصوبَ الرأس ومحاطًا بأولاده وزوجته، بعد ذلك اكتشف أنَّهم حطّموا المقهى وطلبوا منه «التركي القذر» أن يغادر بلدهم، بعد تلك الحادثة اضطّرب وضعه النفسيّ دون أن يستطيع الأطباء فهم آلام جسده أو اكتشاف مرضه، لذا أرسله طبيبه المنزليّ إلى الأطبَّاء النفسيين، سردَ حمزة حكايته كلها ببعضٍ من الجمل:

- في تركيا لأننّي (كرديٌّ قذر) هاجمني الأتراك وطردوني من بلدهم، في ألمانيا لأنّني (تركيٌّ قذر) يريدون أن يطردوني من هنا، هيَّا أيَّتها الطبيبة أوضحي لي هذا الأمر المعقَّد، أليسَ ألمي الوحيد هو أنّني لا أملك وطنًا؟ إن كان لي وطنٌ تُرى من ذا الذي كان سيجرؤ على كرامتي وأن يشرِّدني؟

وحين تحدَّثت إليه الطبيبة النفسيّة عن المصالح التي تفرضها الحدود والتي لا تعرف الشعوب، كانت عيناه تذبل وتسرحان، وكأنّ الكلام لا يعجب رأسه الذي يفكّر، ولكن رويدًا رويدًا تعلَّم الإصغاء سوى أنَّ حيرته كانت في ازدياد.

كان أبًا لأربعة أطفال وعاود افتتاح المقهى، ظاهريًّا كانَ وسيمًا وقويَّ البنية ويبدو أصغر من سنِّه، لكنّه حين كان يجلس قبالة الطبيبة النفسيَّة يفتح قلبه ليبدأ بالكلام، كان يتغيَّر لونه، الخوفُ مغروسٌ بداخله. سمع مرَّةً أخرى أنَّهم سوف يقومون بترحيله، في تلك الأيَّام كان يعرفُ عائلةً تمَّ ترحيلها وفي أجيابهم ورقة الـ(دولدونغ).

حين أقبلوا لإحراق قريته أخرج أباه بمجهودٍ كبير وتوجَّهوا نحو (مِرسين)، كان أبوه يقول إنّه لن يصبح خائنًا ولن يترك قريته إلى مَمَاته، وكذلك أمّه التي اعتبرت أنَّ خروجها من القرية يعتبر موتًا لها.

أحد أزلام الدولة ممن أتوا لإحراق القرية كان قد قال إنهم إن لم يخرجا فسوف يتمُّ حرقهم مثل كلِّ شيء، في الطريق إلى (مِرسين) كان الأب يبكي أكثر من الأمّ، وبعد فترةٍ من خروجهما من القرية ماتَ والده، كان يتكلَّمُ عن موت أبيه وأمِّه بجملةٍ واحدة:

- مات أبي قهرًا على مغادرة القرية ومن ثمّ ماتت أمّي قهرًا على موته.

كان حمزة يودُّ إكمال حياته في (مِرسين)، كان قد أصبح من ذوي العمل ولا يريد المغادرة، فقط كانت عيناه متوجَّهة نحو قريته، وأحيانًا يقول لزوجته:

- إن انتهت الحرب سوف نعود إلى قريتنا، عدا عن ذلك لن نترك (مِرسين).

سوى أنّ حساباته كلّها كانت خاطئةً، فكلّما اضطرّبت الأوضاع السياسيَّة أقبلت جنازات الجنود نحو (مِرسين)، فكان الأتراك يغضبون على الكرد الذين من أمثاله، إلى أن أتى اليوم الذي لن ينساه مطلقًا، حيث هاجم أربعة أشخاصٍ مدججّين بأسلحتهم المقهى، في ذلك الهجوم تأذَّت عيناه وجرح قليلًا، قال له

المهاجمون بصراحةٍ:

- لم نأتِ لقتلك هذه المرَّة، إن لم تغادر المكان خلال أسبوعٍ واحد وحسب، سوف نقتلك.

لذا غادر حمزة المكان، وهكذا كان يريدُ التعبير عن تراجيديته ببعض الجمل:

- هناك لأنّني كنتُ كرديًّا هاجمني الأتراك وأخرجوني من بلدي، وهنا يعتبرونني تركيًّا ويريدون أن يخرجوني من بلدهم، أليست هذه حالاً غريبة يا تُرى؟ أقسم بالله أرى هذه الحالة غريبة جدًّا، ماذا تقول أنت؟

وهكذا كان يسرد آلامه بلسانٍ عارٍ أمام الطبيبة النفسيَّة التي كانت تصغي إليه باهتمامٍ:

- سيعيدوننا إلى أين سيدتي؟ أحرقوا منزلنا في كردستان وأخرجونا مثل الكلاب من مكاننا وقتلوا إمكانية العيش هناك، الحمد لله أنّنا استطعنا الهروب من هناك. في تركيا حوّلوا الحياة إلى الجحيم لأنه لم يكن بمقدوري أن أصبحَ تركيًّا والحمد لله مرَّةً أخرى أنّنا استطعنا الخروجَ أحياء ولجأنا إلى هذا البلد، والآنَ هنا يهدِّدُنا البعض ويريدون طردنا، فيما البعض الآخر يريدون ترحيلنا عَنوةً، لكن هؤلاء الذين يريدون ترحيلي وترحيل أولادي الذين كبروا هنا، إلى أين يريدوننا أن نرحل؟ هناك كنتُ أرى صور الأربعة الذين هاجموني

في عيني كلّ تركي، وهنا أُبصِرُ صور الشبَّان الأربعة الذين هاجموني في عيني كلّ ألمانيّ، أرجو المعذرة، لكن هذه هي حالتي، إن كانت لديكِ طريقة لتخليصي من هذه المشاعر التي تخيفني وتقسو عليّ في الآنِ معًا فلتتكرَّمي.

كانت الطبيبةُ النفسيةُ تصغي وهي تدوِّن ملاحظاتها، وأحيانًا كانت بتحاليلها وأسئلتها تفتح جروح حمزة، وهكذا ساعةً كلَّ شهر ليفتح قلبه المليء بالأحزان لهم وللطبيبة النفسيَّة ومن ثمَّ يعودُ أدراجه، كان يأتي ليريحَ قلبه ويخفِّفَ حِمله بعضَ الشيء، لكنَّني كمترجمٍ له كنتُ أغدو حاملًا لهمِّه، يأتي ليخفِّف حِمله سوى أنَّهُ يُثقِلُ حملي، كان يذكِّرني بعلاقتي بالمكان الذي لا أتحمَّلهُ ولا يتحمَّلُني، مثل غريبٍ يتيم عشتُ في بلدي، ولكي أنجو من غربة البلد لجأتُ إلى غربةٍ أخرى، أليست هذه حالًا غريبة يا تُرى؟ في وطني كنتُ أهربُ من الغربة، وفي الغربةِ أبحثُ عن وطنٍ، كان حمزة مرتاحًا أكثرَ مني، يجمع أحاسيسهُ كُلَّها في جملةٍ واحدةٍ وحسب ويسمّيها بالـ«خوف»، كانَ قد خبَّأ معه خوفَ الأمس، ويخافُ من الغدِ والأمسِ معًا، أمَّا أنا فلم يكن خوفًا فقط، إنَّما أشياءُ كثيرة وليس شيئًا واحدًا، كنتُ أبحث لها عن اسمٍ، لكنني لم أعثر.

الخرزة 38: خرزةُ المصادفة

أحمد الكركوكيّ رجلٌ في الرابعة والأربعين من عمره، لحيته طويلة، ويرتدي قبَّعةً سوداء، ودَّ أن يظهر مثل «آرنستو تشي جيفارا»، سوى أنَّ الأمر لم يكن ليليقَ به، لأنَّه كان قصيرًا وناعمًا ومربَّعًا، وعلى إثر أمراضه العديدة كان دائمًا يحملُ العصا عوضًا عن عكَّاز، كان يختار عصاه بنفسه ويصنعها أيضًا، مع مرور الزمن باتت لهُ معرفةٌ كبيرة بصناعة العصيّ وفي كلِّ مرَّةٍ يصنعُ رأس العصا على هيئةِ رأسِ حيوانٍ صغير.

كريستينا هوفمان الطبيبةُ النفسيَّة كانت مسؤولةً عنه، امرأةٌ جميلةٌ وحسناء مبتسمة وهادئة يحبُّها جميعُ المرضى، وخلال فترةٍ قصيرةٍ كانت تأخذ الأمان من مرضاها وتصبح مصدر طمأنينةٍ لهم، وأغلب مرضاها كانوا إمَّا عربًا أو كردًا، كان أحمد الكركوكيّ واحدًا منهم وكان يتحدَّثُ أحيانًا باللهجة الصورانيَّة وأحيانًا أخرى بالعربيَّة أو الكرديَّة، كان يدوِّنُ ذكرياته بدءًا من طفولته مرورًا بالأحداث اليوميَّة باللغة العربيَّة ويترجمها بنفسه إلى الألمانيَّة ويجلبها لطبيبته التي كانت تقرأ وتصحِّحُ له، على الرغم من أنَّه كان يتقن الألمانيَّة بعض الشيء لكنّهما اتفقا أن يسرد أحزانه بالعربيَّة أو الكرديَّة لأنّه لن يستطيع التعبير بحريَّة في الألمانيَّة، لذا وكلَّما أتى إلى مكان اللقاء يحمل معه جدولًا ببعض المفردات ويطلبُ منّي ترجمتها، كان يقولُ أحمد إنَّه

صندوقٌ للأمراض:

- كاكا[5]، إن خلعت ملابسي هذه لن ترى مكانًا سليمًا في جسدي.

في كلِّ مرَّةٍ يأتي فيها إلى اللقاء كان يخصِّصُ نصف الوقت للحديث عن الجروح الظاهريَّة فيما النصفُ الآخر، وعلى حدِّ قوله، للحديث عن الجروح الخفيَّة.

- كاكا، إن كانت هناك إمكانيَّةٌ لرؤية عذاب القلب أو ألمِ الروح، كنت سترى أنَّ بدني هذا عظمٌ وجِلد، فقط قشورٌ معَ كوماتٍ من الجروح العميقة، مخفيَّةٌ وغادرة.

لذا كان أحمد صاحب عنوانٍ خاصّ يسمَّى بعنوان ذوي الاحتياجات الخاصَّة، ولأجل ذلك كان يذهب إليه في المنزل ومرَّةً في الأسبوع شخصٌ يدعى هير كونج، بغية مساعدته وتأمين احتياجاته.

الجلدُ الذي بين أصابع قدميه كان يتساقط، تتورّم ركبتاه، أذنٌ من أذنيه كانت تعاني الطنين ولا يسمعُ بها، عيناه تحمرَّان وفي بعض الأحيان تزرقّ حولهما، يعاني من آلامٍ في الظهر ولا يقوى أحيانًا على السير بشكلٍ مستقيم، وحين يُسأل عن أيّ من عائلته فإنّه يقول قد قُتِل، بهذا الشكل كان يقول: إنّ من ضحايا الحرب

5- مفردة كاك أو كاكا تعني الشقيق أو الأخ في الكردية.

الأخيرة على كركوك زوجته واثنان من أولاده، وحسب زعمه فإنَّه كان من عائلةٍ كبيرةٍ وكنتيجةٍ لمشروع تعريب كركوك، فإن النظام العراقي هناك جلب الآلاف من العرب ليسكنهم في بيوت الكرد ونهبوا عائلته بالكامل، وهو الوحيد من بين عائلته أوصل نفسه نصفَ حيٍّ ونصفَ ميِّتٍ إلى بلد الحياة، وعلى حدِّ تعبيره فإنّ النفط الكبير في تلك المدينة كانَ قد غدا بمثابة البلاء لهم، في مذكّرات أحمد اجتمعت السياسةُ والبترول والحقد والأحلام والشكوك والأحزان مع الآلام التي بداخله على المئات من الأوراق، ومن جهةٍ أخرى كان يقول إنّه إمَّا لا ينام وإن حدث ونام فإنّه يخافُ من الاختناق وهو نائم، ولكي يُطلِعَ طبيبته النفسيَّة على تفاصيل حالته فإنَّه كان يصوِّرُ معاناته حين يدنو من الموت ويختنق، يكبِّرُ الصور ويؤطّرها ويجلبها معه إلى اللقاء، جمعَ العشرات من صوره التي يظهر فيها محدقًا وبفمٍ مفتوحٍ ومختنق، كان يقول:

- هذه الصور كلّها فنٌّ، كاكا، يومًا ما سأقيمُ معرضًا فوتوغرافيًّا لصوري هذه وأسمّي المعرض بعنوان: «لحظاتُ ما قبل الموت»، كل إنسانٍ يموتُ مرَّةً واحدة، إلَّا أنا، أموتُ يوميًّا.

حين رأيتُ صوره للمرَّة الأولى تسلَّل خوفٌ إلى داخلي، لكن مؤخَّرًا بتُّ أنظر إلى تلك الصور بعينٍ أُخرى ولم تعد تشد انتباهي، كانَ أحمد رقيقَ القلب ويبكي بسرعةٍ، لا سيَّما حين كان يبدأ جمله بعبارة: «أنا»، ففي كلِّ حديثٍ عن الفقر، اليتم، الغربة واليأس الذي يحيط به، كانت دموعه تغلبه ليكمل حديثهُ وهو

يبكي، وأحيانًا إن بقينا وحدنا كان يفتح قلبه لي بطريقةٍ أخرى:

- في وطني كنتُ مثقَّفًا كبيرًا كاكا، كنتُ معماريًّا، الجميع كان ينتظرُ رأيي، لكن هنا؟ هنا أنا صفرٌ يا كاكا، صفر، أتفهمني؟

وفي بعض الأحيان حين كان يأتي إلى موعده، وحين يدخل إلى طبيبته النفسيَّة، كنتُ في المنتصف وهو إلى جانبٍ وكريستين قبالته، وفجأةً وكأنّه في لقاءٍ غراميّ كان يُخرج زجاجة النبيذ ويضعها أمامه طالبًا من كريستين أن تشاركهُ الشربَ، في كلِّ مرَّةٍ حين تساعده في تسيير أموره، كان يبكي، قائلًا لها بأنّه لا يملكُ أحدًا سواها في هذا العالم، أخبرته ذات مرَّة أنّها من المحتمل أن تترك العمل في المشفى، لم يتوقَّف أحمد عن البكاء وكان يقول:

- لن يستطيع أحدٌ مثلك أن ينجح في مداواة آلامِ روحي.

ومؤخَّرًا حين عرف أنّها ستبقى اطمأنَّ قلبه، ومرَّةً أخرى كعادته كان يأتي قبل ساعاتٍ من موعد لقائه إلى المشفى، لم أكن أساعده في المشفى وحسب، بل كان لا بدّ أن أذهب برفقة هير كونج إلى منزله لكي أترجم، فجأةً رأيتُ نفسي قد انضممتُ إلى ضجيج حياة أحمد الكركوكيّ وباتت حكايات حياته جزءًا من حياتي، كيف وصلت بي الحالُ إلى هذه النقطة، تلكَ حكايةٌ أخرى كانت لا بدّ أن تستقرّ في صندوق حكايته.

الخرزة 39: خرزة صندوق أحمد الكركوكيّ

كانَ هير كونج الذي يأتي إلى منزله في الأسبوع مرَّةً واحدة، على النقيضِ منه، طويلًا وذا جثَّةٍ ضخمةٍ ومحمرَّ الوجه، رجلًا ضخم الجثَّة وذا شعرٍ أصفرَ وعينين زرقاوين، كان مجتهدًا جدًّا في عمله، لكنّه كان يغضبُ من الكاميرا التي بيد أحمد، لأنّه كان يرفضُ أن يلتقطَ له صورًا، سوى أنّ أحمد لم يكن يفهم السبب:

- أنا لا أفهم من هذا الرجل، هو ليسَ مسلمًا لكي يقول إنَّ الصور حرامٌ وليس هناك مخابرات سوريَّة أو عراقيَّة في هذه الأنحاء لكي نقول إنَّه يخاف من أن يلتقط صورًا معي، أليسَ أمرًا غريبًا؟

وحين لم يكن هير كونج يفهم لِمَ يريدُ أحمد أن يأخذ صورًا معه:

- أرجوك، حاول أن تُفْهِمَه، التصويرُ بحدّ ذاته أمرٌ شخصيّ، وليس كلّ الأشخاص يحبّون التقاط الصور.

بين الجدّ والمزاح قال لي أحمد:

- في الحقيقة، أخافُ يومًا أن يغضب هذا الرجل الذي يشبهُ دبًّا، أقسم لك إنَّه بإمكانه بيدٍ واحدةٍ فقط أن يرفعني ويرميني مثل بطّيخةٍ، ماذا سأقولُ لنفسي آنذاك؟

لكنّ مرَّت الأيَّام ولم أسمع يومًا أنّ هير كونغ قد غضب منه، الذي غضب منه هو جاره العربيّ من العراق الذي كان يتحدَّثُ عنه بشكلٍ يوميّ تقريبًا.

جارهُ كان عربيًّا من العراق ويقول إنَّه ضابطٌ قديمٌ من ضبَّاط النظام العراقي، وإنَّه أتى إلى هنا جالبًا معه كل حقده القديم على كل شخصٍ كرديٍّ مثله إلى هنا ويريدُ أن ينتقم:

- يا لحظّي السيئ، البابُ قبالةَ الباب، ولأنّ صندوقي بريدنا قريبان بعضهما من بعض، فإنَّه يسرق رسائلي بعضَ الأحيان، لا يريدُ أن تسير أعمالي في هذا البلد، يهددني، وهاجمني ثلاث مراتٍ سوى أنّني أدافع عن نفسي بالعصا هذه وأضربهُ أحيانًا.

في المرَّة الأخيرة أخرجت أحمد من بين يدي جاره الأصلع البدين وأبعدتهم عن بعض، كان أحمد يقول:

- كاكا، إنّني أخاف من صاحب العين الحمراء هذه، أنت تعرف أنّني معتلٌّ بألف مرض، وإن حصل وهاجمني يومًا ما في منزلي من ذا الذي سينقذني منه، كاكا، إن أتيت مرَّةً ورأيتني مقتولًا في منزلي فاعلم أنَّه هو السبب، كاكا من فضلكَ ابحث لي عن منزلٍ آخر، أريدُ أن أخرج من هذا المنزل.

حاولتُ أن أفهمه أنَّه لن يستطيع تغيير منزله ما لم يحصل على إذن عمل أو أن يكون ثمَّة سببٌ واضح، بعد فترةٍ طويلة

نسيتُ فيها شجاراته مع جاره بالكامل وصلتني رسالةٌ من المحكمة، توضَّح الرسالة أنَّ جاره قد ادّعى علينا نحن الاثنين قائلًا للمحكمة بأنَّنا هاجمناه سويَّةً، ذهبنا إلى المحكمة وأنكرنا كلَّ ادّعاءاته، في المحكمة رأيتُ ذلك اليوم بأمَّ عيني كل الأكاذيب والأسرار والحمامات الميّتة التي كانت تخرج من فم الجميع.

ثمَّة صندوقٌ كبير في منزل أحمد، دائمًا كان يحدِّثني عنه:

- هذا صندوق والدتي يوم عرسها...

كان الصندوقُ مليئًا بأوراقٍ قديمةٍ مصفرَّة وجديدة، كانت حياته بأكملها، حلوها ومُرّها في ذلك الصندوق، أخبرني بوصيَّته:

- إن متّ كاكا، أريدُك أن تحرق هذه الأوراق كلها، لأنّها حياتي، وحين لا أكون حيًّا لا أريدُ لها أن تكون موجودة، الأمر الآخر، أريدُ أن تحوِّلَ هذا الصندوقَ إلى تابوت لي وادفنوني فيه وأنزلوني إلى القبر فيه، هذا ليس صندوق أمي وحسب، إنّه رحمها كذلك، هل تفهمني كاكا؟

لم يكن بمقدوري فهم فلسفته في الحياة بشكلٍ كامل، لكنه على الرغم من ذلك كان قد باتَ جزءًا من حياتي، أرافقه إلى المحكمة، إلى المشفى، وكل مكانٍ يذهب إليه كان لا بدَّ أن أكون برفقته لكي أترجم له، كنتُ أعرفُ أنَّه مرتبطٌ بالحياة إلى النهاية وأنَّ قلبه المُستيقِظ لن يتوقَّف بهذه السهولة، لكن كلامي كلّه كان خاطئًا، فبعد عامٍ على وصيّته عثروا على جثَّتهِ في الصندوق.

ترك أحمد وراءَهُ قليلًا من الأحلام وكثيرًا من الانكسارات وغادر.

الخرزة 40 : خرزة الطفلِ المُوشِكِ على الموت

أصعبُ لحظات حياتي أمضيتها بين تلك الجدران المُحكَمة، مع الأطفال الموشِكينَ على الموت، لم أرِد لأجل الترجمة أن أدخل إلى ذلك المستشفى المخصَّص للأطفال وبالتحديد إلى قسم الأمراض المستعصية الذي يقابل فيه (طيور الجنّ) كما كان يصفُ أبي الأطفالَ، حين كنتُ أرى هذه الكائنات التي بلا أملٍ ومدهوشة بلا أي خطيئةٍ أو ذنب كانت أبنيةٌ تنهارُ في داخلي، فيما مضى كنتُ أسمع فقط عن مرض الأطفال ذاك، أمَّا من الآن فصاعدًا سوف أكون وجهًا لوجهٍ مع هؤلاء الأطفال، كان ثمّة مترجمٌ يلزمُ لآبائهم وأمّهاتهم.

كانَ أغلب الأطفال المُرسلين إلى هذا المشفى لا يعَونَ شيئًا، أو لا يستطيعونَ الحديثَ ولا مجال للتعامل معهم، اشتعلت نارٌ بداخلي في المرَّة الأولى حينَ رأيتُ طفلةً في عمر دانا، كان عمرها عامًا ونصف العام وحينَ دهمها هذا المرض فقدت قدرتها على النموّ، حيث إنَّ دماغها وكل أعضائها يومًا إثر يوم عوضَ أن تنمو كانت تتقلَّص، فقدت قدرتها على المشي أيضًا، كان أبوها يحملها إلى عربتها الصغيرة، أمّها كانت تراجعُ طبيبًا نفسيًّا كل أسبوع على إثر مرض ابنتها العُضال، والأبُ ما من حيلةٍ بيده، حزينًا ومكسورًا يسردُ حكايته:

- أتينا إلى ألمانيا لأجل هذه الطفلة، قالوا لنا بأنّهم هنا سيعثرون لها على العلاج، لذا بعنا كل ما نملك ووصلنا إلى هنا، والآن يرسلنا الأطبَّاءُ من مكانٍ إلى آخرَ، وإلى الآن لم نفهم شيئًا من أنفسنا ولا من مرض ابنتنا.

الحقيقة هي أنَّ الأطباء في المشفى كانوا يرسلونهم إلى مشافٍ أخرى لأنَّه ما من مكانٍ، موضّحين له أنَّه لا يمكنه أن ينتظرَ شفاء ابنته، طالبين منه أن يتفهَّم ويستطيعَ العيش مع وجود هذا المرض وأخذ الجرعات الدوائيَّة على أمل أن تتحسَّنَ حالتها، هذا المرض من الممكن أن يبقى مع الإنسان طالما هو على قيد الحياة، كانت تلكَ المرَّة الأخيرة التي أرى فيها تلكَ العائلة، حيث حمل الأب والأمّ ابنتهما مكسورين وحزينَين وذهبا.

عدتُ ذلك اليوم إلى البيت خائفًا ولم أنم إلى أن أوصلتُ نفسي إلى دانا وحضنتها ونظرتُ إلى قدميها لأرى إن كانت تمشي بشكلٍ جيِّد، لذا حين تمّ تكليفي للمرَّة الثانية للحضور إلى نفس المكان توسَّلتُ إلى ربّي ألَّا تكون طفلةً هذه المرَّة أيضًا وألَّا تكون في عمر دانا، سخرتُ قليلًا من أمنيتي أن يكون الطفلُ هذه المرَّةَ صبيًّا، لكنّني على أيّ حالٍ توجَّهتُ مكسور القلب نحو المستشفى، وفعلًا كان المريضُ هذه المرَّةَ طفلًا يدعى باور يبلغُ من العمر عامًا، كان مرضه أشدّ، كان يختنقُ، وبمساعدة الأطبَّاء والممرّضين والأكسجين يبقى على قيد الحياة، والأطبَّاء الذين قاوموا منذ اليوم الأول لقدوم باور ومحاولة المساعدة لإبقائه على قيد الحياة أرادوا أن يخبروا أباه وأمّه عن مرضه وأيضًا مشاركتهم

بطريقة العلاج، كان لـ«باوَر» أخٌ وأخت يكبرانه سنًّا وأُمُّهُ كانت قد ضيّعت طفلين بنفس العمر أو ربمَّا ماتا في البلد، كان قد مرَّ عامٌ على مجيئهم إلى ألمانيا، وباور ولد مع وصولهم إلى ألمانيا، السؤال الأوّل من أبيه وأمه للأطباء هو:

- أهناكَ أملٌ في أن يعيش باور؟

بعد شرحٍ مُطوَّل حول مرض الطفل النادرِ جدًّا والذي يُصاب به طفلٌ واحدٌ من أصل ألف، أوضحَ لهُ أن عمرَ باور وأعمارنا كُلُّها بيد الله، سوى أنّ فرصة بقائه على قيد الحياة قليلة، وأكملَ:

- سنفعلُ كُلَّ ما بوسعِنا وبعونٍ منكم على أن نعمل ليتعافى...

كانَ الوالدان يصغيان باهتمامٍ بالغ، فيما طائرُ الحيرةِ الكبير كان قد ضمّهما تحت جناحيه، بعد الحديث، حكَت الممرِّضة المسؤولة عن طعام وشراب باور عن تحسُّن علاقتهم به يومًا إثر يوم واعتياده عليهم، مع حديثها أخرجت صورةً لـ«باور» الصغير:

- كنتُ ألهو معه قليلًا والتقطتُ له هذه الصورة التي يتبسَّم فيها.

حين رأت والدته صورة ابنها مبتسمًا التقطتها على الفور من يد الممرِّضة وبدأت بالنواح، حاولت جاهدةً سوى أنّ دموعها لم تعطِها المجال لتُبصِرَ أمامها، سأل الطبيبُ عن سبب هذا البكاء، ردّت أمُّ باور من بين دموعها:

- أريدُ هذه الصورةَ لي...

- لِمَ؟

- لأنّها المرَّةُ الأولى التي أرى فيها باور مبتسمًا.

حاولت جاهدًا أن أعمل عملي في الترجمة بشكلٍ طبيعي دون أن أبكي، شعرتُ أنّ عينيّ تبتلّان، لكنّني ضغطتُ على نفسي ألّا يتحوَّل هذا البَلَلُ إلى دموعٍ، في تلك اللحظات جابهتُ مشاعرَ غريبة عصفت بي، شعرتُ أنَّ الجسر الذي يبنيه المترجمُ بين جانبين، بين إنسانين لا يفهمان بعضهما بعضًا ينهار بضربةٍ واحدة ليغدو أجزاء متناثرة، أخرجني صوت الطبيب من هذا اللغط:

- جميل، سوف نطبع نسخةً عن الصورة ونعلّقها في غرفته ونعطيكِ الأصليَّة.

ارتاحت الأمُّ بعض الشيء، حتَّى الكلامُ انتهى بعينين مبتلَّتين، من جانب الطبيب ومن جانبي أنا المترجم المكسور الذي كان يُصغي، في ذلك اليوم خرجتُ من المشفى وحين توجّهت نحو الطريق وكأنّني خرجت من تحت حملٍ ثقيل، فجأة أحسستُ بقلبي ينعصر وثمَّة نارٌ أخرى تلهبهُ، وحين رأيت الشارع فارغًا إلَّا من العربات ذات القلوب الحديديَّة استولى عليَّ بكاءٌ وخرج من داخلي صوتٌ يشبه نباحَ كلبٍ جريحٍ، بكيتُ وبكيتُ وبكيت، لم أعرف إن كنتُ أُبكي باور الصغير الذي ينتظر الموت، أم أُبكي

نفسي، أنا الطفلُ الذي أبصرَ النور في بلدٍ لا يعرف الأكسيجين، أم على اللاعدالة التي تصبح من نصيب أطفالٍ لم يكبروا بعد ولم يعرفوا ما معنى الحياة، أو من هم، ولماذا القدر يأتي عكسهم، لا أعلم لمَ كنتُ أشتهي البكاء هكذا، أردتُ أن أبكي نفسي وأُبكي الجميع وهذا ما فعلته، جزءٌ من هذا البكاء هو هذه الكتابة التي دوّنتها، هذه الكتابةُ التي أخفِّفُ بها الألم الذي لا يُحتَمل بداخلي.

الخرزة 41: خرزةُ جوعِ حَسُّون

حمزة سوف أقول لك بالمختصر المفيد يا أخي: حصل معي مثل الذي في فمه الطعام سوى أنَّهُ جائع.

حسّون الذي سقط شعره فيما الشعيراتُ البقيَّة كانت قد ابيَّضت، وأيضًا بطنه كان قد تدلَّى، بألمٍ وحسرةٍ كبيرتين يسردُ لي قلقه، وأنا كنتُ أترجم ما يقوله كلمةً كلمة للطبيبة النفسيَّة التي بإصغائها من قلبها والسحر الذي تبثُّهُ عيناها تحرِّضُ حسّون على المضيِّ في الحديث بكبدٍ محترق، هذه هي الحقيقة، وكأن لا أحد أمامه، من قلبه وبكلماتٍ عاريةٍ كان يتكلَّمُ إلى طبيبته النفسيَّة:

- أفهمت ما قلتهُ لك؟ قلتُ إنَّ ألمانيا مليئة بالنساء والفتيات الجميلات يجبنَ الشوارع، يخالُ للمرء أنَّهُ ما من رجالٍ في هذه البلاد، وإن وجدوا فهم رجالٌ هشّون وناعمون لا يكفونَ لإشباع زوجاتهم، مع ذلك فإن صعوباتي وشقائي الكبيرين في هذه البلاد هما النساء، تعرفُ أنَّني من فلسطين، أتعرفُ أنَّ العثور على زوجةٍ هناك أسهل من هنا.

وحين كان يتحدّث له أحدهم عن اللغة كان يقول: اللعبُ لا يستوجِبُ اللغةَ.

- إن أراد الناس ذلك، فإنَّهم يستطيعون أن يفهموا بعضهم بعضًا عبر العيون، ولكن لا بدّ أن يكون ثمّة جذبٌ يشبه المغناطيس بين المرأةِ والرَّجل، البعض يسمّونه «كيمياء»، فإن انتفت تلك الـ«كيمياء»، فلن يستطيع الاثنان أن يجتمعا، وأنا رأيتُ الكثير من هكذا نساء، إن كنت أراهم كان اللهيب يحرقُ تحتَ أذنيّ ويحترقُ قلبي، سوى أنَّني كنت أفشل في الاستحواذ عليهنَّ، لا أعرفُ لمَ أنا سيئ الحظِّ معهنَّ على الرغم من محبّتي الشديدةِ لهنَّ وقلبي معلَّقٌ بهنَّ، لكنهنّ لا يحببنَني، المرأةُ تتطلَّب إمَّا الجيوب المليئة أو الكلامَ المعسول، وأنا أفتقدُ للأمرَين. ففي كلِّ مرَّة أبصر فيها امرأةً أشتهيها تغدو فراشةً، والفراشاتُ ربمَّا لا تعرف أنّني أخاف منها، وهي حينَ تراني تهاجمني مباشرةً، أتعرفُ أنَّ حكايتي مع الفراشاتِ قديمة، كان والدي يربَّي فراشاتٍ، يصفهُ النَّاسُ على أنَّه وليٌّ من أولياء الله لذلك فإنّ الفراشات تحتمي به هكذا، لكن لم يكن الأمرُ كذلك، لقد كان يحبُّ الفراشات لأن أعمارها قصيرة، كان دائمًا يقول لي إنَّ أعمار الإنسان والفراشات قصيرة لذا كان يفرحُ بتربيتها، الفراشاتُ والإنسان أيضًا يأتيان سريعًا ويغادران كذلك، الاثنان مساكين وعمرهم القصير ظلمٌ ولا عدالة.

الطبيبةُ النفسية كانت تصغي باهتمامٍ، وهذا الأمر كان يحرِّضهُ على الحديث أكثر:

- كان أبي يعيدُ على مسامعي هذا الكلامَ دائمًا، وفي اليوم الذي

مات فيه لم يكن أحدٌ منَّا بجانب سريره، كان هو وفراشاته فقط، أغمض عينيه بينهم، ودّعهم دونَ أن يودِّعني مغادرًا.

قالت أمّي إن أبي كان يفهم لغة الفراشات لذلك فهي تحوم حوله دائمًا، وبعد مماته كانت الفراشات تحطُّ دائمًا على شاهدة قبره ومن ثمَّ تطير في الهواء، إلى أن مات أبي لم أكن أخافهم، سوى أنّ تحليقهم فوق رأسي بعد مماته أشعرَني بالخوف، كانت أمي تقول:

- كلّ فراشة من هذه الفراشات روح إنسانٍ ميِّت ولا يجوزُ أن نزعجها.

وهكذا كلَّما أبصرت والدتي فراشةً في منزلنا تقول إنَّ ثمة ضيوفًا سوف يقبلون، وحسب كبر الفراشةِ أو صغرها يحدَّدُ الضيف إن كان كبيرًا أم صغيرًا، مؤخَّرًا كلَّما رأيت فراشاتٍ تحومُ حول رأسي كان يعتريني إحساسُ أنَّها أرواح الموتى وقد أتت لتأخذني معها، حين كانت ترتطمُ بأذني وعينيّ كنتُ أشعرُ أنَّ بها رغبة وضع يدها في رقبتي وقتلي، عشرات المرَّات استيقظتُ شبه مختنقٍ على إثر أحلام الموت، لنعد إلى موضوع النساء، في مرَّة ابتسم ليَ الحظُّ، اصطحبتُ امرأةً معي إلى المنزل، لكن قبل أن ألمسها أتت الشرطةُ وطلبت منّي بلغةٍ ألمانيَّة وجوبَ دفع الضريبة، لأنّ هذه البلاد ثمَّة ضريبةٌ لكلِّ شيء، بدءًا من الراديو والتليفزيون وصولًا إلى لا أعرف ماذا، هكذا فهمتُ أنَّني لا بدّ أن أدفع الضريبة قبل أن أنام مع تلك المرأة، وأنا لم يكن بحوزتي

نقود لأدفعها، لم يدعوني أهنأ بالمرأة، ولأنّني لا أتقن لغة هذه البلاد فالتجأت إلى النساء اللواتي يعرفن التحدَّث بلغتي لأقيم علاقاتٍ معهنَّ، وفي نتيجة بحثي تعرّفتُ إلى امرأةٍ من أصلٍ تونسيّ، وخلال العام الماضي ذهبتُ إلى هناك وتزوّجتها وعدتُ إلى ألمانيا لكي أنهي أوراقها وتأتي إليَّ، لكنّ الفأل السيئ جعلني أصادفُ عددًا من الموظّفين الذين يكرهون الغرباء فتوقَّفت أمور الأوراق والإجراءات كلَّها طالبين منّي الذهاب للبحث عن عملٍ، بعبارةٍ واحدة، هؤلاء الخنازير لا يريدون أن أجلب زوجتي ولا يريدون أن يهنأ غريبٌ في بلدهم ويعيشَ بأمانٍ، آهٍ يا كريستين يا ليت الجميعَ مثلكِ، جميلة، وسيمة، مبتسمة، وتعرفُ كلَّ شيء، وتصغي للمرءِ من كلِّ قلبها وعلاوةً على ذلك تقدِّمُ المساعدة، آهٍ لو أنَّ الله منحني زوجةً مثلكِ!

ها هنا تشوَّش كثيرًا، ولم يعد يعرف كيف يسحب كلامه، أخبرني بأنّ الجملة الأخيرة ما كان عليَّ أن أترجمها لكريستين، سوى أنّ الأخيرة بمعرفتها النفسيَّة استطاعت احتواء الموقف وأن تهدّئ من رَوعهِ رويدًا رويدًا وأن تعيد الكلامَ إلى المكان الذي تريده، منذ ذلك اليوم وكلَّما رآني حسّون بمفردي يسألني عن حالِ كريستين:

- هل لها زوج؟

- لا أعرف.

- لا، لا أعتقد، يبدو واضحًا أنَّها بلا زوجٍ، لم أرَ خاتمًا في إصبعها، ولكن يا تُرى أتملك عشيقًا؟

- لا أعرف.

- أيُعقَل ألَّا تعرف من تحبّ من الرجال وقد مضى على رفقتك معها وقتٌ طويل؟

- أنا أترجم، ولا أتحدَّثُ عن حياتها!

حين كان يرى أنّي لا أعطيه جوابًا جيِّدًا لأسئلته ينهي كلامه هكذا:

- أنا أحمق، فإن كنت تعرفُ هل كنت ستخبرني، إن كنتُ مكانك لن أفلِت فتاةً مثل كريستين من بين يديّ!

بعد هذا الحديث وحين كنّا نصعد الدرج للتوجّه نحو غرفة الجلوس، كانت كريستينا تتقدَّمنا ونحنُ خلفها، كان حسّون بعينين محمرَّتين وبشهوةٍ ينظر إلى فلقَتي مؤخرتها، وفجأةً أوقفني على الدرج ليقول بهمسٍ:

- هل تعلمُ أنّني أدوخ، يا ليت هذه المرأة تهبني نفسها ولو لمرَّةٍ واحدة وليقبل الموتُ بعد ذلك أهلًا ومرحبًا به.

لم أعد أعرف إن كنت لا بدَّ أن أضحكَ أو أبكي، وبطريقةٍ جديَّة طلبتُ منه أن يسأل هذه الأسئلة حول حياتها من كريستينا بنفسها، في تلك الجلسة كانَ محمرًّا، سوى أنّه سأل كلَّ الأسئلة

التي تدور في قلبه، لتجيب كريستينا عن كلِّ أسئلته أحيانًا بجديَّةٍ تامَّة وأحيانًا أخرى بمزاحٍ، والسؤال الذي جعلها في حيرةٍ من أمرها هو سؤاله الأخير:

- أنا جائع للنساء، جائع، تُرى كيف أُنقِذُ نفسي من هذا الجوع؟

ومع حديثه هذا إلى كريستينا، لم ينتهِ جوعهُ ولم تنتهِ شكواه ممَّن حوله ولا حتَّى انتهى خوفه من الفراشات، لكن رغم ذلك باتَ جزءًا من حياتي، كان يحدّثني عن دوره في سياسة الفلسطينيّين وكان مؤمنًا بأنَّه لو تابع عمله في إدارة المنظمات الفلسطينيَّة لكان الشرقُ الأوسطُ الآنَ في حالٍ غير حاله الرّاهنة، كما كان يشفِقُ على نفسه ويضعُ تاريخهُ كاملًا في جملةٍ واحدة:

- من أينَ أقبلتُ إلى أين! من جائعٍ للحريَّة إلى جائعٍ لمؤخِّرَةٍ صفراء، يوجد أناسٌ يولدونَ ويموتون جائعين، أعتقدُ أنني واحدٌ من هؤلاء، يا لحسرتي على الإنسان.

الخرزة 42: خرزةُ تبديل الثياب

حمو كان داخلًا في عامه السابع والأربعين، أبٌ لعشرة أطفال وقد انتهى عامه العاشر وهو قادمٌ إلى ألمانيا، وفي السنوات العشر كان أطفاله قد التحقوا بالمدارس والجامعات ومجتهدين، كانت زوجته فرحةً بنجاح أبنائها، سوى أنّ حمو لم يكن بمقدوره أن يتعلَّم اللغة الألمانيَّة ولا أن يتعلَّم نمط الحياة الجديدة، وعلى العكس من ذلك وخلال الأشهر الأخيرة وعوضَ أن يتعلَّم على حياة عائلته الجديدة، كانَ كلَّ يومٍ يتحدّث عن أبيه المدفون في قرية «مركَبة» القريبة من «عامودا» والتي باتت عظامهُ ترابًا، فقد قدرته على تناول الطعام وعلى النوم كما كانَ في الماضي، عرضه ابنه الكبير على الأطبَّاء، نصحهم الطبيبُ الأخير بضرورة أخذه إلى المشفى الخاصّ بالأمراض النفسيَّة، وحين عرّفت عن نفسي له على أنّني المترجم، وكأنَّه يعرفني منذ عشرات السنوات، طالبًا مني قبل أيّ شيء أن أترجم له هذه الجملة للطبيبة النفسيَّة:

- لا خبزُ هذا البلد ولا ماؤها لم أعتد عليهما يا ابن أخي، ما كنتُ أرغبُ بالمجيء إلى هذه الأنحاء، كنتُ أعرف تمام المعرفةِ أنَّني والتراب الذي ولدت عليه كما السمكِ والماء، إن ابتعدت عنه سوف أموت، وهذا ما يحصلُ الآن.

منعته الطبيبةُ النفسيَّة من أن يسرد قصَّته كما يحلو له، سوى أنَّ حمو باتَ مثل الماء الذي يغلي فوقَ نارٍ، بحرارةٍ واستعجالٍ

تحدَّثَ، طُلبَ منه الحديث عن مرضه، ردّ حمو وكأنّه يرفع عن كاهلِهِ حملًا ثقيلًا:

- أبي...

وحين رأى أنّني والطبيبة النفسيَّة لم نفهم ما يعنيه، استعدَّ للحديث:

- حين يموتُ إنسانٌ يقولُ عنه الإيزيديَّونَ لقد غيَّر ثيابه، أو إنَّه لا وجود للموت لدينا نحن الإيزديَّين، ثمّة تبديلٌ للباس، يموتُ الإنسان، يموتُ البدن، سوى أنَّ الروحَ تبقى حيَّةً. في طفولتي كنتُ الطفلَ الأبعد من بين إخوتي عن أبي الذي لم يكن لديه شيء مهم في هذه الحياة سوانا، نحنُ أطفاله وزوجته، لا يهتمّ إن ماتَ كلُّ الأطفال، سوى أنَّه كان يهيجُ لمجرّد أن تتألَّم إصبعُ طفلٍ من أطفاله، كان ينصحني أن أبتعدَ عن السياسة، وكنتُ أنظرُ إليه على أنَّهُ جاهلٌ ومحترق القلب على عائلته.

توقَّف حمو هنا ولم يعد يعرف ماذا يقول، حرّضته الطبيبةُ النفسيَّة بأسئلتها على الكلام أكثر:

- الآن، كيف تفكِّرُ بأبيك؟

- المسألةُ كلها محصورةٌ في ما سألته، الآن أنا لستُ أنا، أنا هوَ!

- ماذا تعني؟

- في السنوات الأخيرة بدأت اشعرُ بأنني لم أغدُ حمو القديم ذاته، بل إنّني والدُ حمو، فكلّما كبرتُ شعرتُ أنّني أصبحُ مثله، الآن أشعر أنّني مثل أبي، لم يعد ثمَّة أي فرقٍ بيننا نحن الاثنان، فما كان يقوله لأطفاله في الماضي، الآن أقوله لأطفالي أنا أيضًا، ما كانَ يقوله لأمي أقوله الآن لزوجتي، وكل ما كنتُ أفعله في السابق ولا يعجب أبي ويغدو سببًا لمشاجراتنا، الآن أفعل كل تلك الأشياء، وكأنّني أبي.

- أتراه ويطلبُ منك هذه الأمور؟

- لا، أغلب الأحيان لا أريد أن أفعل هذه الأشياء، ولكنني أفعلها، وكأنّ ثمَّة قوَّة خفيَّة وأكبر مني تجعلني أغدو نسخةً عن والدي.

- منذ متى وأنت على هذه الحال؟

- منذ اليوم الأوَّل الذي بدَّل فيه أبي لباسه بدأ هذا الأمر، لذا أشعرُ الآن أنّ الذي يتحدَّث أمامكِ الآن يتحدّث بروحِ والده ويعيش به، هذا من جهةٍ...

- ومن جهةٍ أخرى؟

- من جهةٍ أخرى، الآن بتّ أفهم أبي، ولكن الوقت متأخِّر، وجداني يؤلمني، كيف كان لي أن أزعج أبي لأجل أمورٍ أفعلها الآن بنفسي، وددتُ ولو ليوم واحدٍ أن يعود أبي إلى الحياة وبكلماتٍ قليلةٍ أستميحهُ العُذرَ وأطيِّب خاطره، ولكن كما

ترين لقد أتيت إلى هذه البلدان وفقدتُ القدرةَ حتّى على أن أزورَ قبره.

مع هذه الكلمات، لم يستطع حمو أن يمنع دموعه:

- لم أكن راغبًا في المجيء إلى هنا، لكن أفراد عائلة زوجتي أتوا جميعهم إلى هنا، لذا أقنعوا أطفالي جميعهم بضرورة المجيء ورضخت لرغبتهم في النهاية، مَن يهجُر عظام آبائه وأجداده ويدير ظهره بالكامل إلى ترابه، لعمري قد رضعَ حليبًا حرامًا، وأنا أحدهم.

مسح حمو دموعه مُتمِمًا حديثه:

- أبي منع إخوتي عن الهجرة، كان دائمًا يقول لي: وطنُ الآخرين لا يغدو وطنًا لك يا بنيّ، اعرف قَدر بلادك، الناس بنت بلادها لأجلها بكدّها وتعبها، بنوها لأنفسهم، لم يبنوها لأجل أن نذهب ونقيم بِها، أنا مندهشٌ الآن، كيف لرجلٍ لم يعرِف بلادًا غير بلاده أَن يعرف هذه المعرفةَ كلّها؟ وأناً بعد هذا العمر وبعد أن وصلتُ إلى هذه البلاد فهمتُ هذا الأمر جيِّدًا.

عينا حمو كانتا تتقلّصان وتغدوان صغيرتَين، يتجعَّد وجهه مثل كهلٍ في التسعين من عمره وبحزنٍ يخبرنا عن نفسه:

- والآن حين أحدِّث أبنائي كلام والدي فإنَّهم يسخرون منّي ويقولون إن كان لنا وطنٌ ما فهو هنا، لقد كبرنا واعتدنا على الحياة في هذا المكان، لقد مضى الآن على كلام أبي ثلاثونَ

سنة، لا أعرف إن كان أبنائي سوف يفهمونني بعد انقضاء ثلاثين سنة أخرى؟ أم لا، وكما أنَّ أبي غير موجود الآن فلن أكونَ موجودًا أيضًا.

حين كان حمو يتحدَّثُ عن نفسه كنتُ أعتقد أنَّ من يتكلَّم عن نفسه هو أنا، لذلك فإنَّ الترجمة كانت تتحوَّل إلى أداةٍ للإفراج عن الكَرب عوض أن تكون أداةً للوصل والفهم بين اثنين مختلفين في اللغةِ، فحينَ ترجمتي لكلامه كنتُ أنسى أنّني مترجمٌ وحسب، أكثر من ذلك وكأنَّ من فتح قلبه هو أنا بعينِه، لذا فإن رأسي كان يختلطُ أكثر من رأسِ حمو ذلك اليوم، فباعتقاده لم يعد هوَ نفسه بل غدا أباه، وباعتقادي فإنَّ من يتكلَّم هو أنا وليس حمو، في هذه الحلقة المختلطةِ والشبيهةِ بالمتاهة، كانت حياتي وحياة من أُترجِم له تنقلب، هكذا حلقةٌ تشدّ أخرى خلفها، وبذا ترتبطُ سلسلةُ حياة الأشخاص الذين أنشغل بهم وتطولُ.

الخرزة 43: خرزةُ عودة مختار

في المستشفى أبلغوني أنَّهم أخرجوا مريضًا يتحدَّثُ الكرديَّةَ من محطةٍ مغلقة في مستشفى للأمراض النفسيَّة والآن سوف يتمّ معالجته في المحطة المفتوحة للمستشفى، قالوا إنَّه لا يعرف سوى القليل من اللغة الألمانيَّة، ولكن لأجل دوام المعالجةِ التي ستطول فإنَّهم بحاجةٍ إلى ترجمان، حين دخلت إلى غرفة الترجمة التي كانت تحوي ثلاثة كراسي حول طاولةٍ دائريَّة ودون أن أعرّف نفسي إلى المريض الجديد، لم يكن هناك شيءٌ محدّدٌ في ذهني، حين التحيَّة اندهشنا نحن الاثنان، احتجتُ إلى لحظاتٍ طويلةٍ لكي أصدِّق عينيّ بأنّ هذا الرجل الأشيب، المنكسر والذابل كان مختار بنفسه، خلتُ أنّ سبعين سنة مرَّت على لقائنا الأخير وليست سبعًا فقط، حين رأت الطبيبةُ النفسيَّة أنَّنا نعرف بعضنا بعضًا سألت مختار:

- واضحٌ أنّكما تعرفان بعضكما معرفةً جيِّدة، إن لم تُرِد أن يترجم لك أحدٌ يعرفك نستطيع جلبَ مترجمٍ آخر.

سوى أنّ مختار ردّ بإيجابٍ:

- على العكس، من الأفضل لي أن يبقى هذا المترجم.

حين بدأ مختار بالحديث كان من الواضح أنّ بقائي يشجِّعه على الحديث أكثر، كلَّما أعطى إجابةَ سؤال كنتُ أشعرُ بأنَّه يحدّثني

قبل أن يتحدَّث إلى الطبيبة النفسيَّة لذا كانت مضغيةً إليَّ أكثر ممّا كانت تصغي إليه، وكأنَّه سجينٌ يعترفُ بعد تعرّضه لتعذيبٍ شديد، لكن قبل كلِّ شيء بدأ بالطبيبة ساخرًا من مجيئه إلى هنا:

- وكأنّني لم أفهم شيئًا من نفسي، لم أفهم شيئًا من الذين أرسلوني إلى هذا المكان، إنَّها المرة الثالثة التي يرسلونني فيها إلى سيدّةٍ مثل هذه الجالسةِ أمامنا، يعتقدون أنَّهم سيجلسون ثلاث جلساتٍ ويسألونَ عشر أسئلة سوف يحلَّون مشكلة المرء، قل لهذه السيدة الطبيبة يا آزادو إنّني وأمثالي بمقدورنا أن نتسبّب في مرض عشرات الأطباء مثلها ولكننا لن نشفى، ودليلي هو إن عرفت الطبيبين اللَّذين أخبرتها باسميهِمَا سوف ترى بعينها كيف أنَّني تسببّتُ بمرضهما دون أنَ أُشفى.

استقبلت الطبيبة النفسية كلامه بضحكةٍ قائلةً له بأنَّ في كلامه إشارتين للخير، الأولى هيَ أنَّه شخصٌ مرحٌ وذلك أمرٌ جيِّد، والثانية هي أنَّه يعرفُ بأمر مرضه وهذه هي الخطوة الأولى في طريق الشفاء، هذه الكلمات غدت بمثابة مفتاحٍ لفتح قفل باب حديثٍ طويل حول جوانب حياتهِ كلِّها:

- لنبدأ من النهاية، اعتقلت لأنّك جرحتَ أحدهم بسكينٍ ومن ثمَّ أرسلوكَ إلى محطة الانتظار المغلقة في مشفى الأمراض النفسيَّة، لم هاجمت الشخص؟

- الحقيقة أنّ عبارة مهاجمتي له، هي عبارةُ الشرطة وليست عبارتي، لم أهاجم أحدًا طوال حياتي، فقط أدافع عن نفسي.

- صحيح، هذا كلامهم، ولكن يا تُرى ما هيَ الحقيقة؟

- في المرَّة الأولى سحب الرجلُ سكِّينًا طويلةً في وجهي، ركضتُ في الشارع لأنّني لم أقوَ على الدفاع عن نفسي، وفي المرَّة الثانية حين صادفته كانت سكّينتي بحوزتي وانتقمت لنفسي منه، العنصريَّون هكذا، إنَّهم جبناء ولكنّهم حينَ يصادفونَ رجلًا جبانًا فإنَّهم يصبحونَ وحوشًا.

- وهل كان يحمل سكّينةً في المرَّةِ الثانية؟

- أجل بالطبع، كان يحمل سكّينته التي كانت طويلةً أضعاف سكّينتي.

- لكن اللافت في الأمر أنّك جرحته دون أن يفعل بكَ شيئًا؟

- كنت مستعدًّا جيّدًا لذا لم يستطع أن يلمَسَني.

- هل تعرفُ الشخص؟

- لا، أنا أنسى وجوه الأشخاص وأسماءهم بسرعة، سوى أنّه يأتيني يوميًّا في الحلم وفي كلِّ مرَّةٍ يقبلُ بوجهٍ مختلفٍ عن الآخر.

- هل يأتيك في الليل فقط، أم خلال النهار أيضًا؟

- مرَّاتٍ قليلة يأتي في النهار، وأحيانًا حين أكون وحدي يهاجمني بغتةً، ولكنني لم أدعه يقتلني حتَّى الآن.

- لِمَ يريدُ قتلك؟

- لأنّه نازيّ، النازيّ لا يريدُ أحدًا سواه في هذا البلد.

استمرَّت هذه المحادثة طوال شهور، وفي تلك الأثناء عرفتُ كل مشاكل حياة مختار، منذ ولادته لعائلةٍ فقيرة وصولًا إلى السنوات الطويلة التي أمضاها في معسكر اللاجئين التي كان يعرف فيها كأقدم لاجئ. جعلته الحياة في المعسكر وحرمانه من كل الحقوق رجلًا حسَّاسًا جدًّا وحزينًا وكهلًا، لكنّه لم يتخلَّ عن التدخين ولا عن مزاحه المعتاد وشتائمِه الفريدة، كان يفسِّرُ انكساره هكذا:

- كلّما أوشكت لقمتي على الوصول إلى فمي يحدثُ شيء فتختفي اللقمة ويختفي الفمُ معها كذلك.

كما تحدَّث عن بِتنا التي كان ينوي الزواج بها، وقال إنّهما تزوّجا وقبل مرور ثلاث سنواتٍ لكي أحصل على جواز السفر وعلى كامل الحقوق انفصلت عنّي فجأةً.

في كلّ جلساته مع الطبيبة النفسيَّة، كان مختار يتوجَّه بحديثه إليّ وينادِيني بــ ابن خالي، في تلك الأثناء كانت الطبيبةُ النفسيَّة تسأله، سوى أنَّه يفتحُ قلبه لي.

الخرزة 44: خرزةُ روحٍ مبتورة الجناح

سأخبرك بكلّ شيء هكذا عاريًا يا ابن خالي، إنّني أختنقُ رويدًا رويدًا بين وحدَتي وأحزاني، أختنقُ وأموت، لا أعرفُ ما الذي حلَّ بي مؤخَّرًا، أسمعُ أصواتًا كثيرة ماتت منذ أكثر من عشر سنوات، صوتُ أبي لا يفارق مسمَعي، عمّتي تناديني باسمي وفي كلِّ مرَّةٍ تطلبُ منِّي شيئًا، ذلك اليوم سألتني لمَ أتصدَّق عليها حتَّى الآن، صحيحٌ أنَّها ميِّتة، سوى أنَّها ترى ما نفعله، كما أنّ أبي يطلب منّي زيارته، أراه بحالٍ يائسة دائمًا في الحلم ويناديني بغية أن أحرِّره وحين لا أهرعُ لنجدته يغضبُ منّي، يصرخُ ويشتمني، كلمته التي توجِعني أكثر:

- لم أعرف أنَّك سليلُ حليبٍ حرام!

إنَّه لا يصدّق بأنّه ما باليد حيلة وأنّني حتَّى الآن لا أملك جواز سفرٍ مثل كلِّ انسان، عدا عن أبي وأمي وعمتي، أرى أناسًا آخرين يقبلونَ إليّ ويتحدّثونَ معي، على الرغم من أنّني في هذه اللحظة أعرف أنَّهم مجرَّدُ موتى، ولكن حين يأتون يبدو لي وكأنّهم أحياء، البعض منهم يحميني، فكلّما هاجمني الرجل ذو اللحية الطويلة فإنّهم يدافعونَ عنّي وينقذونني من الجرح أو القتل الأكيد، البعض منهم، والمهاجم من بينهم، لهم هدفٌ واحد ألا وهو قتلي، يلاحقونني ليلًا نهارًا ويريدون قتلي في نهارٍ باردٍ، في زاويةٍ ميَّتة، لا أعرف ما الذي فعلته بهم، ففي حياتي كلّها لم أفعل شيئًا

سوى الخير، ولم أطلب شيئًا من أحد، ولم أتسبّب في الأذى لأحد، وحين تضيقُ عليَّ الأحوالُ كثيرًا فإنني أسبّبُ الأذى لنفسي فقط، أعضُّ نفسي وأجلدها بالسياط والسكاكين، أردت مرَّة أن أحقّق مطلبهم وأقتل نفسي لكي يرتاحوا منّي، لكنني فشلت، لم يبقَ لديَّ شيءٌ يربطني بالحياة، ومؤخَّرًا بعد انتشار الأحداث الدمويَّة والضجيج الحاصل في سوريا، ازدادَ الخرابُ والقتلُ اليوميّ، ازداد وضعي سوءًا أكثر من ذي قبل، كلّما تهاوى بناءٌ هناك فوق رؤوس الناس أشعر بها وكأنَّها تهاوت فوق رأسي، حاولتُ أكثر من مرَّة أن أكفَّ عن متابعة التلفاز أو الفيديوهات المنشورة عبر الإنترنت سوى أنّني لم أستطع، أنا الشؤم في ذلك المعسكر يا ابن خالي، زوجتي وطفلاي أيضًا ذهبا إلى الشرطة وطلبوا منهم ألَّا أعرف عنوانهم أبدًا، أهذه حالٌ يا ابن خالي؟ إنّهم أطفالك ولا تعرفُ أين هم الآن، أهذه حالٌ يا ابن خالي؟ لقد شِختُ في هذا المعسكر التافه، في هذه البلاد، لقد ابيضَّ شعري في انتظار ورقةٍ تجعلني أمشي باطمئنانٍ يا ابن خالي، وعلاوةً على ذلك لا يدعنا الشبّان النازيّون في الشوارع أن نحيا بسلام، لكن ليسوا هم السبب، قل لي، ما الذي أتينا نفعله في هذه البلاد؟ معهم كلُّ الحقِّ في ذلك، من لا يفيدُ وطنه لن يكون ذا فائدةٍ لأوطان الآخرين، ولكن المسألة هي كرامة الانسان، هؤلاء الزعران يشعرون بأنّنا ارتكبنا ما يحطُّ من كرامتنا حين تركنا بلادنا، إنّهم يذكّرون المرء بأنّه إنسانٌ سيئ، الإنسان يغضبُ منهم كثيرًا، وهل يستطيع غريبٌ أن يحيا بسلامٍ في بلدنا؟ ها نحنُ نأكلُ ونقتلُ بعضنا بعضًا، فكيف إن كان هناك الملايينُ من الغرباء الربّ وحده يعلم ما الذي كان

سيحصل، داءُ من هم مثلي بلا دواءٍ يا ابن خالي، قل لهذه السيّدة إن الربّ لا يعطي الحياة لبعض الناس وأنا واحدٌ من هؤلاء، ففي بلدي لم تكن ثمة فرصةٌ للحياة، وواضحٌ أنَّ هذه الفرصة معدومةٌ في هذه البلاد كذلك، إنّهم يعرفون هذا الأمر تمام المعرفة، لذا حوّلوا الغرباء مثلي ومثلك إلى فئران تجارب، ملؤوا هذه البلاد بمشافٍ للأمراض النفسيَّة ويعملون بها ويأخذون نقودهم، ومن هم المرضى، أغلبهم غرباء، يتسبّبونَ في مرضنا ويعتاشون على نقود مداواتنا، صحيحٌ أنَّ ثمة مرضى منهم كذلك، ولكنّهم نادرون، أخبرها ألّا تطلب منّي هي ولا أي أحدٍ آخر أن أُقلِعَ عن التدخين، إن كان لي علاقةٌ بالحياة فإنّها السيجارة التي هي على العكس ممّا يقولونه إنّها سبب تقصير الأعمار، سأتحدَّثُ عن نفسي، لولا السيجارة كنتُ الآن ميّتًا منذ زمن، حتّى النساء فقدنَ مذاقهنّ، في الوقت الذي كنتُ أودّ أن أنام فيه مع عشر نساء لم أكن أعثر حينها على امرأة واحدة، بصعوبةٍ بالغة تمكّنت من العثور على امرأةٍ قبيحةٍ لأتزوّجها، والآن إن أقبلت نساء العالم كله وقاموا بتعريتي لن يكون بإمكانهم إنهاض ذَكَري، لم يعد بإمكانه النهوض لذا أرى العشرات من النساء الجميلات حولي، أيوجد حظٌّ ونصيبٌ أسود أكثر من ذلك يا ابن خالي؟ هذا الكمّ الهائل من الفتيات الجميلات، ولكن ما الفائدة لقد ذهبت الشهوةُ وغادرت، وثمّة لا عدالة عظيمة لدى الربّ، بعض الناس يمنحهم الجمال والثراء والراحة، فيما يمنحُ البعضَ الألم فقط، وأنا يا ابن خالي واحدٌ من هؤلاء الذين جعلهم الربّ منبع الألم يا ابن خالي، ليس فقط يدي وقَدمي بل روحي، قلبي، كبدي، أعماقُ أعماقي

تؤلمني يا ابن خالي، الآن إن سمعني أبي المرحوم كان سيضحكُ قائلًا:

- هذا الذي لم يؤمن بالربّ يومًا واحدًا، الآن يرمي كلّ شيءٍ عليه.

أنا رجلٌ حزينٌ ومكسورٌ يا ابن خالي، أتعرف إن استمرّت الحال هكذا، لن ينتهي الكلامُ أبدًا، حزني ثقيلٌ يا ابن خالي ولن تستطيع آلاف الكلمات أن تعبّر وتشرح حالتي، لذا سأقول لك ولهذه السيّدة باختصار، إن كانوا يعتقدون أنّني طائرٌ بجناحٍ جريح وأنّهم سيعالجون الجرحَ لأتمكّن من الطيران مرَّةً أخرى فهم مخطئون في الأمر، المسألة ليست هكذا يا ابن خالي، جناحايَ بُترا، لقد تركتهما خلفي، أضعتهما وأتيتُ إلى هنا، لذا دعهم يريحون رأسهم منّي، لا يستطيعُ الطائرُ التحليقَ بأجنحةٍ من ورقٍ وحِبال، لأنّ الأجنحة إن بُتِرَت لن تنبتَ مرَّةً أخرى، وطنُ المرء هو جناحاه يا ابن خالي، هذا ليس هتافًا أو شعارًا يرميه المرءُ في مسيرةٍ، وليس شعرًا، إنها حقيقةٌ أعيش فيها يا ابن خالي، أَتفهم ما أقول؟

الخرزة 45: خرزةُ صاحب البيت

من بين الأخبار والمشاهد الدمويَّة التي كانت تبثُّها التلفزةُ والمواقع الإلكترونية عن سوريا، كنت أشتهي أنا المهاجر القديم الذي اعتراهُ الصّدأ خلطَ الألوان والرسم، بلدي ومكاني القديم الذي أفنيتُ عمري فيه، المقهى، الشارع، الجامعة، الدكان وبيوت الإيجار التي ما زالت آثار قدمي تظهر عليها تهدَّمت كلُّها، مشاهد الأطفال الميتين ونصف الميتين الذين يتم إخراجهم من تحت كتل الإسمنت وغبار الأبنية التي تهاوت على رأس قاطنيها كانت تمنعني عن النظر في وجه ابنتي دانا، كما أنّ أمواج الآلاف من الأشخاص الذين اتجّهوا نحو الحدود جعل قلبي باردًا من الحياة والمستقبل في تلك البلاد، كانت أفواج الناس تتجه نحو أوروبا ونحو المدينة التي أعيش بها، خيَّم الموت على مدينتي القديمة التي عشتُ فيها، يبلعُ النّاسَ ومن كلِّ الأعمار. كان لا بدّ خلال وقتٍ قريب أن أبحث عن بيتٍ جديد وأن أتخذه بيتًا ومرسمًا في الآنِ معًا، وخلال فترةٍ قصيرة عثرتُ على منزلٍ وحوشٍ بخلفيّة خضراء بها أشجار في أطراف المدينة، وحين أخبرت العجوز أنّه سوف يكون منزلًا ومرسمًا فرحَ جدًّا على عكس ما توقَّعته وقال:

- أمرٌ جيد أن نعطي بيتنا لفنَّانٍ ورسَّام، ولكن لدينا مطلبٌ واحد، أن تعطيَنا البيت حين تخرج منه كما سلّمناه إيَّاك.

بهذه الطريقة اتّفقنا، ولكن ما حيَّرني هو طريقة إعطاء نقود

الإيجار، العجوزان لم يكونا كما جرت العادة يستخدمان أرقام حساباتٍ بنكيَّة وطلبا منّي أن يستلما النقود الخاصَّة بالإيجار بشكلٍ شهريّ باليد، فقِبلتُ بالأمر.

كان البيت يتألَّفُ من غرفتين واسعتين وحمَّامٍ ومطبخ، كان بابُ الغرفة الأكبر مطلًّا على الحوش، مساحة البيت الفارهة، صمته وأشجاره، انزواؤه البعيد كان يجعلني خائفًا كلَّما خيَّمَ الليلُ، لم أعتقد أن أخاف هكذا لمجرّد البقاء وحيدًا في المنزل، الوحدَةُ من جديد، اللجوء، اليُتم، بؤسي، تذكَّرتُ كل هذه الأمور معًا، اعتراني بردٌ وتسلّلت رجفةٌ قويَّة إلى داخلي وما عاد بمقدوري أن أسدّ الطريقَ أمام صرخة عميقةٍ وطويلة في داخلي، صرختُ وبكيت، كان قلبي يريدُ حضن الأمّ، لم أكن أعلم إن كنت أبكي حالي أم أنَّ الألم يجبرني على البكاء.

خصَّصتُ غرفةً من الغرف للنوم فيما الأخرى باتت مرسمًا ومكانًا لمزج الألوان والجلوس، وبغضبٍ شديدٍ توجّهت نحو حرب الألوان المختلفة، بغضبٍ أمزجها وأرشّها على عيني القماشة لتغدو لوحةً، في بداية الشهر وفي طريق ذهابي لإعطاء إيجار البيت، كانت فكرةٌ تأخذني وأخرى تُرجعني، مشاهد القتل، الجرحى، الهرب وقطع الرؤوس تحت الأشجار وفي الأمكنةِ البعيدةِ الفارغة، التي كنتُ قد رأيتها في أفلام الرعب، كنتُ أتخيّلها جميعًا أمام عينيّ، كلّما تناهى إلى سمعي صوتٌ ما، أو حركة، تمتدّ يدي إلى السكّينةِ التي بحوزتي، إلى أن توقّفتُ أمام الباب وطرقته، كنتُ أنتظر أمرًا غير واضح، من الممكن أن يهاجمني صاحب سلاحٍ حادٍّ من

الأمام أو من الخلف، وأيضًا العجوزان معًا قد يُخرجا رأسيهما من الباب ويسخران منّي وأنا أُبلَعُ، ولكن لم يهاجمني أحد، على الرغم من أن العجوز تأخَّر في فتح الباب لي، كنتُ أسخرُ أحيانًا بهذه الخيالات التي تجولُ برأسي، في زياراتي الطويلة كان العجوز وزوجته متعطّشين للحديث الدائم عن فترة شبابهما وليس الآن، لذا حين سألتهما عن سبب عدم وجود أبناءٍ لهما، أجابَ العجوزُ في البدايةِ بجملةٍ قصيرةٍ:

- لأنّ عملي كانَ كثيرًا لذا لم أجد الوقت الكافي.

بعدها حدَّثني عن عمله وزوجته الذي منعهما عن كل شيء حتى أن يحكَّا رأسيهما، وكانا على ثقةٍ بأنّهما يستطيعان إنجابَ الأطفال متى شاءوا، ولكن اكتشفا فجأةً أنَّهما باتا عجوزين وتأخَّر الوقت، اللافت في الجلسات معهما حكاياتُ العجوز، حين كانت تتحدَّث تُظهر التجاعيد -التي في أعلى رقبتها ووجهها- وجهًا أبيضَ وجافًّا، تتحدَّثُ بعذوبةٍ وشوق عن قصتها:

- في ذلك اليوم رأيت في حلمي أنّني أمشي في الشارع فيما يلاحقني أحدهم...

كانت تستعدُّ للحديث وكأنَّها تعيش الحلم في تلك اللحظة:

- كان أحدهم قد لفَّ رأسه بقماشة سوداء، كان وجهه ورأسه مخفيين، ثمّة تحتَ عينه اليمنى خطٌّ أبيض، وكأنّه مكان جرحٍ قديم، عدا عن ذلك لم أستطع أن أميِّز فيها شيئًا، لكن يجب أنَّ

أقول شيئًا ويجب أن يعذرني زوجي: لم أرَ في حياتي عيني رجلٍ واسعتين هكذا، ذات نظراتٍ عميقةٍ وذات سحر.

تحدّثت العجوزُ بلهفةٍ عن محاولتها لإزاحة القماشة السوداء عن وجهه:

- لحقَني مرَّة، وأبطأتُ في مشيتي بغية أن يقترب منّي أكثر، وفجأةً وثبت إليه وأحكمت قبضتيّ على قماشته السوداء، حاولتُ جاهدةً سوى أنّ القماشة لم تُزح عن وجهه، ولا أعرفُ كيف أُفلت من بين يديّ وفرَّ هاربًا، قلت لنفسي إن هذا الرجل إمَّا خيالٌ أو ربمّا قد استعدَّ لكلِّ شيء ونجا بنفسه.

حين كانت تتحدَّثُ عن محاولاتها، يعتريها غضبٌ شديد وتوشِك على أن تقفزَ إلى وجهي، خفتُ منها في تلك اللحظات متخيَّلًا أنَّها قد تهاجمني ذات مرَّةً وهي مختبئة خلفَ الأشجار التي تحيط بمنزلها، أو أن تغضب منّي ذات مرَّةٍ في منزلها الذي أقطُن فيه وتهاجمني بسكّينةٍ أو سلاحٍ آخر، لا تنتهي القصَّة ها هنا، تصلُ العجوز إلى مكانٍ حسَّاسٍ في الأحداث:

- مرَّةً في مصر كنتُ عائدةً من زيارة الأهرامات، وفجأةً رأيتُ ذلك الرجل وقد لاحَ لي، وبتنا وجهًا لوجه، تحدَّثتُ إليه بلغته وهو ردَّ عليَّ بلغتي، لم يفهمني هو ولا أنا، وحينَ رأى أنّني لا أفلته نادى الشرطة التي أفلتته من بين يديّ.

رويدًا رويدًا كان الخوفُ الذي بداخلي يغدو ارتعاشًا دون أن

تفارقني مشاهدُها وزوجها معًا وهما يحملان سكاكينَ حادَّةً وطويلة ويجتمعانِ عليَّ، لذا وفي الشهر الذي تلاه حين أتيتُ إليهما لإعطائهما أَجرة البيت، لم آتِ فارغَ اليدين، ابتعتُ سكِّينَةً خاصَّةً بهجماتٍ محتملَةٍ أثناء الصمت الذي يلفّ تلكَ الأشجارِ العالية.

الخرزة 46: خرزةُ الطيورِ الجريحة

في البيت قرَّرتُ أن أكفَّ عن مشاهدة مشاهدَ الحرب والقتل وقطع الرؤوس والقنابل والخراب، لم يكن أمامي سوى هذا القرار لكي أسدّ الطرق أمام خوفي وسوداويَّتي، في البدايةِ كانَ الأمرُ صعبًا، فلا بدَّ أن أعرف كل يومٍ وكلَّ ساعةٍ أو كلَّ لحظةٍ ما يجري في بلدي الذي تركتهُ خلفي، لم أنجح في قراري بشكلٍ تامّ، سوى أنّني قلّلت إلى درجةٍ كبيرة من مشاهدة مقاطع الفيديو الدمويَّة القادمة من سوريا والمنشورة على الإنترنت، لذا باتَ بمقدوري أن أنشغلَ بألواني وفنّي، الموضوعُ الذي شدّ انتباهي مؤخَّرًا هي اللوحاتُ التي رسمتها عن الطيور، ففي كلِّ لوحةٍ ثمَّة طائرٌ، أحيانًا يكون طائرًا ذا أجنحةٍ أو سيقانٍ مكسورَةٍ، أو بسيقانٍ مدماة، أو بجناحٍ واحدٍ وحسب، وإن لم يكن بدنُ طائرٍ بالكامل موجودًا في اللوحة كان لا بدَّ أن يكون هناك جناحٌ أو ريشٌ يظهران في الألوان، أتذكّر في كلِّ مرَّةٍ وحين أقذف ألواني على عين القماشَةِ كان ثمَّة شخصٌ أو رجلٌ، في كلِّ لوحةٍ جزءٌ منّي، كنتُ أعثر على نفسي في انكسارات أولئك الأشخاص، والحقيقة أنَّ كل انكسارٍ لطائرٍ هو انكساري الشخصي ليس إلَّا، والملاحظة الأخرى التي شدَّت انتباهي كانت هي أنَّ اللون الأسود بين يديّ كان يغلب كلَّ الألوانِ البقيَّة وتغطّي ظلاله كلَّ الألوان في اللوحة، وفي بعضٍ منها كان الطائرُ بعينه أسودَ، بعض الطيور في تلك اللوحات كانت تطير بأجنحةٍ مكسورة، والبعض منها بجناحٍ واحد، أو بلا

أجنحة، حاولت مرارًا البحث عن طائرٍ غير مصاب لكنني فشلت، فقط ثمَّة واحدٌ، كان ذلك الأسود، كان واقفًا في منتصف إطار اللوحةِ ناظرًا إليّ وكأنَّه ينتظرُ شيئًا ما، فجأةً رفرف بجناحيه وخرج من إطار اللوحة محاولًا الطيران في فضاء الغرفة، بقي للحظاتٍ في الهواء، حرَّك جناحًا واستقرّ في زاوية الغرفة، بقيت عينٌ لي عليه فيما الأخرى تنظر إلى مكانه الفارغ في قماشةِ اللوحة، أدركتُ أنّها روح والدتي مرَّةً أخرى وقد أتت لنجدتي، كنتُ على وشك أن أنسى روحها وهذا الطائر الأسود وكلَّ شيء، لكن ها هيَ لم تنسَني، كان صوت والدتي في تلك اللحظات طافحًا بالدفء والحبّ، فيما كنتُ أشعر بنفسي أُجفُّ وبأنّني ولدٌ خائنٌ وناكرٌ للجميل، فعوضَ عن أن أبحث عنها وأشتاق إليها، أنساها. أهذا شكلٌ من أشكال الانتقام يا تُرى؟! سألتُ نفسي دون معرفةِ الجواب، ربمّا لأنّها قذفتني إلى هذه الحياة ورحلت أنتقم منها بأن أكون ولدًا عاقًّا، ولعلّه لا توجد لديَّ لوحةٌ هكذا ولا وجود لهذا الطائر، ولكن، لا، إنّني أرى الطائر وأسمع صوت أمّي الرقيق في هذا المنزل الفارغ:

- اعتنِ بنفسك يا بنيّ...

عرفتُ أنَّ شيئًا قد تغيَّر بها، سوى أنّني لم أعرف في البداية، وحين تذكّرت الطيران الثقيل والجناحَ الواحد عرفتُ أنّ جناحها مكسور، كما أنَّ صوت والدتي الحنون بدا حزينًا ومكسورًا بعض الشيء، في تلك اللحظات شعرت وكأنّ صوت والدتي هو ذاته صوت ابنتي دانا، تلبّسني الاشتياقُ.

عائلتي الجديدة الآن عددٌ من الطيور السوداء على أقمشة اللوحات النائمة، خلتُ نفسي قد تحوَّلتُ إلى طائرٍ أسود مندهش بين رفِّ الطيور الجريحة ومكسورة الأجنحة، تذكّرتُ خضرة أغصان الأشجار وزرقة السماء الواسعة، امتلأ صدري بالأمنيات، اغرورقت عيناي بالدموع وبقيتُ صامتًا، تحدَّث إليّ صوتُ أمي قليلًا ذلك اليوم، ربما عرفت إن أطالت هنا فسوف أرتمي إلى نور حضنها، ربمّا لكي تمنع انفجار بركان القهر والحقد بداخلي ذهبت باكرًا، في كلِّ الأحوال، كان لا بدّ أن أخلُدَ إلى النومِ باكرًا لأنّ ثمَّة عملًا لا بدّ أن أنجزه في صباح اليوم التالي، لم أنَم بسرعةٍ، لم أحلم بشيء.

باكرًا في الصباح، ولدى كريستينا الطبيبة النفسيَّة، كان حمزة الخمسيني في انتظار ترجمة آلامه.

الخرزة 47: خرزة ليس هنا ولا هناك

لا أعلم لِمَ كنتُ أرى نفسي في أولئك الأشخاص الذين أترجمُ لهم، الآلامُ التي كانوا يروونها ليست آلامهم بل هي آلامي، لذا غدا كلُّ واحدٍ منهم قطعةً من حياتي، ولا سيَّما من كنت أترجم لهم لشهورٍ عند الأطبَّاء النفسيّين، مع حديث كل واحدٍ كنتُ أذهب إلى هناك، إلى المكان الذي يسمّونه البلدَ الأُمّ، ومع تحاليل الطبيبة النفسيَّة كنتُ أعود إلى هنا، إلى هذا البلد الذي اعتقدتُ أنَّه سوف يحلُّ محلَّ بلدي القديم، بقيت بين الاتجاهين، وفي تلك الأثناء أنشغل بنفسي، قدمٌ في بلدي القديم وأخرى في البلد الجديد، ومع مجيء المئات من اللاجئين انزلقت قدمي التي هنا ومع قصصهم التي يروونها يعيدونني إلى الوراء، ورويدًا رويدًا كان أصدقائي القدامى أيضًا يصلونَ إليَّ، إيقاظُ تلك الأحاسيس التي مرَّت على نومها سنوات كانت تستندُ إلى كثرة أولئك اللاجئين الذين يقبلون من مكان ولادتي، سألني أحدهم:

- ألست ابنَ رحمانو؟

- بلى.

- أخوك حميدو صديقي، أتتحدَّثُ معه؟

- لا، منذ سنواتٍ لا نعرف شيئًا عن بعضنا.

- أتريدُ رقم هاتفه، بإمكاني إعطاؤك؟

بلهفةٍ شديدة دوّنت رقم هاتف أخي لديّ، ومعها نزلت دموعي، لقد فهمني، لذا واساني مباشرةً:

- إن لم أخطئ، لقد تذكَّرت والدكَ المرحوم؟

- نعم، فليرحم الرب موتاكَ أيضًا.

قرّرت أن أتحدَّث إلى أخي في اليوم التالي، لكنني لم أصبر، فمع حصولي على رقم هاتفه انفجرت في داخلي براكينُ الذكريات النائمة، وكأنّ هذا الرقم الذي حصلت عليه باتَ بإمكانه أن يملأ كلَّ الفراغ الذي نشأ في داخلي منذ سنوات مجيئي إلى هذه البلاد، لذا وفي اليوم نفسه اتصلت بأخي بلهفةٍ شديدة، كان صوت أخي حميدو من شمال العالم يتناهى إلى سمعي وكأنّه خارجٌ من قعر بئر، صوتٌ عالٍ، مغرورٌ وواثق من نفسه، أردتُ أن أعيده إلى الزمن الذي مضى، لكنّه كانَ منشغلًا أكثر بالأوضاع الرَّاهنة، اشتكى منّي قليلًا لأنّني تأخَّرتُ في السؤال عنهم، سوى أنَّه سأل عن وضعي بحرارةٍ، شعرتُ بضعفي وفي الوقت نفسه بقوَّته. كانت قد مرّت سنتان على موت والدته أو زوجة أبي، حين سألته عن شقيقته جانة فأشفق عليها، لقد تزوّجت منذ زمنٍ دون أن تستطيع الإنجاب، زوجها كان قائدًا لقوّةٍ من القوى العسكريَّة الكرديَّة التي تأسَّست وانتشرت في كل المناطق الكرديَّة، وحملت جانة أيضًا السلاح وأخذت مكانها بين النساء المقاتلات، كان حميدو يقولُ بقلبٍ مكسور إنّه أراد أن يحمل السلاح وينضمَّ إليهم

ولكنّ لأن لديه أربعة أطفالٍ صغار فقد رُفضَ طلبه، كنتُ مدهوشًا ومحتارًا على الهاتف، ما هذه التغييراتُ التي حصلت في بلادي ومع عائلتي ومع الجميع، شعرتُ أنّني ما زلتُ أعيشُ في أجواء ما قبل عشرين سنة، الناس جميعهم كانوا مكسورينَ وفاقدينَ للأمل، وكان بمقدور رجل مخابراتٍ وحيد أن يجعلهم في قلقٍ وخوفٍ، أمّا الآن فقد حصل الجميع على السلاح ومن المستحيل أن يتنازلَ أحدهم للآخر أو يطأطئ رأسه، رأى البعض أنَّ حربًا أهليَّةً قد بدأت، فيما نظر البعض إلى أنَّها حربٌ بين الشعب والنظام، ولكن في الحقيقة كَثُرت الاتجاهات السياسيَّة ومعها توجّه المقاتلون المتطرّفون من جميع أنحاء العالم لكي تستعر نارُ الحرب أكثرَ فأكثر، أردتُ أن أسأل حميدو عن بيريفان، عن أبيها رزّو البائع الجوّال، وعن الأفاعي الخضراء المبقّعة، عن دم عشقي الذي لا بدّ أنَّه قد جفَّ الآن في زاويةٍ من الزوايا، حميدو يقولُ شيئًا من هذا القبيل في داخله: الناس ها هنا منشغلون بالقتل والهرب وانعدام الكهرباء ومياه الشرب والخبز اليوميّ، فيما أخي في أوروبا لا يفكّر في آلامِ بلدٍ تائهٍ إنّما يفكِّرُ في امرأةٍ، عرفتُ أشياءَ كثيرة عن بلدي الأمّ وعن الناس من أخي حميدو، حالتي مقارنةً مع حالتهم كانت بكهرباء وبلا خوفٍ وبماءٍ وخبزٍ، ورغم ذلك أنا أعيشُ في ظروفٍ أصعبَ، كنتُ منكسر القلب وحزينًا.

الخرزة 48: خرزة عمى القلب

كانت عيني على الوطن والقتل والهرب والنهب والغربة اليوميَّة، فيما العينُ الأخرى على عملي وتدبير قوت يومي، كان لا بدّ أن أترجم لكرديّ ينظر إلى نفسه مشلولًا، كان هكذا يقال عن شخصٍ أعمى كي لا يتأثَّر بمفردة: الأعمى، وفي الوقت المحدَّد طرقتُ بابه، ومع فتح الباب ولأجل التحية مدّ يده اليمنى إليَّ طالبًا منّي الدخول إلى غرفة الجلوس، أغلق الباب وهو يتحسّس بيده الجدران بغية أن يهتدي إلى مكانِ الجلوس، وبعد أن عرّفت عن نفسي، أزال نظّارته السوداء عن عينيه قائلًا:

- اسمي بهرام من أورمية، كما ترى أنا أعمى، كنتُ مقاتلًا وخسرتُ عينيّ في الحرب على جبال شمال كردستان نتيجة انفجار قنبلة.

كان بهرام رجلًا طويل القامة ووسيمًا، كان واضحًا أنَّ عماه لم يفقده الحرارةَ إزاءَ النّاس، يتحدّث بكبرياءٍ وفخرٍ عن حكايته، فيما كان واضحًا عليه الغضب وليس راضيًا عن الحياة في المدن، ولا سيّما المدن الأوروبيَّة.

- أتعرف، أنّني أعتاد رويدًا رويدًا على العمى، سوى أنّني أفشل في محاولات الاعتياد على الحياة الأوروبيَّة.

كان في انتظارِ معلَّمٍ خصّصته المحكمة ليعلّمه كيفية استخدام

عصا العميان، كما تمّ توظيف شخصٍ ليدبّر أموره المنزلية مرَّتين في الأسبوع، على الرغم من الخدمات المقدَّمة له، سوى أنَّه لم يكن راضيًا:

- الربّ خلق أمثالي لأجل العيش في الجبال يا ابن عمّي وليس في الأماكن والبيوت المُغلقة.

أكملَ نصفَ مازحٍ:

- هؤلاء الألمان، لهم مزاجٌ عجيب في أن يؤلّفوا على أمرٍ صغير عشرات الكتب، يعني إلى أن يستأجروا هذا المنزل، لا بدّ أن يتحدّثوا عن ثلاثمئة وست وخمسين قانونًا، قبل الاستئجار وبعده كذلك، فحين يتحدّثون عن أمرٍ يُخال إليكَ وكأنّهم أمضوا ثلاثمئة سنةٍ وهم يفكّرون ويخطّطونَ لذلك الأمر، إلى أن أنهي عملًا هناً يتورَّمُ قلبي، الأمر الآخر، مسألةُ القمامة والأوساخ، لا بدّ أن تجمعَ الناشف واليابسَ وأكياس البلاستيك والقناني الفارغة والسمّ، لا بدّ أن يكون كل شيءٍ في برميلٍ مختلف.

لم ينتهِ بهرام من حديثه، سُمع صوت الباب، كانَ قد وصل المعلّم المخصَّص لتعليمه المشي على العكّازة الخاصّة، حين دخل، لفت انتباهي العكّازات الأربع التي يحملها، كلّ عكّازة كان بشكلٍ مختلف، وكلُّ واحدةٍ منها تنتهي بقطعة بلاستيكيةٍ قاسيةٍ على شكلٍ دائري، يحملُ الأعمى العكّازة ويضرب نهايتها على الأرض بغية أن يعرف إن كانَ أمامه مغلقًا أم سالكًا، رويدًا رويدًا

بدأ المعلّم الألماني هير هامَر بالحديث فيما بدأتُ بالترجمة، بهرام كان في انتظار أن يعطيه العصا ومن ثمَّ الخروج إلى الشارع لأجل التجريب، كان هامر قد جلب معه أربع عكّازاتٍ وتحدَّث عن تاريخِ كلِ واحدةٍ منها، قبل ذلك ذهب إلى القرنين الثامن والتاسع عشر، متحدِّثًا عن مشي العميان في ذلك الوقت، محاولًا إيضاح الفوارق بين العكّازات الأربع، وصولًا إلى يومنا الرَّاهن مع الإشارة إلى سلبيات وإيجابيات استعمال تلك العكَّازات، بعد ساعةٍ انتبهتُ إلى بهرام كان يتأفّفُ، ولا سيَّما أنّني تذكّرت المحادثة التي جرت بيننا قبيل مجيء المعلِّم الألماني، في تلك الأثناء كان يودّ إيقاف المعلّم، سوى أنَّ الأخير لم يكن ليتوقّف عن الحديث بل يعودُ إلى حديثه المخطَّط له، إلى أن نهض بهرام فجأةً صارخًا:

- أرجوك، أرجوك، أوقِف هذا الرجل عن الكلام، لقد اعتلَّ قلبي، إنَّه آتٍ يحدِّثني عن عصا العميان في القرن الثامن عشر، وما شأني أنا، أعطني عكّازتي واذهب إلى منزلك...

هير هامر كان يصغي إلى غضبه منتظرًا ترجمتي لما يقوله:

- جيد، لن نتحدّث عن التاريخ القديم.

ليبدأ حديثه عن الفوارق بين ألوان العكّازات لكي يختار لونًا معيَّنًا، سوى أنّه أطال الحديثَ مرَّةً أخرى دون أن يتوقّفَ، كفَّ بهرام عن التأفف، ولكنّه لم يعد يحتمل الجلوس، دنا مني قليلًا وبهمسٍ ليِّنٍ سألني:

- إيَّاك وأن تترجم كلامي هذا إلى الألمانيَّة، تُرى ماذا يعني اسم «هامر» في الألمانيَّة؟

قلتُ له إنّها تأتي بمعنى «المطرقة»، ما رأيته إلَّا وهو يقولُ بدمٍ باردٍ:

- انظر يا أخي، قل له، إن توقّف كان بها، وإن لم يتوقّف، سوف أتوجّه إلى المطبخ جالبًا مطرقتي، وهي مطرقةٌ جميلة جدًّا وسوف أنهال عليه بالضرب ولن أتركه إلى أن أحوِّلهُ إلى مطرقة حقيقيَّة، أرجوك أوقِفه يا أخي، أكادُ أنفجر.

كان هير هامر في انتظار ترجمتي، في حين كنتُ أفكَّر بما سأقوله وكيف سأترجم عباراته تلك، وحين رأى بهرام ارتباكي أنهى كلامه هكذا:

- فلتترجم له كما يحلو لك....

بأسلوبٍ قريبٍ إلى الحقيقة أوصلت رغبته في التوقّف عن الحديث إلى هامر الذي سأله السؤال الأخير:

- إذًا فلتختَر عكّازةً من بين الأربع؟

مدَّ بهرام يده إلى العكّازات الأربع وحمل الأقرب إليه قائلًا:

- أختار هذه العكازة.

أراد هير هامر أن يخبره إن كان يعرفُ خصوصيَّة هذه العكّازة واختلافاتها، هزَّ بهرام رأسه قائلًا:

- أعرف... أعرف...

متابعًا:

- فليتوقَّف عن الحديث وسوف أعطيه أربع عكّازاتٍ أخرى...

هكذا بات بهرام صاحب عكَّازةٍ، وبعد ذهاب المعلم، عاد إلى الحديث عن السياسة:

- أتعرف يا أخي، ربمّا أنت مندهشٌ لأنني لا أولي اهتمامًا إلى كوني أعمى، السبب هو أنَّ العمى الحقيقي هو عمى القلب، صحيحٌ أنَّ الحرب والأعداء سلبوا منّي نور عينيّ، لكنّهم لم يستطيعوا جعلي بقلبٍ أعمى، إنّني أرى العالم بقلبي وهذا الأمرُ يكفيني، لا بدّ أنٍ تخاف من أعمى البصيرة، وليس من أعمى البصر، عينا قلبي مفتوحتان على الدّوام، أراكَ الآن وأرى العالم بهما.

حين خرجت من عند بهرام شعرتُ أنَّ من دخل إليه قبل ساعتين كان شخصًا، ومن خرج من عنده الآن باتَ شخصًا آخرَ مختلفًا، لا بدّ أن أعترف أنّ الرجل الذي غيَّرني في حياتي كان هذا الرجلُ الأعمى الذي كان بمقدوره أن يرى بقلبه أكثر من عينه كلَّ ما حوله.

الخرزة 49: خرزةُ النساء في المحطَّات المغلقة

أثناء العمل، وكلّما دُعيتُ إلى الأمكنة التي تُدعى بالمحطَّات المغلقة في المشافي النفسيَّة، كانت يدي على قلبي خوفًا، أمام الباب المغلق لا بدّ على المرء أن يدقَّ الجرس لكي يفتح أحد عمّال المشفى الباب، لمجرّد الدخول يهاجم مرضى المحطَّةِ المرءَ أو يحاولون الدنوَّ منه بغية الحديث عن آلامهم أو أن يسألوا سؤالًا ما، يوجد من بينهم من يمكن له أن يكونَ مؤذيًا أيضًا.

يُرسَل البعضُ منهم من السجن إلى هذا المكان بقرارٍ من قاضي المحكمة، هذه المرَّة ذهبتُ لكي أترجم لامرأةٍ سوريّة، هدى، امرأةٌ في السابعة والأربعين من عمرها، مبيضَّة الشعر ومُتعَبة، التجاعيدُ حول عينيها كانت تمنعها عن الرؤية وتبدو أكبر من عمرها، فقط عيناها كانتا تلمعان كعيني الباز اللتين لم تستطع الكآبة التأثير عليهما، يُخالُ للمرء أنّ هاتين العينين ليست ملكًا لهذه المرأةِ المنكسرة، اعتقلت في حلب السوريَّة على إثر نشاطاتها السياسيَّة مع زملائها في الجامعة، ففي وقتٍ كانَ الشيوعيَّون السوريَّون يعملون إلى جانب النظام البعثي في سوريا، انضمت هدى إلى نشاطات حزب العمل الشيوعي المطالِب بإسقاط النظام، وعلى الرغم من أنَّها كانت تعمل كمساعدةٍ وليست عضوةً فعليَّة فقد قضت ستَّة عشر عامًا في سجون النظام السوريّ القاسي، وبعد إطلاق سراحها أيضًا لم يتركوها وشأنها، كان لا

بدّ لها أن تذهب مرَّة في الأسبوع إلى مقرّ المخابرات لكي يروها وتوقّع على أوراقٍ، حين أطلق سراحها كانت لا تزالُ قويَّةً وبصحةٍ جيّدة وتبدو أصغر من عمرها، سوى أنّ رؤيتها لحال الناس الذين يعيشونَ خارج المعتقل أتعبها، يومًا إثر يوم كانت تفقدُ أملها متمنيَّةً أنّها لم تخرج من السجن وتفقد أحلامها الجميلة، هكذا كانت تفكّر بأنّها لو ماتت تحت التعذيب في السنوات الأولى كانت ستذهب إلى القبر بقلبٍ مطمئنّ، سوى أنَّها الآن وبعد رؤيتها للناس التي كانت تستمدّ أملها منهم ورأت حالتهم، اعتراها برودٌ إزاءهم وإزاء نفسها وأحلامها ومستقبلها، في تلك الأثناء كانت قد بدأت تدمن على الكحول بمختلف أنواعه، وأشدّ اللحظات صعوبةً التي مرَّت بها كانت لحظاتُ الندم، بعينين بائستين كانت تنظرُ إلى الناس الذين يتحركّون وقالت:

- يا تُرى، هل هؤلاء هم أنفسهم، الذين ضحّيت لأجلهم بستة عشر عامًا؟!

فكلّ الناس الذين دافعت لأجلهم ولأجل حياةٍ جميلةٍ لهم ولأطفالهم، وضحّت بربيع عمرها لأجلهم، كانوا حينَ يرونها في الشارع يهربون منها ولا يريدون أن تقترب منهم، فيما كان البعض يدنون منها بريبةٍ وخوف، في نهاية المطاف اتّخذت قرارها الذي وصفته على أنَّه انتحارٌ حقيقيّ وبدأت حياتها في اللجوء، سنواتٌ طويلةٌ كانت قد مضت على هذا القرار سوى أنّ وضعها كانَ يزدادُ سوءًا، وكلّ من سألها عن الكهولة التي تبدو في تجاعيد وجهها تردّ هكذا:

- خصالي تشبه خصال العشب، فالعشبُ حين يقطَف من أرضه ييبَسُ بسرعةٍ، يصفرّ ويذبل ومن ثمَّ يموت، أنا عشبةٌ أكثر من كوني امرأةً.

في الآونة الأخيرة اشتدّت الحربُ وقطع الرؤوس والأحداث الدمويَّة في سوريا التي باتت وكرًا لأصحاب اللحى الطويلةِ -الإرهابيين والجهاديين- الذين كان قطع الرؤوس وشرب الماء لديهم شيئًا واحدًا، بدأت تسوء حالة هدى كثيرًا، ولم يعد لديها عملٌ سوى الشرب ومتابعة الأخبار في التليفزيونات، وفي تلك الأثناء وصلت ما يقارب الثلاث مرَّاتٍ إلى الموت المحتَّم، الأطباء المكلّفون بمراقبة أوضاعها كان لديهم نظرتان، الأولى أنّها تحاول أن تنتحر حقيقةً، فيما النظرة الثانية تشير إلى أنّ شربها الكثير أوصلها لدرجة ما قبل الموت، لذا لا بدّ أن تخضع للمراقبة والعلاج لفترةٍ طويلة من قبل أطبَّاء متخصِّصين وتتداوى بشكلٍ يوميّ، هدى كانت تقول إنَّها ستعودُ إلى الوطن حتَّى ولو بقي في عمرها يومٌ وحسب، ولأجل ذلك لم تتعلّم لغة هذه البلاد، إلَّا أنَها لن تستطيع العودةَ الآن بسبب السكّينة التي بيدِ المتطرِّفين:

- أنا بالنسبة إليهم لا أعرف الله وملحدة.

سخرت من نفسها متابعةً:

- كن مسلّما وسنيًّا واقتل من تشاء، لا حرامَ في ذلك، سوى أنّ امرأةً مثلي التي ضحّت في سبيل تحسين حياة الناس يمكنُ لها أن تُقتَل في لحظةٍ واحدة لأنّها ملحدة، هذا هو المنطق

الحاليّ اليوم في سوريا، أهذه حالة؟

والحادثةُ الأخرى التي كانت تشوّش رأسها هي خوف الفتاة الإيزيديَة منها، لأنّه ما من مكانٍ يكفي في المحطة الممتلئة لذا كان لا بدّ أن تعيش معها الفتاة الإيزيديَّة التي جلبها شقيقها مؤخَّرًا في الغرفة نفسها، قبلت هدى الأمر، لكن ليلًا حصل أمرٌ غير متوقَّع.

سما الفتاة الإيزيديَّة «الشنكاليَّة» كانت في الثلاثين من عمرها، ووصلت إلى ألمانيا قبل خمسة أشهرٍ برفقة شقيقها وزوجها، وخلال هذه الفترة القصيرة حصلت على حقّ الإقامة وسكنوا على مقربةٍ من بعض، كانت سما تهرب بشكلٍ يوميّ من زوجها وتأتي إلى منزل شقيقها وأبيها وتتحدّث لشقيقها عن العشق الذي بينها وبين جارها صاحب المحلّ، حين رأى زوجها أنَّها تتحدَّث بشكلٍ فوضويّ إلى نفسها تيقَّن حينها أنَّها قد فقدت عقلها وسلّمها بالكامل إلى شقيقها، حين رأتني في المرَّة الأولى سألتني ضاحكةً:

- أتعرفين محمّد؟

- من محمّد؟

- الذي أحبَّه، نعم اسمه محمّد، لكنّه مثلي إيزيديّ.

بعينين مليئتين بالأسئلة التفتت إليَّ:

- ألست إيزيديًّا أنت أيضًا؟

- أنا مترجم، أترجم وحسب.

- أعرف، ولكنّني سألتك عن دينك؟

كانت سما دائمًا تسأل سؤالها الذي يبقى بلا جوابٍ، وكنت أردّ عليها بالجواب نفسه، وكأنّها كانت تحدّث نفسها، سوى أنّها أوصلتني صوتها الساخر:

- هذه هي المرَّة الأولى التي أسمع فيها أنّ دين أحدهم هو الترجمة!

قبل النوم عرفت سما بليونةٍ كلّ شيءٍ عن هدى، وفجأةً قبل النوم هاجمت سما موظّفي المحطَّة صارخةً بأن يُخرجوا هذه المرأة المسلمة من غرفتها، لأنّها تهابها وتخاف أن تُذبح على يدها، حاولت هدى المسكينة أن تهدئ من روعها بلطفٍ:

- سما، يا روحي، أنا لا أستطيع العودة إلى بلادي بسبب هؤلاء الذين يقطعون الرؤوس، ما علاقتي بهم يا حبيبتي؟

ولكن، لمن تقول؟! فقط لأنّها مسلمة وتتحدَّث العربيَّة لا بدّ أن تبتعد عن سما، اجتمع جميع موظّفي المحطة حول سما ضربوها إبرةً وربطوها بسريرها إلى أن غطَّت في النوم، وفي اليوم التالي أخرجوها من المحطَّة إلى محطَّةٍ أخرى، وجلبوا عوضًا عنها امرأةً عجوزًا يزيدُ عمرها على ستين سنة تدعى غزالة، كانت من

القامشلي وتعيشُ منذ فترةٍ طويلةٍ في القامشلي، زوجها كان متوفى، جلبها ابناها اللذان ولدا هنا وسلّماها إلى أطبَّاء المحطَّة، كانت والدتهما تريد العودة معهما إلى البيت سوى أنَّهما رفضا ذلك، وحين أخبرهما الطبيب أنَّ ثمَّة مترجمًا، تركا والدتيهما وحيدةً هناك ورحلا، الخالةُ غزالة قالت إنَّها تعيشُ مع الجنِّ وتراهم:

- على الدوام يرافقني الجنُّ يا بني، يجلسون بعض الأحيان إلى جانب زوايا الجدران، وأحيانًا أخرى يهاجمونني.

الطبيبُ كان يسألُ سؤالًا تلو الآخر:

- أتُرى ينادونكِ؟

- نعم طبعًا...

- وما الذي يقولونه؟

- يشتمونني، يقولون لي كلامًا بذيئًا ويهدِّدونني بالقتل.

- هل هم رجالٌ أم نساء.

- إنّهم جنٌّ، جنّ... لا رجالٌ ولا نساء....

- ما هي ألوانهم؟ كيف تبدو هيئاتهم؟

- أحدهم في هيئة أفعىً غليظة وكبيرة، إنّه هادئ، دائمًا ما أراه

جالسًا في زاويةٍ وهو ينظرُ إليَّ، وآخر أزرق بالكامل، أخاف منه، حين يتكلَّم ثمَّةَ دمٌ ينقَّط من أسنانه.

- أين هم الآن؟

الخالةُ غزالة التفتت حولها، وأشارت بإصبعها خائفةً وكأنَّها تحدِّق في عيني عدوٍّ لها:

- إنّهم هناك، يصغون صامتين.

- ما هي أسمائهم؟

- لا أعرف، إنَّهم جنٌّ...

لم تحصل أيّ علاقةٍ بين الخالة غزالة الصامتة دومًا وبين هدى، كنتُ آتي إلى هذه المحطَّة لكي أترجم للخالةِ غزالة عن الكرديَّة ولأجل هدى بالعربيَّة، هذا الأمر زاد من انكسارها:

- في المعتقل كان لديَّ العديد من الأصدقاء الكرد، لكن هذه هي المرَّة الأولى التي أصادف فيها إنسانًا من بلدي نفسه ولا نستطيع أن نفهم بعضنا بعضًا ولا يعرفان لغة بعضهما الآخر، والتراجيديا الأكبر أنّنا الاثنان لا نعرفُ لغة هذا البلد.

وبالنسبة إليّ كانت هذه المرَّة الأولى التي لا أكونُ فيها وسيطًا بين شخصٍ من وطني القديم وبين آخر من وطني الجديد، بل كنتُ وسيطًا بين شخصين من وطني القديم.

حين أتى موعد الخروج من تلك المحطَّة المغلقة، تذكّرتُ شيئًا، فمع خروجي صادفتُ مرَّةً أخرى الشابَّ الوسيم الذي حتَّى الآن أعرفه باسم «عيسى» أو «إيسوس»، شاب ألمانيّ يتشبَّهُ من خلال لحيته وشاربه بالنبيّ عيسى، في كلِّ مرَّة يراني فيها يتقدَّمُ نحوي مسرعًا:

- جيّد أنَّك أتيت الآن، لقد أتيت في وقتك.

مباشرةً يمدّ كفَّه إليّ:

- أتوجد معك فكّةَ نقود؟

أشار بإصبعه إلى الهاتف المعلّق في جناح من المحطَّة قائلًا:

- أنت تعرف أنَّهم ينتظرونني، لا بدَّ أن أهاتفهم.

- من ينتظرك؟

- الله، إنَّه ينتظر هاتفي منذ أيَّامٍ سوى أنّني لا أملك نقودًا معدنيَّة.

في المرَّة الأخيرة وكي لا أكسر قلبه، ملأتُ جيوبي بالنقود المعدنيَّة وناولته إيَّاها، اتجّه نحو الهاتف مغتبطًا، خرجتُ من تلك المحطَّة حزينًا تاركًا جزءًا من ذهني وروحي المتألِّمة هناك متوجِّهًا نحو المنزل بسرعةٍ وذهبت.

كان لا بدّ أن أرتاحَ قليلًا لكي أتوجَّه في اليوم التالي نحو

مجموعةٍ أخرى قَدِمت حديثًا من سوريا، حيث لم يعد يأتي أحد من سوريا فرادى وإنَّما يجيئون جماعاتٍ.

الخرزة 50: خرزةُ السوريّين المُستندين إلى العاصفة

في تلك الأيَّام وعلى الرغم من متابعتي الحثيثة للحرب الطَّاحنة، سوى أنَّها كانت المرَّة الأولى التي أرى فيها جريحًا على إثرِ تلك الحرب، كان اسمهُ أحمد من حمص السوريَّة، كان قد جُرِح في ساقَيه ويمشي على عكَّازةٍ، كما أنَّ عينيه ونتيجة انفجارٍ حصل بالقرب منه لم يعد يرى بهما جيِّدًا كادَ أن يفقد بصره بالكامل، انخرط في بكاءٍ حينَ ترجمتُ له للموظَّفة المسؤولة عن اللاجئين، في البداية لم أفهم لِمَ يبكي هكذا، لكنّني حينَ عرفتُ سبب بكائه، اغرورقت عيناىَ بالدموع وفقدت القدرة على الترجمةِ ولا حتَّى أن أواسيه، مع انشغال الموظَّفة بتدوين بعض الملاحظات قال لي:

- حينَ عرفتُ أنَك من سوريا، ومع سماعي بكلمة سوريا وددتُ أن أبكي لكي أرتاح قليلًا، لقد مضى عليَّ أسبوعٌ كامل وأنا أتكلَّم مع هؤلاء بالإشارة، فقط اليوم الذي أتيت فيه كان ثمَّة ترجمانٌ عبر الهاتف وإلى الآن، أمرٌ جيِّدٌ أنَّك أتيت، انظر ما الذي حصل لنا يا أخي، منهم من قُتِل، منهم من تدمَّرت بيوتهم وجرحوا وهربوا، لم أُرِد ولو مرَّةً واحدة أن أخرجَ من بلدي، كنت أقول إمَّا سأموت في حِمصَ أو أكونَ حُرًّا فيها، ولكن أن أتركها خلفي أنقاضًا وأخرج إلى بلدٍ آخر، هذا ما لم أكن أتخيَّله، ولكن....

بدأ بإخراج جراحَ بدنه، عدا عن قدميه ثمَّة آثارُ ضرباتٍ على ظهره وبطنه، حين رفعتُ رأسي رأيتُ الموظَّفةَ وهي تنظرُ إليَّ بحزنٍ وبنظراتٍ لا معنى لها، وقبل أن أترجم لها قالت:

- مع أنّني لا أعرف لغته، سوى أنّني أعرفُ ما يقوله، إنّني أرى كلَّ شيء...

لم أقوَ على النَّومِ تلكَ الليلة، على الرغم من أنّ سنواتٍ مرَّت على الموت اليوميِّ الذي أشاهده وأسمع عنه، لكن يبدو أنَّ ثمَّة فرقًا بين أن ترى الشيء وأن تسمع عنه.

كانَ أحمد من أصحاب الحظِّ الجيّد لأنّه وصل حيًّا إلى بلدٍ آمن، يوجدُ مئاتُ الآلاف الذين إمَّا ماتوا أو جُرحوا، هؤلاء جميعهم أناسٌ لديهم عائلاتٌ وأطفال، يوميًّا كان يصل من هؤلاء الأشخاص العشرات إلى المدينةِ التي أعيشُ فيها، من بينهم عجائزُ، شبَّانٌ، فتياتٌ وأطفال، وأحيانًا يصلُ شخصٌ واحدٌ نجا من عائلةٍ كبيرةٍ، كلُّ واحدٍ منهم كان قد أتى بجعبةٍ مليئةٍ بالحكايات كجعبة الشحّاذين وأقبلَ، والقاسمُ المشترك بين كل تلك الحكايا هو وطنٌ تهاوى ولا أملَ في أن تتوقَّف الحربُ ولا القصفُ بالطائرات ولا الكفُّ عن قطع الرؤوس، وطنٌ يسلكُ دربَ الانتحار من غير رجعة، عدا عن ذلك، لكلِّ شخصٍ حكايةٌ مختلفة عن الآخر، في كلِّ الأحوال، وفي اليوم التالي كانت وجهتي نحو منزل مجموعة شبَّانٍ تحت سنِّ الثامنة عشرة وجميعهم في حالةٍ نفسيَّةٍ سيّئة، شابٌّ آخر وحكايةٌ أخرى من هذه السلسلة الطويلة من الحكايا

التي باتت أساسًا لحياتي التي تنصهر معهم وتجعلني تارةً حزينًا وتارةً أخرى مندهشًا..

الخرزة 51: خرزةُ حسين الصغير

في ذلك المبنى كان هناك مجموعةٌ من الشبَّان الذين لم يتجاوزوا الثامنة عشرة بعد، كان الطبيب النفسي الذي يدعى هير ساوَر في انتظاري، وقبل أن يطلب في إثر الشابّ حسين ذي الخمسة عشر عامًا والقادم من سوريا مؤخَّرًا أراد أن يخبرني بضع جملٍ حول حالته الصحيَّة لكي أكون على علمٍ بحالته بشكلٍ موسَّع، قال: أعتقد أنَّ الشابّ يعاني من مرض الشيزوفرينيا ويرزح تحت ثقل اكتئابٍ وحزنٍ عميق، كما أنّ معلوماتٍ وصلتني قبل ذلك عن محاولته لقتل أبيه، هذه ليست المرَّة الأولى التي أسمع فيها حكايته، لكننا نريدُ أن نفهم مرضهُ أكثر لكي نرسله إلى مكانٍ لعلاجه، وحينَ سألت عن المكان الذي أقبل منه الشاب، نظر ساوَر إلى الملفّ الخاص بالشاب وقال:

- عامودا...

أردت أن ينهي كلامه بسرعةٍ ويطلب في إثر الشابّ، حتّى أعرف سبب محاولته لقتل أبيه وهو في هذه السنّ وأفهمه، مع دخول حسين الصغير الخائفِ والمرتاب، اشتممتُ رائحةً غريبة، وروحي التي تعاني من اضطرابٍ منذ زمنٍ، تلك الرائحة لم أشتمّها منذ ما يزيد على العشرينَ عامًا، ليست رائحةً كريهة لا، لكن بمقدوري أن أقول: إنَّها رائحةٌ خاصَّة، رائحةٌ تتجمَّعُ فيها: عامودا، الأفاعي الخضراءُ المبقَّعة، بيريفان، بناءُ رزّو البائع المتجوِّل الذي لم

يكتمل، خيانة القريبين، دماء العشق الخاسر، وبر قطّ رزّو وموته، الطفولة، الندم، الضحكُ من القلب، بكاءٌ عميق وبعيدٌ عن أعين الناس، الغربة، الألم، السعادةُ والكثيرُ من الأشياءِ الأخرى، الرائحةُ التي دخلت مع دخول حسينِ أنسَتني أنّني هنا لأجل الترجمة، تلك الرائحةُ حوَّلت قلبي مباشرةً إلى قلب الأفاعي الخضراء المبقَّعة، تلك الأفاعي التي كانت تبلعنا في الطفولة ولا تزالُ حتَّى الآن، أذهلتني ملامحُ حسين، كان يشبهني كثيرًا، يُخالُ إلى المرءِ أنَّهُ أنا، ذلك الطفل العامودي الذي ينهالُ عليه الغبارُ والتراب في الصيف ويغوصُ في الوحلِ شتاءً ويكبرُ بينه، لعلّني الآن ميِّتٌ وهذا الطفلُ هو روحي، لباسي، ربّما غيَّرتُ لباسي وارتداه هو، كان عمر حسين في نفس عمري حين عبرت حدود تلك البلاد التي ولدتُ فيها وهربت منها، لذا اعتراني شكٌّ أنّني ميِّتٌ دون أن أنتبه إلى موتي، عبرت كل تلك الأفكار في اللحظة نفسها، بسرعةٍ، أنزلني صوتُ ساوَر الغليظ من على أجنحة الخيال إلى أرض الحقيقة، بعد أن عرَّفت نفسي كمترجمٍ بدأ حسينو بالإجابة عن أسئلة الطبيب النفسيّ.

الخرزة 52: خرزةُ عمق عذاب طفلٍ

حقيقة هو كان عبارةً عن شخصين داخل شخصٍ واحد، حسين الخجول وصاحب القلب النَّاعم والرقيق وتحبّه لمجرّد رؤيته، وحسين آخر وقح وذو لسانٍ سليط ومؤذٍ، بإمكانه بكل بساطةٍ أن يطعن أي شخصٍ بالسكاكين، كانَ أشبه ببركانٍ من العداء والكراهية يهابهُ المرء، كيف أمكن للشخصين أن يجتمعا في ذلك العمر الصغير؟ جواب هذا السؤال أتى عبر تلك الجلسة والجلسات التي تَلَت وتوضَّحت الأمور، بدأ حسين مباشرةً بحادثة انتحار عمِّه:

- حتَّى الآن لا أعرف إن كان قد انتحرَ فعلًا أو ثمَّة من قتله، ولكنّهم أخفوا الأمر كي لا تبدأ حكايةُ السردِ والانتقام، كنتُ أسمع همسات من يزورون والدتي ويقولون إنَّ هناك آثار رصاصاتٍ خلف رأسه، لذا كانوا يؤكِّدونَ أنَّ الضربةَ أتته من الخلف والمسألةُ ليست انتحارًا. موتُ عمي غيَّر حياة أبي أيضًا، لا سيَّما أنَّه كان أخَ أبي الصغير والوحيد، كانَ يزوره مساءَ كل خميسٍ في قبره، ومنذ موت أخيه باتَ أبي يذبلُ رويدًا رويدًا هوَ الآخر، يغضبُ بسرعةٍ، باتَ يضربنا أكثر من ذي قبل ويودُّ البقاء وحده دائمًا، كلَّ يوم ثمَّة مشاجرات بينه وبين أمي، وحتَّى تلك اللحظة لم أفهم لِمَ بقيا زوجين حتَّى الآن دون أن ينفصلا، أرادت أمي عشرات المرَّاتِ الطلاقَ،

سوى أنَّه يجاوب في كلِّ مرَّة على طلبها بالجواب ذاته:

- لن أحقِّقَ لكِ مطلبكِ حتَّى وإن مُتِّ، أعرفُ إلامَ تطمحين؟ تريدين الطلاق لكي تلحقي عشيقكِ أليس كذلك؟

كانت أمي دائمة المحاولة لئلَّا يتشاجرا أمامنا، وإن حصل كانت تجهَد في ألَّا تبكي أمامنا مخفيةً دموعها عنَّا، لكنّني كنتُ دائم الانشغال بهما، وكلَّما حزنت أمّي كنتُ أفقدُ نصفَ روحي.

أحيانًا كنت أعي أنَّ ثمَّة شجارًا، سوى أنَّ أمّي كانت تغلق الباب لئلّا نسمع ما يجري، كنتُ أنظرُ إليهما من ثقب الباب، وددتُ أن أكبر بسرعةٍ بغية إنقاذ والدتي من ضربات أبي، ومن جهةٍ أخرى كنت أُدهَش لأمي، كانت سليطة اللسان وبمقدورها إغاظة أبي وإثارةَ غضبه فتقول ما يثير غضبه، قلتُ لها ذات يوم:

- أمَّاه، إن استطعتِ السيطرة على لسانك فإنَّ أبي لن يغضب هكذا...

كانت أمي تردّ هكذا:

- يا بني إن لم أتكلَّم سوف أنفجرُ من قهري، لذا لا شيء أمامي لأفعله، إن لم استخدم لساني سوف أنفجر.

حين طلبت منها أنّها تستطيعُ أن تتحدَّث إليَّ دون أن تزعجه في الحديث قالت:

- الأمر صعبٌ يا بنيّ أن تفهم الآن، حين تكبر سوف تفهم سبب

الحقد والحسد والغضب المتراكم في قلبي، لا أريدُ أن تحيا يتيمًا، غدًا إن نما جناحاك وطِرت لن يكون هناك شيءٌ يمنعنا، الآن وجودنا نحن الاثنان أمرٌ جيِّدٌ لك، لا بدّ أن تكبرَ بأبٍ وأمٍّ يا بنيّ.

اغرورقت عينا أمّي وهي تتحدَّث، انتابتني أحاسيسُ الذنب بأنّني السبب في كلِّ ما يجري، رأيتُ نفسي مسؤولًا عن وضعها.

كنتُ أندهش لأمرين، الأوّل هو أبي، كيف يجرؤ على أن يفعل بأمّي كلَّ هذا وهي صابرةٌ، والثاني هو لِمَ لا تشكوه أمّي لأبيها أو لجدّي الذي كانت له أيادٍ خفيَّة وطويلة وبإمكانه أن يلقّنه درسًا، لا بل ويقطع أنفه! إلى أن سمعت صوتهما يومًا وهما يهدِّدان بعضهما بعضًا، قال لها أبي بصراحةٍ:

- إن دخلت يد أبيكِ إلى منزلي فسأحرمكِ من رؤية حسين إلى الأبد.

صمتُ أمي على المكوث عنده كانَ لأجلي وحسب، إن تكلّمت عن الظلم الذي تسبّب به أبي لأمي فلن تنتهي تلك الحكايات، ولكن على الرغم من ذلك فإنَّ الرغبة الدفينة التي تكوّنت داخلي لكي أقتل أبي لم يكن لأجل تعامله الفظّ مع أمي، إنَّما لأشياء أخرى أيضًا.

الخرزة 53: خرزةُ الخوف

وجدت في عيني حسينو وشفتيه وطريقة حديثه ما كان يجعلني أرتبط به وأنجذب إليه، في البداية قلت ربمّا لأجل لهجته، كنّا من المدينة نفسها لذا كانت أحاديثه تذكَّرني بمفرداتٍ من تلك المدينة قد نسيتها تمامًا، لكن ليس الأمر هذا وحسب، بل كانَ شيئًا يشبه السحر، وهو أنّني دُهشتُ من أنَّه كان يبدو أكبر من عمره الواضح. ترك حسينو كلَّ شيءٍ خلفه وبدأ يتحدَّثُ عن أشياء لا تُقال، كان كلامه ينسابُ إلى حدٍّ لم يجد الطبيب النفسي داعيًا لأسئلةٍ جديدة، مثل ماءٍ تجمَّع خلفَ سدٍّ وفجأةً فُتح السدّ أمام تلك المياه، تكلَّم حسينو:

- كان أبي رجلًا غريبًا، بدأ في السنوات الأخيرة بالصلاة والصيام، والذهاب يوم الجمعة إلى المسجد، ولكنَّه في الوقت نفسه وما إن ينهض من على سجادة الصلاة كان بمقدوره أن يفعل أيَّ شيء محرَّم من الربّ أو النبي أو الأديان كلِّها، كنتُ صغيرًا ولا أفهم ما الذي يجري من حولي، فكلّما رافقتُ طفلًا أراهُ يبتعدُ عنّي في اليوم الثاني بناءً على منع أهله، كنتُ أبكي كثيرًا، لكنّني لم أكن أستطيع فعلَ شيء، وهكذا ابتعد عنّيَ أطفال جيراننا أيضًا، كلّما بقيت بمفردي التجأتُ إلى حضن أمّي لأبكي، مرَّةً كل يوم كنتُ أسألها هذا السؤال:

- أمَّاه، لمَ لا يحبني الأطفال ويمتنعون عن اللعب معي؟

تمسحُ أمّي دموعي وتبكي من قهرها، وأحيانًا كانت تواسيني هكذا:

- لا عليكَ يا بني، إن لم يأتوا هم فاذهب أنتَ إليهم.

مؤخَّرًا أزاحَ رفيقي ساميكو الستارَ عن وجهِ أبي وأخبرني بكلِّ شيء، قال إنّه أتى إليَّ يومًا لكنّنا لم نكن موجودين في البيت لا أنا ولا حتَّى والدتي، حينذاك أدخله أبي إلى الغرفة ومازحه بأنّ أذنه ليّنةٌ وناعمةٌ جدًّا وكان قد بدأ بتدليك أذنه في البداية، فهم ساميكو هذا التدليك على أنّه مجرَّد مزاحٍ، سوى أنّ يدي أبي رويدًا رويدًا كانتا تنزلانِ نحو الأسفل، حينَ تحرَّكت يداه على مؤخّرة ساميكو خافَ الأخير محاولًا الإفلات من بين يديه، سوى أنَّ أبي لم يفلته، لكن ساميكو تمكَّن من خداعه، حيث أخبره بأنّه عطشان، وحين التهى أبي بجلب المياه خرجَ ساميكو من الغرفة كالصاروخ وتمكَّن من الهرب، في اليوم التالي أخبرني بكلِّ شيءٍ في المدرسة، ومنذ ذلك اليوم عرفتُ لِم يمنعُ الناس أولادهم عن المجيء إلى منزلنا، اسودّت صورة أبي في عيني مذَّاك وتحوَّل في نظري إلى ثعبان أعمى، كنت أنفر منه ولا أودُّ رؤية وجهه، غضبت من أمي، فكيف لها أن تتزوَّج برجلٍ يعتدي على الأطفال وعلى أصدقائي، سنقول إنها لم تكن تعرف، ولكن بعد الزواج كيف كان بإمكانها العيش مع رجلٍ كهذا، مع أنّني لا أعلم بشكلٍ مؤكَّد إن كانت أمي تعرف ما كان يفعله، ولكن إن لم تكن تعرف،

تُرى لِمَ كلُّ هذا الشجار الذي كان بينهما، كانت تلتهمني مئاتُ الأسئلة دون أن أعثر على أجوبةٍ واضحةٍ لها، فقط ثمَّة شيء كان واضحًا بالنسبة إليَّ وهو أنَّ أبي قد حوّل حياتنا أنا وأمّي إلى خراب، ولا بدَّ لهذا الخراب أن ينتهي عند حدٍّ ما، كنتُ أنكسرُ ليأس أمي ولعدم قدرتها على إيجاد حَلٍّ ما، ودَدتُ يومًا ما لو أنَّ أمي تمسك بيدي ونرحل عن هذا الأب الذي حوَّل حياتنا لجحيمٍ إلى مكانٍ لا يستدلّ عليه إلى الممات، سوى أنَّ أمي كانت ترى نفسها ضعيفةً وبلا حيلةٍ، وتعتبر حياتها من دونه مثل طائرٍ بلا جناحَين، كلّ الناس هناك كانوا يهابونَ جدّي، والد أمّي، لم أفهم لماذا لا تشكوه أمّي أو تخبره عن الخراب الذي جلبه إلينا أبي، حتَّى ولا كلمة سيّئة عنه، دائمًا تقول لي:

- لا أريد أن أهدم منزلي بيديّ يا بنيّ...

لكنها لم تكن تعرف أنَّ البيتَ ركامٌ وانتهى وما من شيءٍ يخافُ عليه المرء، لا أعرف كيف استطاعت أمي أن تحتمل هذا الثقل الذي رماه أبي على كتفيها، لذا، كان أملي الوحيد في الخلاص هو الله، وددتُ لو أن أستيقظَ يومًا لأرى أبي ميِّتًا، لكن مضى الوقت وانتهى هذا الأمل أيضًا بداخلي، لأجل ذلك رغبتُ في أن أقتلهُ بنفسي وأجعل أمي ترتاح منه، في كلِّ مرَّةٍ كنت أفكِّرُ بطريقةٍ ما، كلّ ليلةٍ كنت أفكِّر بقتله وفي الصباح التالي أتراجعُ عن القرار، إلى أن حلَّت الفوضى في سوريا ومنطقتنا وحمل الناس كلَّهم السلاح، أوّل شخص فكَّرتُ أن أحمل السلاحَ في وجهه كانَ أبي! لكن لا أعرفُ لِمَ أشفقتُ عليه، وحين كنتُ أفكّر في أبوَّته أكره نفسي

وأهربُ إلى رقعةٍ صامتةٍ لأبكي، آلمني خيالُ أن أضربه الضربة القاتلة من الخلف وهو على سجَّادة الصلاة، هذا الخيالُ الذي لم يبارحني، أحيانًا كنت أندهش من نفسي وأكرهها، ما هذا؟! من ذا الذي يريد قتل أبيه غدرًا، وأحيانًا أخرى كانت فكرة أن أكون الولد السيئ الذي يقتل أباه تُذهِبُ النوم عن عينيّ وتجعلني أسيرًا للإحساس بالذنب، لكن وفي الوقت نفسه لم أكن أملكُ حلًّا آخرَ، اندهشتُ من نفسي ذلك اليوم حين قُتِل أبي في انفجارٍ ضخمٍ ضرب مدينتي، كانت أمّي تُبكيهِ بكاءً عظيمًا، وما رأيتُ نفسي إلَّا مثلها، أبي الذي ودَدتُ قتله، وحين ماتَ أصبحتُ مثل كلبٍ ينبحُ على إثرِ ضربةٍ ورأيتُ نفسي يتيمًا من بعدِه، لِم حصل هذا؟ كيف يمكن لهذه المشاعر المتناقضةِ أن تثور بداخلي، لا أعرف.

الخرزة 54: قيامةُ الميَّت الذي في القلب

هذه هي المرَّة الأولى التي أتفاجأ بها وأنا أترجَم ويتصبّبُ مني عَرَقٌ حارّ، كما أنَّها المرَّة الأولى التي أُنهي فيها الترجمة وأدعو من ترجمت له إلى شرب القهوة، اعتبرت أنَّ طريق عودتنا واحد لذا دعوته إلى استراحةٍ في المقهى. بدايةً ذكّرته أنَّني مترجم وإحدى دعائم وأساسيَّات عملي هي الحفاظُ على الأسرار الخاصَّة لمن أُكلَّفُ بالترجمة لأجله، مع هذه الكلمات فتحتُ الطريقَ أمام أسئلتي التي لا يجب على مترجمٍ أن يسألها، ولكنني مثلَ نمرٍ اصطاد فريسة هكذا كنتُ لطيفًا مع حسينو، بسرعةٍ وكمن يودُّ أن يتأكَّد من معلوماته سألتُ:

- أبوك اسمهُ ياسينو، جدَّك هو رزّو البائع الجوَّال، واسمُ أمِّك بيريفان، أليس كذلك؟

نظر إليَّ حسينو بعينين مليئتين بالأسئلة:

- نعم، صحيح...

كان حسينو شابًّا منفتحًا ويحب الحديث، وحينَ عرف أنَّني من نفس بلده وأعرف عائلته، كمن يبحث عن شيءٍ وعثر عليه بدأ بالحديث:

- في الحقيقة ثمَّة أسئلةٌ في قلبي أودّ أن أسألك إيَّاها؟

أردت بسرعةٍ أن تمضي تلك الأسئلة لنصل إلى السؤال الذي أضرم النار بداخلي، وأحوِّل تلك النَّار إلى سؤالٍ كي أطفئهُ بماء الجواب، وذلك السؤال سيكون عن بيريفان، الذي أخذ منها الولدُ كلَّ ملامحها وسماتها الجميلة التي جلبها معه ليرشّ البنزين على الجمرة النائمة بداخلي ويوقِظها، ولكن قبل أن أوجّه الحديث في هذا الاتجاه، فعل حسينو ذلك:

- لقد بقيت أمي وحدها في تلك البلاد وأحاول أن أطلبها لتأتي إليَّ هنا، ولكنّني لا أعرف لغتهم في هذا المكان ولا أعرف ماذا يستوجب للأمر، تُرى هل ستساعدني في ذلك؟

أحيا سؤاله عشرات الموتى بداخلي، وددتُ أن أقول له إنّ مجيئها مساعدةٌ لي أنا قبل أن تكون مساعدةً له، كما وددتُ أن أخبره بأنَّ هذه السبحة الملفوفة حول معصمي الأيسر هي هديَّة أمّك وما زالت في مكانها، والشيء الأهمّ الذي وددت أن أقول له وبصراحةٍ إنَّ أباه ياسينو قبل أن يضرَّه كأبٍ فقد آذاني كصديقٍ، والآن كان لا بدّ أن يكون ابنًا لي وليس ابنَ ياسينو.

استبدّت بي رغبة احتضان حسينو الوسيم والمبتسم ذي العين النقيَّة، لكنني تمالكتُ، وكقماشةٍ مبلّلةٍ يودُّ المرءُ أن ينشفها، هذا ما فعلته بـ«حسينو» وودتُ أن أعرف كلَّ المعلومات عن بيريفان، واتّفقنا على أن نعمل سويَّة لتجهيز مجيء أمّه، لم أعِ إن كنتُ في حلمٍ وأنّ حسينو مثله مثل الطائر الأسود الذي يأتي يومًا ويغيب أشهرًا أم أنّ المصادفة العمياء هي من رمت هذا الولد الصغير

إلى هذا المستشفى الذي أعمل فيه ترجمانًا لكي يجلب ليَ نصفيَ الجريح فعلًا إلى هنا وأن أراها قبل موتي باطمئنانٍ، بهذا السؤال الذي كان مثل ألمٍ خفيفٍ يتسرَّبُ إلى رأسي انتبهتُ إلى أنَّ الأمر حقيقة وأنَّه من الممكن أن يحصل كلُّ شيءٍ في هذا العالم الكرويّ ومنها أن أرى بيريفان.

الخرزة 55: خرزة الركض خلف الأشباح

دخول حسينو إلى حياتي بهذه السرعة جعل رأسي مشوَّشًا وأعادني إلى باب الطفولةِ ومن ثمّ فترة الشباب، بالنسبة إليَّ كان قطار الحياة قد عثر على طريقه ويسلكه، يتوقَّف أحيانًا في بعض المحطات، سوى أنَّ هذا التوقف هو بغية الإكمال نحو النهاية، نحو الموت.

أتى حسينو جالبًا معه طريقًا واسعةً للعودةِ نحو الخلف، نحو جانب زيادة فرصة الحياة مذكّرًا إيَّاي أنَّ الموت ربما لا يزالُ بعيدًا، لقد أعادَني إلى داخلي، لم أعرف أنَّني قد اشتقتُ إلى نفسي هكذا، إلى الحياة، إلى تلك الكائنات المتوحّشة النائمة بداخلي ووددتُ أن تستيقظ مرَّةً أخرى، كنتُ أعتقد أنَّها قد ماتت، ولكن من الواضح أنَّ الحب الأوَّل يخرجُ مع توقّف القلب الأبديّ ويموتُ بموته، هكذا كنتُ قد سمعتُ، لكنني الآن أحيا هذا الشيء وأعيش فيه، فجأةً حلَّ الحبُّ مكانَ الكهولةِ واليأس، أفكارٌ غريبةٌ كانت قد احتلَّت رأسي، تذكّرت ابنتي دانا، الآن أحسُّ أنَّ ثمة شبهًا بين وجهها ووجه بيريفان، كانت لا بدّ لها أن تكون ابنةَ بيريفان، وهكذا كنت أتحدَّثُ إلى حسينو بمشاعر أبٍ، كان لا بدّ له أيضًا ألَّا يكون ابنَ ياسينو وإنَّما ابني، أخطأ القَدَر خطأ فظيعًا وها هو يحاولُ أن يصلِّحه، لذلك وفي هذا العالم الواسع أقبلَ حسينو إليّ وأعطاني بِشارَةَ مجيء بيريفان التي حينَ تأتي وننجبُ طفلًا

فإنّه سيصبح أخت أو أخ دانا أو أخًا أو أختًا لـ حسينو، سخرتُ من أخيلتي تلك، من ذا الذي يصدِّقُ أن يفكِّر رجلٌ في الخمسين بإنجاب طفل أو أن تعودَ المرأةُ التي ابتعدت عنه منذ عشرات السنين، لا يوجد أيُّ دليلٍ على أنَّ الطائر الأسود له يدٌ في تسيير الحكاية، لكن على الرغم من ذلك فإنَّ رائحة روح أمي تنبعث من قيامتي المفاجئة هذه.

لأنّ حسينو لم يتمَّ الثامنة عشرة، فإنه وبحسب القوانين المتعلقة باللاجئين يستطيعُ أن يجلب أمَّه، ولأجل تحقيق هذا الأمر أنهيت كل الأوراق اللازمة فاتحًا الطريق لمجيء صاحبة هذه السبحة التي لم أخلعها عن معصمي يومًا واحدًا، أنا لم أعد أعرف ما الذي يحصل لي، عدتُ مرَّةً أخرى إلى الوقوف أمام المرايا، وأكثر من ذي قبل بدأت أحافظ على مأكلي وهندامي، وددتُ أن تأتي بيريفان وتلقاني شابًّا كما مضى وقويًّا، ولكن فعلتُ كل شيءٍ لكي أبدو شابًّا أكثر من ذي قبل، كنتُ أسخر أحيانًا من هذه الأفعال التي أقوم بها والتي تشبه أفعالَ الفتية المراهقين، وأحيانًا أخرى كان ثمَّة بكاءٌ يتسلّلُ إلى داخلي فأبكي بحرقة، كلّما شعرتُ أنَّ بيريفان ستصلُ قريبًا ثمّة هيجانٌ يعتريني وكأنّني لم أرَ نساءً في حياتي، بتّ أشْبَهَ بمن لا يعرفُ السباحة وقد رماه أحدهم في البحر بملابسه ولا بدّ له أن ينقذ نفسه من الموتِ بنفسه، هكذا لم يعد ليليَ ليلًا ولا نهاريَ نهارًا، كما أنَّ انشغالاتي اليوميَّة كانت تنصهرُ كلها في عمق ذهني وروحي وتتحوَّل إلى حلم.

الخرزة 56: خرزةُ السباحة في مياه حلمٍ

المسألةُ كانت مشتركةً بين وطني القديم الأوَّل ووطني الحاليّ الثاني، ففي الأوَّل حربٌ وقيامةٌ، كلّ واحدٍ فيها يبحثُ عن تدبير شؤونه محاولًا الفرار قبل أن يموت، رغم أنَّ الوطنين يبتعدان بعضهما عن بعض آلاف الكيلومترات، سوى أنَّ عيني كانت ترى كل ما يجري في تلك البلاد، فيما العينُ الأخرى تراقبُ بلدي الحاليّ، قديمًا كان الإنسان يستطيع أن يصل إلى هنا بعد محاولاتٍ، لكن المرحلة الآن هي مرحلةُ الهجرة الجماعيَّة، لا سيَّما أنّ الناس هناك سمعوا أنَّ البلد الثاني قد فتح كلَّ أبوابه لهم ويقوم بتجهيز كلَّ شيءٍ لهم على الفور، وأنا، المسكينُ، كنتُ مندهشًا لأناس البلد الأوَّل ولوضع البلد الثاني، فالبلدُ الأوَّل جهَّز للبشر الذين التجؤوا جماعاتٍ إليه مسابح كبيرة، ووزّعت الدولة العشرات من رجال الشرطة والعمّال في تلك المسابح وكانوا منشغلين بالأناس الوافدين حديثًا، فكلّ من يُقبِلُ كانوا يخلعون ثيابه ودون أن يسألوه إن كان يعرف السباحة أم لا ويرمونه في المياه، وكلٌّ وجهده في أن ينقذ نفسه ويصلَ إلى اليابسةِ حيًّا، وهناك كنت أتجوَّل في ما بينهم لأجل الترجمة، وعلى الرغم من ترجمتي الحرفيَّة لكل جملةٍ، سوى أنّ الطرفين لم يكونا ليفهما بعضهما بعضًا، وكلٌّ منهما يفعل ما يدور في ذهنه، عمّال المسبح كانوا يأخذون بصمات أصابع الناس كلّها ومن ثمّ يرمونهم في المياه، ومن يعترض ويقول لا، أو يوضِّح أنّه لا يعرف السباحة،

كان يُرمى عنوةً بعونٍ من الشرطة إلى المياه التي تبدو واسعةً وعميقة جدًّا، الأمَّهاتُ مع أطفالهنَّ الرضَّع، الآباءُ مع الأطفال، المسِّنون، لم يفلت أحدٌ من تلك المياه، كنتُ أستنتج من صراخهم أحيانًا أنَّ تلك المياهَ باردةٌ جدًّا وأحيانًا أخرى أشعرُ أنَّها حارَّةٌ جدًّا يعلوها البخارُ، كان بينهم أحيانًا جرحى حرب، إلى الآن لا أنسى بكاء أحمد من حمص الذي فقد عينه في الحرب وقدمه وباتَ بساقٍ واحدة، حين سمع صوتي وعرف أنّني قَدِمت لأجل الترجمة انسابت دموعه مثل ساقيةٍ ضيِّقةٍ على رمّانة خدَّه:

- أترى ما الذي حلَّ بي يا أخي، لم أرِد الخروج من حمص، ولا من سوريا، وها أنا الآن قد تركت البلد كلّه أعمى وبلا ساقٍ لأغدو بلاءَ هؤلاء.

لم يكد ينهي حديثه حتى اقترب منّه موظَّفان ولأنّه أعمى، استنجد بي:

- ما الذي سيفعله هؤلاء بي يا أخي؟

لم أعرف ماذا أقول له، لأنني لم أعِ ما الذي يجري هناك، بعد أن أبعدت المياهُ أحمدَ الحمصي عنّي تشاجرتُ مع الموظّف:

- لِمَ تفعلونَ ذلك؟ ألا ترونَ أنَّه أعمى ولا يعرف السباحة؟

ربت الموظّف على كتفي وردّ بدمٍ بارد:

- لا تخف على مواطِنيك، لا بدّ أن يتعلّموا الحياة هنا، ونحن هنا

لنطبِّقَ القوانين، ثم هناك من يساعدهم، لِم أنت خائفٌ عليهم هكذا؟

- أنا أخجلُ من نفسي، ألستُ هنا لكي أبني جسرًا بينكم وبينهم، أليس اسمي باني الجسور!

الحقيقة هي هذه فعلًا، فمن جهةٍ كانوا يرمون الناس بالعشرات إلى المياه، ومن جهةٍ أخرى بنوا مؤسساتٍ مخصَّصة للمساعدة تعطي النقود للعاملين والموظّفين فيها، قلت في نفسي لا ترموهم هكذا في المياه ولا تصرفوا نقودًا كثيرة هكذا عليهم، لكن لا أحد يسمع الآخر، وفي النتيجة لم أرَ أحدًا ماتَ من اللاجئين بين تلك المياه، كانت الأمواج ترفعهم وتُنزلهم قليلًا ومن ثم يتدخّل الموظفون المختصون بالمساعدة لإخراجهم، كانوا ينشفون أجسادهم ويتابعون حياتهم صامتين، هكذا بعد مرحلة السباحة يذهب كلٌّ واحدٍ منهم إلى مكانٍ ليبدأَ حياته كما يحلو له، وأنا في تلك الضجة كنت أبني الجسور بين أولئك الأشخاص، لكن، المياه كانت تمنعني وكذلك ضجيج الناس، بعد انتهاء عملي في الترجمة بمكان السباحة بحثتُ عن حذائي دون أن أعثر عليه، ولم أتذكَّر متى أو أين خلعتُ حذائي، حملت همَّ كيف أنّني سوف أخرج إلى الشارع وأمشي بين الناس وأعود إلى المنزل حافيًا، كنت لا أزال أبحث حولي، رأيت شرطيين وهما يقبلان نحوي، كانا يشبهان الشرطيّين اللذين صادفتهما أوَّل مجيئي إلى هذه البلاد وكانا قد عرّياني على الحدود، لم أنسَ ضخامتهما وملامحهما حتَّى تلك اللحظة، اقتربا منّي وحملاني من كتفي حافيًا ورمياني بقوة إلى

المياه الحارَّة، ولأنّني لا أجيد السباحة كانت المياه تدخل إلى حلقي كدتُ أختنق، فجأةً استيقظتُ من نومي على إثر صراخي، أبصرتُ نفسي غارقًا في عَرَقي مرتعدًا ومرتجفًا من رأسي إلى أخمص قدميّ، غادرني النومُ، من جهةٍ كنت أفرح لأنَّه كان مجرَّد كابوسٍ وانتهى، ومن جهةٍ أخرى بقيت إلى الفجر وأنا أفكِّر في معنى هذا الحلم الغريب الذي راودني.

الخرزة 57: خرزةُ الجمرة التي تحت الرَّماد

حين توجَّهتُ إلى المطار، شعرتُ وكأنّني أتوجَّهُ إلى المحطَّة الأكثر أهميَّة في حياتي الماضية، كنتُ متوجِّهًا نحوَ طفولتي، نحو شبابي، نحو ربيع عمري، أنا الكهل الذي يعيش في خريف عمره، فجأةً تسلّلت خُضرةٌ إلى أعماق روحي، وفرحةٌ خفيفةٌ، ناعمةٌ ودافئة تسلّلت إلى الحزن الأصفر لحياتي وطوّقت حياتي من كلِّ الجهات، وإلى جانبي حسينو المفتخر بجلبه لأمِّه إلى ألمانيا، فرحته كانت في محلِّها، كان يتفرَّج عبر نافذة السيارة إلى الأنحاء ويتحدَّثُ عن مجيءِ أمّه، وشكرني على المساعدة الكبيرة التي قدّمتها إليه:

- لولاك، لما كان بمقدوري جلب أمي بهذه السرعة.

وددتُ أن أقول له: كنت أساعد نفسي، ولم أقدّم لك أيّ مساعدةٍ تُذكَر، لكنني لم أكن أملك ما أقوله له ولم ينبس هو ببنت شفة، كل ما يعرفه هو أنّه صادف شخصًا من بلده وساعده بكلّ ما أوتي من قوَّةٍ، لذا كانَ ممتنًّا لي.

وصلنا بسرعةٍ إلى المطار، أو ربمَّا خُيَّل إليّ ذلك، إلى تلك اللحظة لم يكن بمقدوري التصديق أنّ هذه الأحداث التي أعيشها الآن حقيقة، وأنّني بعد دقائق معدودةٍ سوف أتمكَّن من رؤية بيريفان وسوف تقف أمامي بكلِّ سهولةٍ، وستتمكّن من الخروج

برفقتي وتخرج وتدخل برفقتي كذلك دون أن يطلب أحدٌ منها الحساب، توقّفنا أنا وحسينو مثل أبٍ وابن بين رهطٍ من الخَلق الذين ينتظرون المسافرين، لم يكن الابن منتبهًا إلى النار التي تأكل قلب الأب الذي يحترقُ ويخرجُ من تحت رماد ناره مرَّةً أخرى، تعرّقَ، كل الموتى المدفونين في «شرمولا» تحت ترابها كانوا ينبعثون إلى الحياة، تلك المدينةُ التي رماها الربُّ مثل عظمةٍ قديمةٍ إلى زاويةٍ ضيِّقةٍ في هذا العالم الواسع تاركًا إيَّاها للجفاف، تلك المدينة التي ولدت فيها، مع ولادتي قتلتُ أمّي، وكذلك حين ولدتُ للمرَّة الثانية مع حبّي لبيريفان قتلتني أمّي، وجسدي الذي اعتقدوا أنَّ الروح فيه قد ماتت أرسلوه إلى الغربةِ. هذا الذي في وطنٍ عجوزٍ يغدو شابًّا، وفي وطن شابٍّ يغدو عجوزًا ترك الحياة خلفه كان أنا، عودةُ بيريفان أعادت الحياة ليس فقط إلى بدني، إنَّما إلى كل الموتى تحت تراب «شرمولا» مثل هزَّةٍ أرضيَّة، أقبلت رائحتها قبلها، ومع مجيء الرائحة سمعت دقَّات القلب، حين ركض حسينو نحو امرأةٍ قديمةٍ تجرُّ خلفها حقيبةً كبيرة لم أصدِّق ما تراه عيناي، كانت هي أوَّل شخصٍ أراهُ من فترة طفولتي وشبابي، لا بدّ أن أرى وجهها عن قربٍ وأنزل إلى عمق عينيها الحنونتين، لكي أستطيع رؤية بيريفان التي بداخلي، تُرى ألا تقول هي أيضًا عنّي هكذا؟ هذا السؤال وملايين الأفكار جالت بخاطري في تلك اللحظة، لكن ليس الوقت وقت الجواب، إنّما هو وقت اللقاء وجهًا لوجه، وقت المصادفة، الوقتُ وقت احتراق جدّ العشق والحب، احتراق اللاجئ مبتور الجناحين، لا أعرف لِم كانت عيناي في تلك اللحظة تبحثان عن الطائر الأسود دون أن أراه،

وحيدًا مثل جمرةٍ ضجرت من رمادها وتدحرجت نحو المياه، وأنا أيضًا بحزن وندمٍ تدحرجتُ نحو قدري المحاصرِ بالنَّار.

الخرزة 58: خرزة رائحة الماضي

في تلك اللحظة التي اجتمعت فيها العيون الأربعة، عينان في هذا الاتجاه وعينان في ذلك الاتجاه، من العيون الأربعة كان ثمّة شعاعُ ألمٍ انبعث، وانتشرت حكايات الفرح، وأيضًا ارتجفت الأشجار الفاصلة بين الطرفين والتي تغطّي المطار، والأعمدةُ التي رفعت المطار، والطيارات التي حضنت السماء، تلعثم الفمان عند التحيَّة دون أن يستطيع الواحد سماعَ الآخر، صمتٌ عجوز وذو ملامح مجعَّدة ذابلة ومتأخر ومحنيّ الظهر، شعرتُ بنفسي أنَّني أنفصل عن نفسي وأغدو شخصين، واحدًا منهما أنا نفسي، فيما الآخر هو الذي غادر جسمي قبل قليل، شخصٌ باتت الحياةُ كلَّها في عينه شيئًا واحدًا، وهو هذه المرأة الواقفةُ الآن أمامه مدهوشةً، هو كان ينظرُ إلى عمق عينيها الممتلئتين بالدموع، فيما هي كانت تنظر إلى الشامةِ التي على خدَّه وكذلك السَّبحة الملتفَّة على معصمه، أرادت أن تعدّ الخرزات التي اصطفَّت خلف بعضها خرزةً خرزة، وأن تعتذر تسعة وتسعين مرَّة من هذا الرجل المنكسر أمامها، انتبهت إلى الشيبِ الذي غزا شعره، وأيضًا إلى بدنه جزءًا فجزءًا، بعينين بات حولهما هدفًا للتجعّدات، سوى أنّهما في أعماقهما لم تنسَ صفاءهما، اشتمّ أيضًا الرائحة ذاتها التي جلبها معها حسينو حين أتى إلى هذه البلاد، كان واضحًا أنَّ الزمن الذي مضى وبتحولهِ إلى جسدٍ فإنَّ له رائحةً خاصَّة، رائحة جميلة، سوى أنَّها مؤلمة، رائحة بإمكانها أن تُضحكَ المرءَ، وأيضًا أن تُبكيه بشدَّة،

رائحة لا يمكن أن توصَف بالكلمات، ولكنّها تستطيع في أي وقتٍ أن تفتح الطرقَ كلّها أمام الاشتياق والحزن والدموع الحارَّةِ والأفاعي الخضراء وخرزات السبحة السوداء القديمة.

مضت اللحظات الأولى ثقيلةً، ولكن في الطريق عادَ ذهنه إليه وعاد الشخصان إلى داخلي، كما أنّ اصفرارها وكآبتها خفَّت قليلًا، كان يريدُ أن يعرف في طريق العودة إلى منزل حسينو كلَّ شيءٍ عن حياتها في السنوات الماضية، كما أنَّها كانت تودّ أن تعرفَ بشكلٍ موسَّع كل شيءٍ عن حياته:

- سنواتٌ طويلةٌ مضت، ما الذي كنت تفعله في هذه البلاد، ما الذي تفعله؟

- حين انهار الجسرُ الذي بيني وبينكِ فوق رأسي، بدأتُ في هذه البلاد ببناء الجسور.

- آه، تلحقُ النساء تعني؟

- فهمت منذ زمنٍ بعيد أنّ سبب الكره بين الناس هو عدم الفهم، وسبب عدم الفهم الرئيس هو اللغة، لذا رأيت الترجمة العمل الأقربَ إليّ، وأنّنَي أستطيع من خلال هذه الترجمة أن أبني جسورًا بين من يعيشونَ معًا ولا يفهمون بعضهم بعضًا، هذا ما فعلته، أمضيت حياتي في بناء الجسور.

- أنت لم تتغيَّر مطلقًا، ما زلت تعرف كيف تتحدَّث وترتّب

كلامك.

- أنتِ أيضًا لم تتغيَّري، ما زلتِ تصغين باهتمامٍ حتَّى النهاية ومن ثمّ تقولين كلمتكِ.

- عدا عن ذلك، ما زالت الشامة التي على خدِّكَ في مكانها.

بابتسامةً صغّرتها في العمر وأعادتها إلى عشرين عامًا تابعت حديثها:

- السُّبحة التي أعطيتك إيَّاها لا تزال في معصمك! لدي فضولٌ لأعرف إن كانت تلك السبحة في معصمك منذ زمن أم أنّك وضعتها لاستقبالي؟

- حين أعطيتني إيَّاها ماذا قلتُ لكِ؟

- لا أعرف!

- قد تكونين نسيتِ أشياءَ كثيرة، لكّنني لم أنسَ شيئًا.

- ألديك زوجة وأطفال؟

- لدي ابنة، وانفصلنا أنا وأمها.

مع اقتراب الوصول إلى منزل حسينو تذكّرا أن معهما شخصًا آخر ولا بد أن ينفصلا الآن بعضهما عن بعض، حسينو كان مشغولًا بهاتفه الجوَّال وهو مسرورٌ بالحديث الطويل الذي يجري بين أمّه وبين المترجم، الوداع كان بمثابة استقبالٍ، التواعدُ على

اللقاء مساء اليوم التالي حاصر القلبين المتعَبين بين أنياب هيجان لا منتهٍ، فكرةُ أنَّ الحبّ الأوّل حين يأتي جالبًا الموت معه، كانت قد أضحت شجرة تبرعمت وتغلغلت جذورها في أعماق قلب ذلك البلد ذي القلب الحجري والروح الإسمنتيَّة.

الخرزة 59: خرزة قيامة عشقٍ

في ذلك المساء كانت ابنتي دانا عندي، كنتُ اشتقت إليها إلى درجة اندهاشها من قبلاتي وأحضاني بين اللحظةِ والأخرى، وكأنّني اكتشفت للمرَّة الأولى حب طفلتي التي تكبر أمام عيني يومًا إثر آخر، لذلك لم تعرف إلى أن نامت ما سبب ازدياد حبّي لها أضعافًا اليوم، كنتُ أراها بعينٍ أخرى، وكقنبلةٍ على وشك أن تنفجر كنتُ قد امتلأتُ مشاعر حسَّاسة، حبّ الأطفال، حبُّ العائلة، المرأة، الحياة، الأبوَّة، الوطن، حب الإنسانية، كل هذه الأشياء كانت قد سيطرت على قلبي دفعةً واحدة، منذ اليوم الذي تركت فيه وطني وحتّى اللحظة التي تغيَّرتُ فيها كان الجرحُ الأعظم إيلامًا هو الكرامة، عرفت منذ اليوم الأوّل أن المرء حين يخرج من وطنه هذا معناه ضياع الكرامة، وطني الجديد منحني كلَّ شيءٍ ما عدا الكرامة، وكلّما نسيت أو حاولت إقناع نفسي بأنني مخطئ، يحصل حدثٌ ما لأتذكّر هذه الحقيقة المرَّة:

- وطنُ المرء كرامتهُ، الإنسانُ حينَ يخسر وطنه يخسر كرامته أيضًا.

هكذا، أبناءُ بلدي أيضًا بدؤوا السير على الدرب الذي سلكته، درب ضياع الكرامة، قطعوا البحار وعبروا الحدود الملغومة والمُرتجة والمعتقلات حتَّى يصلوا إلى هذه «الجنَّة»، تذكّرت القماشة التي كان أبي يغطّي بها وجهه ليخفي بكاءه عني، وحين اغرورقت

عيناي فرحتُ لأن دانا ليست هنا وسوف أشفي غليلي من البكاء وأبكي بحرقة، إلى أن يكون الطفلُ صغيرًا فإنَّه يرى أباه بعيدًا عنه ومختلفًا، لكن حينما يكبر ذاك الطفل ويغدو أبًا يدركُ أنه شبهُ أبيه وقريبٌ منه، هذا ما قاله حمو الإيزيدي ومريض آخر، وهذا أنا، مع اشتياقي لأبي احتلت صورة ابتسامته قلبي، وهذا الأمر جعل من طلبي القديم يغرز أنيابه مرَّةً أخرى في عنقي، كان طلب رؤية وجه أمي الحقيقي، أمي التي لم ترَ الخير منّي، بغضب دب جائعٍ توجّهت نحو القماشة وبدأت برسم أفعى خضراء، الأفعى باتت اثنتين، ثلاثًا، أربعًا، عشرًا ومئة، كانت الأفاعي تخرج من جلد بعضها الآخر، وثب الجميع من داخل اللوحة وغاصوا في اللون الأخضر وذابوا، بعضها انسحبت وانسلَّت من تحت النافذة وغابت، باتت اللوحة فارغةً، مع مجيء صوت أمي تمسكت قوَّة ما بيدي وجعلتني أرسم طائرًا أسودَ، الطائر الذي لم يبقَ في مكانه هو الآخر، فجأةً قفز من اللوحة واستقرّ في زاوية الغرفة، وبدأت أسمع صوت أمي الذي أنار الزاوية المعتمة في روحي:

- منذ زمن طويلٍ لم أرَك يا بنيّ، ألَم تشتق لأمِّك؟

هذه المرة لم يكفِني الكلام، ففي المرات الماضية كنت أرتعد من الاقتراب تجاه الصوت، أمَّا الآن فليس ثمَّة شيءٌ أخافُ منه، هرعت إلى مصدر الصوت وارتميت في أحضان أمّي، وضعتني بين يديها مثل طفلٍ صغير واحتضنتني، حاولتُ جاهدًا أن أرى وجهها لكن فشلت، عدا عن ذلك لا يوجد لدي أي سلاحٍ أحمي به نفسي سوى البكاء، بعد هذا العمر ثمة طعمٌ آخر للبكاء في

حضن الأمّ، حين رفعت رأسي ووددتُ أن أرى وجهها، أمسك الطائر الأسود بيدي وتوجَّه بي إلى سرير النوم، من خلفي كان صوت أمي يريدُ مني أن أنام لأذهب إلى عملي في اليوم التالي، مع تمدّدي على السرير استيقظتُ، كانت ثمّة لوحةٌ بقماشٍ ناصعٍ يشبه الكفنَ واضحًا، لم أشتهِ في حياتي كلها مثل هذا الاشتهاء للنصاعةِ التي احتلَّت اللوحة، أردت أن أرسم الوجه الذي عاش معي لسنواتٍ، وجه بيريفان، كنتُ قد نسيت كيف تحمل الفُرشاة، كان لا بدّ أن أحمل السكّينة وأبدأ برسم الحب.

الحب طائرٌ أسود، ودائمًا في أعالي الجبال يطير عاليًا عاليًا، كل جناحٍ بيد شخصٍ، وما عدا الشخصين لا توجد قوَّةٌ أخرى تستطيع إسقاط هذا الطائر من علوِّه، تأتي مرأةٌ وتغرز سكاكينها في أسفل الجناح، يسقط الطائرُ من علوّه ويُجرح، إن شاءت المرأة أم أبت فلن يموت الطائر، لعلّ جناحه يكسَر، لعلّ ريشه كلّه يتساقط، إلا أنّه سيأتي يومٌ يعود فيه ذلك الطائر إلى زرقة السماء ويحلّق فوق تلك الجبال الشاهقة، اتسَّعت اللوحة وأفرد الطائرُ الأسود جناحيه الضخمين وحلّق نحو السماء السابعة، نحو الأعلى، بهيجانٍ أعلى من هيجان الرسم أكتب كلماتي في هذه الليلة، أشعر أنّني إذْ أدوِّن هذه التفاصيل فإنّها سوف تضيع من يدي وتُمحى، الحياة باتت حلوةً بالنسبة إليّ إلى حدّ أنّني لا أريد للحظةٍ واحدةٍ من عمري أن تمرّ بلا معنى أو أثر، الحب مثل طائر الفينيق، يحترق، لكنه مرَّةً أخرى ينبعثُ من رماده وينهض.

الخرزةُ الأخرى التي من خارج السّبحة:

انتهى كلّ شيء وانقضى مع ضربة المعدن التي تهاوت على رأسه، انقضت الأحلام، انتفت الآمال، أُطفأت أنوار العيون، تهاوت رغباتُ القلب، ارتعدَ الطائرُ الأسودُ الذي كان يطير نحو السماء، في تلك اللحظات كانت بيريفان تتجهَّز لذلك الرجل الذي أضحَى بلا نَفَسٍ، أرادت أن تأتي إليه وأن تقشّر الجرحَ السميك الذي تجمّع منذ سنواتٍ وتراكمَ وتبدأ بحديثٍ لا ينتهي، أرادت أن تبدأ معه من جديد، كانت ثمّة أشياء لا بدّ أن تُحكى له في انتظاره، كما أنَّ من لا يتقنونَ اللغةَ كانوا في انتظاره لكي يفهم الطرفان بعضهما بعضًا، في ذلك اليوم كانت ثمّة عاصفةٌ اجتاحت الأرضَ والسماء، لُفّ جناحا الطائر الأسود بعضهما حول بعض وكان قد حوصِرَ في متاهةٍ، سقط زاد الجريح على يده اليمنى، ومع سقوطه انقطع خيط السبحة، تبعثرت تسع وخمسون خرزة من بين يده وحاول أن يجمعها، فيما تبعثرت أربعون خرزة أخرى في الأنحاء وتدحرجت كل واحدةٍ منها في اتجاه.

حين اجتمع الناس حول هذا الرجل الغريب ذي الشعر الأشيَب الممدّد على الأرض دون روحٍ رأوا أجساد أفاعٍ خضراء مبقَّعة عدا عن الخرزات، لم يعرفوا إن كان ثمّة علاقة بين تلك الأفاعي وجثَّةِ هذا الرجل، في اليوم التالي لم تتحدَّث وسائل الإعلام المحلية في تلك المنطقة عن الأفاعي الميتة ولا الخرزات المبعثرة، فقط

قالت إنَّ رجلًا غريبًا قتل على يد مريضٍ نفسيّ، وأيضًا عثروا فوق طاولةٍ في منزل الرجل الميِّت على دفترٍ ذي غلافٍ أزرق فيه حكاية أخيرة عن الحب بذوقٍ رفيع، كما عثروا على لوحتين ضخمتين غطّتا جدران غرفته، إحداهما كانت لتلك الأفاعي الخضراء المبقَّعة فيما الثانية كانت لطائرٍ أسودَ كبير، كان الطائر العملاق يطير نحو السماء فيما كان رجلٌ قد تمسّك بقوَّةٍ بالطائر وباتَ عالقًا بينَ الأرض والسماء، كانت ملامح الرجل تشبه ملامح الميّت، في تلك اللوحة، في الأعلى ثمة جبالٌ شاهقة، وفي الأسفل، على الأرض، ثمَّة تسعٌ وتسعونَ خرزة مبعثرة.